ابن زنبل الرمال

آخرة المماليك

أو واقعة السلطان الغورى مع سليم العثمانى



تحقيق: عبد المنعم عامر

أشرف على إعداد هذه الطبعة وقدم لها

د. عبد الرحمن الشيخ

الأعمال المختارة

يطالعنا هذا الكتاب بصورة شائقة للأيام الأخيرة لدولة المماليك الجراكسة قبل أن تطوى صفحتها وتدخل مصر فى ظلام الليل العثمانى. وأهمية هذا العمل تنبع من كاتبه، فهو شاهد عيان عاصر تلك الأحداث التى يرويها، وشاهد وقائع المعارك الحربية التى دارت فى الشام ومصر قبل أن يحكم العثمانيون قبضتهم على أرضهم. وروى كيف لعبت الخيانة دورها فى هزيمة المماليك، وكيف أسلمت يد الغدر آخر سلاطينهم العظام، طومان باى، إلى يد عدوه سليم الأول ليلقى حتفه مشنوقاً على باب زويلة. ثم يسترسل الكاتب فى سرد قصته الدرامية الدامية ليروى كيف سعى هؤلاء الأمراء الخونة إلى خيانة العثمانيين بعدها، وكيف كانت عاقبتهم. ولما كان الشيخ أحمد الرمال مؤلف الكتاب يعمل فى الأساس فى مجال ضرب الرمل وقراءة الطالع، فقد كان تناوله للأحداث بسيطاً شعبياً، لكنه لا يخلو من أصالة وعمق فى الوقت نفسه. وقد توفر على تحقيق هذا العمل الأستاذ عبد المنعم عامر بهمة ونشاط، وأضاف له الكثير من التعقيبات والهوامش. واستكمالاً لعمله، حرصنا فى تلك الطبعة على أن نقدم لها بدراستين هامتين أعدهما الدكتور عبد الرحمن الشيخ، تناول فيهما شخص ابن زنبل والمصادر التاريخية للعصر، والأسلحة والنظم العسكرية المستخدمة آنذاك. حيث حرص المؤلف على أن يتطرق لوصف الحياة الاجتماعية أحياناً، كما أشار للتركيب الاجتماعى للقوات العسكرية على الجانبين العثمانى والمملوكى.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٦٠٠ قرش

الألف كتاب الثاني
نافذة على الثقافة العالمية

آخرة المماليك

أو

واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني

الطبعة الثانية

تأليف

ابن زنبل

الشيخ أحمد الرمال (٩٦٠هـ)

تحقيق

عبد المنعم عامر

أشرف على إعداد هذه الطبعة وقدم لها

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٨

الفهرس

الموضوع	الصفحة

تقـــديم

بقلم : د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ

العنوان الأصلى لكتابنا هذا كما وضعه مؤلفه الشيخ أحمد الرمال (اى ضارب الرمل) هو (وقعة الغورى والسلطان سليم وما جـرى بينهما) لكن — ربما لدواعى الاختصار — جعل له عنـوان (آخـرة المماليك) ، فاذا كان المقصود آخرة السلطنة المملوكية الرسمية التى بدات سنة ١٢٥٠ وانتهت بهزيمة جيوشها فى معركة مرج دابق بالشام سنة ١٥١٦ ومعركة الريدانية شمال القاهرة سنة ١٥١٧ ، لكان الأمر صحيحاً ، أما اذا كان المقصود بآخرة المماليك آخرة العنصر المملوكى (التركى والشركسى والجورجى أو الكرجى ... الخ) ، فالأمر غير صحيح اطلاقا ، والا فمن هم الذين واجهوا حملة نابليون على مصر سنة ١٧٩٨ اليسوا هم المماليك ! ثم اليست هناك جماعة من المؤرخين تطلق على الحقبة التالية لسقوط السلطنة المملوكية اسم الحقبة العثمانية المملوكية ! بمعنى أنها حقبة كان للعثمانيين فيها الشعار والخطبة والسكة ، وللمماليك مشيخة البلد ، والكشوفية والالتزام .. الخ أو بتعبير أكثر شعبية ، كان للعثمانيين (الصيت) وللمماليك الغنى ، بل ان ابن زنبل الرمال يحدثنا أن طائفة من المماليك كان من رأيها عدم مقاومة السلطان سليم ، فهو بعد قليل سيرحل « ونفعل نحن ما نشاء » . ولم يقض نابليون على المماليك كسلطة عسكرية ، والا فمن هم الذين نصب لهم محمد على مذبحة شهيرة فى القلعة سنة ١٨١١ ؟ اليسوا هم المماليك .. لقد قضى محمد على على عدد كبير من الرءوس المملوكية .. لكن سرعـان ما نبتت لهم رءوس جديدة ، فالمماليك كما هم (عرق) أو (عنصر) فانهم نظام يصعب بل يستحيل القضاء عليه بمجرد معركة أو بمجرد اصدار قانون أو غابـة من القوانين . واذا كان محمد على قد قضى عليهم تماما ، فمن هم اذن الذين واجههم ابنه ابراهيم سنة ١٩١٢ فيما عرف بمذبحة المماليك الثانية

فى صـعيد مصر ، التى يحدثنا عنها المستشرق الفرنسى بريس دافين المعاصر للأحداث والذى تسمى باسم ادريس أفندى . يقول دافين (*) : « التجأ المماليك الذين فروا من مذبحة القلعة — حيث قتل ١٢٠٠ منهم — الى النوبة ودنقلة . واضطروا مكروبين من ناحية بعقبات الطبيعة ، ومن ناحية أخرى بتعقب « ابراهيم بك » اياهم — وقد أنهكهم قتال أقدموا عليه هنا وهناك دون ظفر — الى أن يلتمسوا المأوى فى الجبال التى يقطنها العبابدة والبشارية . وأجبرتهم هذه القبائل الهمجية على أداء ثمن باهظ عن تلك الضيافة العقيمة . وقد أنفق البكوات لامداد جنودهم بالقوت اللازم فى قلب تلك الصحراء جميع ما ملكت أيديهم . وعلى الرغم من التضحية بذخائرهم فقد هلكت جميع جيادهم من قلة الغذاء ، وهلك كثير من رجالهم نتيجة لشدة الحرمان .

فلما أملق المماليك من راحة الحياة وأصبحوا يعانون ما لا يطاق من الضيق ، قبلوا أن يستمعوا لعروض الصلح التى أرسل ابراهيم الماكر مندوبيه يقترحونها عليهم وسط كربتهم . ولم يعـدهم سـلامة حياتهم فحسب ، بل وأن يعيدهم الى مثل المناصب التى فى مستوى رتبهم وأن يرد لهم ممتلكاتهم ، وهذا كله على شرط أن يعترفوا بحكومة محمـد عـلى .

ولقد خلبت هذه الوعود نحو ٤٠٠ مملوك فأنستهم الدرس القاسى الذى تلقوه منذ عام خلا ، وكان على رأسهم بكوات مختلفون ، فقبلوا المقترحات . وفى نهاية مايو عام ١٨١٢ نزلوا من الجبال قوافل صغيرة واتجهوا نحو اسنا حيث كان مقر قيادة ابراهيم . فلما اجتمع المماليك ، ورأى ابن محمد على أنه لا ينبغى انتظار قدوم آخرين تستدرجهم تلك الوعود المغرية ، أصدر أمره بالاجهاز على أشتات هؤلاء الجند الذين كانوا ذوى صولة فيما مضى . وفى ليلة واحدة ذبحوا جميعا بلا رحمة . ولقى مائتا عبد أسود مصير سادتهم .

(*) دافين ، بريس (ادريس أفندى) ، ادريس أفندى فى مصر ١٨٠٧ — ١٨٧٩ . القاهرة ، كتاب اليوم ، جمعها وترجمها د. أنور لوقا ، ص ٩٩ .

وأنقذت وساطة طبيب ابراهيم الفرنسى مملوكين فرنسيين من طائلة هذه المذبحة الرهيبة . وثمة مملوك آخر لقيته فى إسنا يدين بنجاته إلى ما كان عليه من الصبا والجمال » .

وإذا كان محمد على وابنه ابراهيم قد قضيا بغير رجعة على المماليك عنصراً ونظاماً ، فعلى من اعتمد محمد على فى ادارة البلاد فى جانب منها على الأقل ، وأين ذهب (أولاد الناس) وهم أولاد المماليك الذين كانوا يعملون بالتجارة ، وادارة المشروعات الصغيرة والكبيرة معتمدين على صلات النسب والقربى بالعناصر العسكرية المملوكية الحاكمة ؟! قد يقال ان محمد على اعتمد أيضا على عناصر من أهل البلاد ، وهذا صحيح بل ان الحركة الشعبية التى أوصلته للسلطة كانت فى غالبها من علماء الأزهر ، وهم فى غالبهم فلاحون عرقا وتراثا (١) كما اعتمد على عناصر جلبها معه - وهذا صحيح لكنه لا يستطيع - حتى لو أراد - أن يجتث كل القائمين على البنية الاقتصادية الأساسية فى المدن ، كما لا يستطيع أن يشغل كل العناصر الادارية القائمة على جمع الأموال من الريف بعناصر جديدة مرة واحدة ، وعلى هذا بقى الحباك المملوكى كما هو مسيطراً على طائفة الحباكين ، وبقى الصيرفى ، والحمامى ... الخ وليس المقصود هنا أن ابن الناس كان يعمل بنفسه فى هذه المهنة أو تلك وانما كان يدير هذا المشروع الصغير أو الكبير لحسابه ، وطبعاً لم يكن كل أولاد الناس على هذه الشاكلة نفسها فقد كان منهم العلماء ، والتجار وأصحاب الأراضى ، وبطبيعة الحال أيضا لم يكونوا هم العنصر الوحيد ، فقد كان هناك عرب المغرب وعرب المشرق ، والعربان عامة .

اتفقنا إذن أن المماليك عنصراً ونظاماً لم ينتهوا سنة ١٥١٧ ، وعلى هذا يجب أن نحمل عنوان هذا الكتاب على مفهوم سقوط أو آخرة السلطنة المملوكية الرسمية فقط .

---

(١) عن العرق الغالب فى الأزهر انظر :

ونتر ، ميكل ، المجتمع المصرى تحت الحكم العثمانى ، ترجمة ابراهيم محمد ابراهيم - تحت الطبع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

ويشير ابن زنبل الى قضية مهمة طال جدال المؤرخين حولها وهى : هل كان اتجاه السلطان سليم العثمانى الى مصر مجرد صدفة ، وأنها لم تكن هى هدفه الأساسى بخروج جيشه من الأناضول ، وهل كان خروج الغورى بجيشه الى الشام مسألة فيها تسرع ؟!

والواقع أن مثل هذا السؤال فى محله تماما ، وتحتاج الاجابة عليه لبعض التأصيلات التاريخية قبل تحليل أقوال ابن زنبل .

لقد كان الاتجاه الأساسى للدولة العثمانية منذ نشأتها اتجاها أوربيا ، بل لقد كان الاتجاه الأساسى للعناصر التركية حتى قبل قيام امارة أورخان اتجاها أوربيا كذلك . لقد كان الاسلام دينا له وجود حقيقى فى شرق أوربا حتى قبل سقوط القسطنطينية فى يد جيوش محمد الفاتح سنة ١٤٥٣ ، بل لقد كان التوجه العام لبعض جماعات السلاجقة — وهم أيضا أتراك — كان فى اتجاه الأناضول وشرق أوربا ، ومنذ أيام أورخان الأول (١٣٢٦ م) ، كانت القوات العثمانية فى البر الأوربى (٢) ، وفى عهد مراد خان الثانى (تولى ١٣٦٠ م) كان الصراع الأساسى للعثمانيين مع الصرب (٣) ، وفى عهد بايزيد الثانى (تولى ١٣٨٨ م) كانت الفتوحات العثمانية الأساسية فى شرق أوربا (٤) . واستمر الحال على هذا المنوال حتى السلطان الثامن بايزيد خان الثانى (تولى ١٤٨١) بل اننا نكاد نحس فى عهده أن الدولة العثمانية أضحت أكثر ارتباطاً بأوربا من خلال علاقاتها الخارجية السلمية بالاضافة لحركة فتوحها ، وتواجدها الفعلى فى أوربا . لنقرأ هذه السطور الموجزة فى كتاب محمد فريد بك :

« وفى عهد هذا السلطان ابتدأت علاقات الدولة العلية مع مملكة الروس ، وذلك أنه بعد تفرق مملكة الروس الأولى عقب اغارة المغول على بلادهم وتسلطهم عليها مدة استخلصها ايوان الثالث Ivan

(٢) معلومات متداولة ومعروفة . انظر على سبيل المثال تاريخ الدولة العلية العثمانية للأستاذ محمد فريد بك ، تحقيق د. احسان حقى ، ص ١٢٦ .

(٣) نفسه ، ص‌ص ١٢٩ — ١٣١ .

(٤) نفسه ، ص ١٣٩ ومابعدها .

وكان يلقب (دوق موسكو) ، وأعاد لها بعض مجدها السابق فى سنة ١٤٨١ م وابتدأت العلاقات بينها وبين الدولة فى سنة ١٤٩٢ حيث وصل الى القسطنطينية أول سفير روسى ومعه جملة هدايا للسلطان . وبعد ذلك بأربع سنوات أتى اليها سفير آخر واستحصل من الدولة على بعض امتيازات لتجار الروس .

وكذلك ابتدأت فى عهده المواصلات الحبية مع مملكة (بولونيا) فعقدت معاهدة بين المملكتين فى سنة ١٤٩٠ وتجددت فى سنة ١٤٩٢ ، لكن لم يلبث هذا الوفاق أن تكدر صفاؤه بسبب ادعاء كل من الدولتين حق السيادة على بلاد البغدان واغارة ملك بولونيا عليها فالتزم العثمانيون بطرد المجر منها والاغارة على حدود بولونيا بمساعدة أمير بغدان نفسه الذى قبل حماية الباب العالى عليها .

وكذلك ابتدأت المخابرات بين الدولة العلية فى ذلك الحين وبين البابا اسكندر السادس (بورجيا) وملك نابولى ودوق ميلانو وجمهورية فلورنسا فكان كل منهم يجتهد فى محالفة الدولة العلية والاستعانة بجنودها البرية ومراكبها البحرية لمحاربة من عاداه وفى قطع علائق الاتحاد بينها وبين من خالفه . وبتلك المساعى تمكن الايطاليون من ايجاد النفرة بين الدولة وبين جمهورية البنادقة حتى تسبب عنها حرب عوان بينهما فأرسل السلطان جيوشه من البر والبحر لفتح مدينة ليبنته من بلاد اليونان وكانت تابعة للبنادقة ففتحت بكل سهولة عقب انتصار العمارة العثمانية على مراكب البنادقة التى اعترضتها عند مدخل الخليج المسمى باسم هذه المدينة . وفى الوقت نفسه أغار والى بلاد البشناق على اقليم فريول ثم اجتاز نهر ايزونطو ووصلت طلائعه الى أرباض مدينة فيشنسا وأوقف القتال بسبب اشتداد البرد . وفى السنة التالية احتل العثمانيون ثغور مودون وكورون وناورين من بلاد اليونان وكانت من أملاك البنادقة فى هذه البحار .

فخافت جمهورية البندقية ؛ بسبب تقدم الأتراك الى مركز حكومتها ، من ضياع استقلالها واستغاثت بممالك أوروبا المسيحية فانجدها البابا وملك فرنسا ببعض مراكب حربية ، وساعدوها على محاصرة جزيرة

ميدللي لاشغال الدولة عن بلادها فلم تنجح بل فتح العثمانيون مدينة (رودتسو) الواقعة على بحر الادرياتيك . ولولا عصيان أولاد السلطان عليه ببلاد الاناضول كما سيجيء ، لفتحت باقى بلاد البنادقة لكن اضطرت أحوال المملكة الداخلية السلطان ، الى ابرام الصلح مع محاربيه بأوروبا وهم المجر والبنادقة ، فتم الصلح بينه وبين الجمهورية سنة ١٥٠٢ وفى السنة التالية تم الصلح كذلك مع ملك المجر » .

فما الذى حدث بعد ذلك مباشرة وجعل الدولة العثمانية تستدير الى الخلف ، وتستدير تاركة أوربا مستقبلة المشرق العربى ؟ ان هذه الاستدارة ، أو تغير الاتجاه وبهذا الاتساع يبدو مفاجئا او على الاقل يبدو غير واضح تمام الوضوح . حقيقة لقد واجهت الدولة العثمانية منغصات خطيرة من الدولة الصفوية الايرانية التى احتضنت منافسى السلطان سليم على العرش ، بل وحاولت فيما تقول بعض المراجع (٥) التحالف مع المماليك لضرب الدولة العثمانية ، وهو أمر مستبعد لاختلاف المذهب الدينى وهى مسألة كان لها تأثير كبير فى هذا العصر ، وعملت الدولة الصفوية الايرانية على نشر المذهب الشيعى فى شرق الأناضول واستولت على العراق .. هنا كان لابد أن يسارع السلطان سليم لدرء هذا الخطر ، فهزم بالفعل جيوش الفرس بزعامة الشاه اسماعيل الصفوى فى وقعة تشالديران (أو جالديران) شرق الأناضول سنة ١٥١٤ م ، وفر الشاه الى داخل بلاده .

وهنا نجد خلافا واضحا بين رواية محمد فريد ورواية ابن زنبل ، فمحمد فريد يقدم لنا الفتح العثمانى لمصر كعمل مقصود انتقاما من مشروع تحالف (لم يتم) بين الفرس الصفويين وبينهم ضد العثمانيين بينما ابن زنبل يذكر أن السلطان الغورى آوى قرقورد اخا سليم ومنافسه على العرش « .. فهرب أخوه قرقورد الى مصر واستجار بالغورى . فأبى أن يمكنه منه فاشتدت العداوة بين الغورى وبينه حتى وقع ما وقع » ويذكر ابن زنبل أيضا أن علاء الدولة عامل الغورى على

(٥) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٨٩ .

مرعش فى الشام رفض أن يبيع الأعلاف والمؤن لجيوش السلطان سليم التى كانت تتقدم فى معركة دفاعية ضد الشاه اسماعيل الصفوى ، مما أدى الى خسائر كبيرة فى الدواب والعسكر العثمانية .

« قال الراوى : ومما وقع بينهما من شدة العداوة أن السلطان سليما لما غزا على اسماعيل شاه سلطان العجم وجاء — أى السلطان سليم — بالعساكر على البيرة (بين حلب والثغور العثمانية) وكان نائبها يسمى علاء الدولة من طرف جناب السلطان الغورى ، فأمر علاء الدين أهل مرعش الا يبيعوا على عسكر السلطان سليم شيئا من المأكل ولا من غيرها ، فمات أكثر الدواب والناس من شدة الغلاء وكان هذا سبب الحرب بين الغورى وسليم .. وحصل للسلطان سليم من ذلك غم لا مزيد عليه .. فأشار عليه وزراؤه أن يرسل يعلم الغورى بذلك .. فأجابه الغورى بأن علاء الدولة عاص أمره .. ثم كتب الغورى الى علاء الدولة خفية يشكره على ما فعل ويغريه على قتال السلطان سليم .. » . نحن هنا إزاء رواية تظهر السلطان سليما والجيوش العثمانية حريصة على علاقات سلمية مع المماليك ، فالجند العثمانيون يريدون شراء المؤن ولم ينهبوها ، والسلطان سليم يشكو للغورى فعل عامله . وكان كل عسكر الغورى عند خروجه من مصر يعتقدون أنهم انما خرجوا من مصر مدججين بالسلاح مع الغورى ؛ لأنه ينوى عقد صلح بين الشاه الصفوى وبين السلطان سليم فيما يقول ابن زنبل ، وهو شاهد عيان ، وأرسل الغورى عشرة من عسكره المدججين بالسلاح لمقابلة السلطان سليم فلما دخلوا عليه اصطفوا صفا واحداً « فنظر اليهم السلطان سليم مليا وامتلأ بالغيظ ثم قال للأمير مغلباى : يامغلباى ، استاذك (أى الغورى) ما كان عنده رجل من أهل العلم يرسله لنا ؟! وانما أرسلك بهؤلاء العشرة يرعب بهم قلوب عسكرى ويخوفهم برؤية أجناده ، لكن انا أكيده بمكيدة أعظم من مكيدته ، ثم أمر برمى رقبة مغلباى وجماعته » وبعد وساطة « أمر بحبس مغلباى ورمى برقبة العشرة قدام أوطاقه (خيمته) واحداً بعد واحد وهو ينظر اليهم .. ثم أحضر مغلباى وحلق ذقنه والبسه طرطورا ، وأركبه حمارا

أعرج معقوراً ، وقال له : قل لأستاذك يجتهد جهده وها أنا حضرت اليه كالبرق الخاطف والرعد القاصف .. » وهكذا بدأت الحرب .

نحن إزاء رواية تظهر الغورى متحديا مستفزاً وتظهر انه كان يمكنه تجنيب مصر والشام هذا الغزو العثمانى ، خاصة أن الرمّال يقول لنا انه — أى الرمال عندما تنبأ للغورى — من خلال ضرب الرمل — أن ملكه سينتهى على يد من أول اسمه (سين) ، لم يخطر على بال الغورى قط أن هذا الشخص يمكن أن يكون السلطان سليم ، اذ إن الغورى كان متأكداً أن هذا لا يمكن أن يكون لأن الروم (يقصد العثمانيين) لا يمكن أن يجسروا على قتاله أو دخول مملكته ، وانما كان الغورى يشك فى واحد من أمرائه المماليك هو الأمير سيباى ، لذلك كان السلطان الغورى يرفض كل نصيحة من سيباى نائب الشام الذى نصحه بالبقاء فى مصر وأن يقوم هو بقتال ابن عثمان عنه لكن الغورى رفض ، وكان كلما كتب سيباى الى الغورى يحذره من خاير بك نائب حلب « وأنه ملاحى على أبناء جنسه » لم يكن الغورى يسمع له لاعتقاده أن سيباى هو المقصود بنبوءة العرّاف (الرمال) بأن زوال ملكه يكون على يديه .

« .. وكل ذلك والسلطان معتقد أن الخيانة هى من سيباى ، وما قصده إلا أخذ السلطنة كما ذكر المنجم الرمال على حرف السين ، ولا يظن او يخطر فى فكره أن السلطان سليم يقدر يدخل أرض مصر أبداً لما يعلم من شجاعة الجراكسة .. » .

ما دام الأمر كذلك فلم كل هذه التحرشات والاستفزازات ؟!

ومن الباحثين الغربيين الذى هدته تحليلاته الى شىء مما ذكره ابن زنبل ، الباحث ميكل ونتر Michael Winter (٦) الذى يذكر أنه « .. حين قاد سليم جيشاً قوياً فى شمال الشام لم يكن واضحاً ما اذا كان يوجه جيشه نحو المماليك أو الفرس . وكان تقدم الجيش المملوكى بقيادة قنصوه الغورى خطوة غير عادية حتى لو كانت دفاعية فحسب ، وكان لسليم مبرره فى اعتبارها عملا حربيا .. » .

---

(٦) فى كتابه : المجتمع المصرى تحت الحكم العثمانى . تحت الطبع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب — ترجمة ابراهيم محمد ابراهيم .

ويقول فى موضع آخر : « .. ومن الأمور بالغة الأهمية للتاريخ السياسى والاجتماعى لمصر تحت الحكم العثمانى أن العثمانيين سرعان ما قرروا الابقاء على المماليك وتم دمجهم فى الحامية العثمانية ... وفى سبتمبر قبل أن يغادر سليم مصر مباشرة صدر عفو عن المماليك فخرجوا من مكامنهم يرتدون ملابس الفلاحين .. » بل ويحدثنا ونتر أن العثمانيين كانوا قد قدموا المساعدة البحرية للمماليك قبل سقوط دولتهم « وفى نهاية القرن الخامس عشر صارت العلاقات الدولية فى الشرق الأوسط أكثر تعقيداً فجاة ، اذ حرم اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح الى الهند مصر من عوائد التجارة فى التوابل ؛ فأسهم ذلك فى زيادة مصاعب الدولة الشديدة أصلا ، كما أدى امتداد النشاط البرتغالى التجارى والعسكرى الى المحيط الهندى الى تهديد البحر الأحمر والأماكن الاسلامية المقدسة فى الحجاز ، ولم يستطع المماليك أن يتخذوا موقفاً ضد البرتغال لأنه لم تكن لديهم قوات بحرية ؛ مما دعاهم الى الاتجاه للعثمانيين من أجل العون البحرى وحصلوا عليه .. » .

★★★

نحن فى هذا الكتاب نتعامل مع رمال أو قارىء للطالع ومن هنا فكل ما يحدث وما سيحدث مقدر ومكتوب أو بتعبير آخر يجرى بالقضاء والقدر خيره وشره من الله سبحانه ، وفى ظل هذا من المفروض أنه لا يبحث عن « سبب » للأحداث ما دامت الأمور واقعة « حتما » مهما كان ، وهى فكرة فى حقيقة الأمر شائعة ومسيطرة فى مجتمعات الشرق ، لم تكن تمنع من اتخاذ الأسباب فى العصور الزاهرة وكانت فكرة باعثة على السلبية فى عصور الانحطاط (٧) .

إنه يعرض لنا الأحداث وكان الغورى يسعى لهزيمته بنفسه ، ويبحث عن حتفه بظلفه ، ولا تخلو صفحة من الكتاب من عبارات على شاكلة « إذا أراد الله بقوم خيراً وفق بينهم ، واذا أراد بقوم شراً فتنهم

(٧) راجع مونتجمرى وات : القضاء والقدر فى فجر الاسلام وضحاه ، ترجمة د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ . القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ـ سلسلة الألف كتاب الثانى .

واوقع الخلف بينهم » ، « وكل ذلك حتى يجرى القضاء والقدر » ، « وإذا اراد الله بأمر بلغه » ، « فسبحان من يغير ولا يتغير » ، « فسبحان من لا يحول ولا يزول ولا تراه العيون » ، « ولا تعاند تغلب ولو انك سلطان » ، « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » ، « ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم » ، « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، واملى لهم ، ان كيدى متين ــ آية » ، « ولله فى هذه ارادة » ، « لكن اذا تم أمر ترقب زواله اذا قيل تم » ، « والله يفعل ما يشاء » ، « ولله التدبير » ، « الحى ما له قاتل » ، « اذا نزل القدر عمى البصر » ، « لكل شيء آفة من جنسه » ، « الله يخون الخائن » ، « من لم يمت بالسيف مات بغيره » .. وغير ذلك كثير .

ورغم هذا ، فالحق أن ابن زنبل لم يغفل تناول الأسباب الحقيقية لهذه الهزيمة المنكرة فهو يؤكد فى صفحات كتابه أن جيش الغورى كان عامراً بالصراع الداخلى ، وانه قدم فى معركة مرج دابق فئات العسكر المماليك التى كان يخشى بأسها أو التى كان بينه وبينها عداوة ، بينما احتفظ بمماليكه المجاليب بعيداً عن القتال ، مما أوغر صدر الفئة الأولى بل وامتنعت عن القتال ، ولم تطع الأوامر فى ميدان القتال ، كما يشير الى أن شرائم المماليك كانت تنهب أموال المماليك القتلى ويفصل فى تناول الصراع الداخلى بين العناصر المملوكية المختلفة . والواقع أن معركة مرج دابق حسمت منذ اللحظات الأولى ، ولم يدخل المعركة ضد العثمانيين الا عدد قليل رغم ضخامة أعداد جيش الغورى . انها اشبه ما تكون بمعركة الساعات الست فى التاريخ المعاصر ، لقد حقق سليم نصراً بلا حرب فى معركة مرج دابق ، وكان ميدان المعركة على الجانب المملوكى فوضى هائلة ، انسحاباً ، وتآمراً ، وفى أثناء الانسحاب نهب المماليك بعضهم بعضاً .. وما ذكرته بعض المراجع من قتال على الطرف المملوكى لم يكن الا حالات بطولة فردية ، تم التركيز عليها دون التفات للصورة العامة . وظهرت المقاومة المملوكية ــ الى حد ما ــ واضحة فى القاهرة ، على يد طومان باى ، ورغم استمرار الصراعات المملوكية ، وطمع كل مملوك فى أن يكون سلطانا ، الا أن الصورة التى يقدمها لنا ابن زنبل تظهر بطولات مملوكية .

وقد اشار ابن زنبل لكثافة النيران العثمانية كسبب من أسباب هزيمة المماليك .

القسم الأول

ابن زنبل الرمال ودخول العثمانيون لمصر

دراسة بقلم: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ

١ ـ ابن زنبل

بين مصادر العصرين المملوكى والعثمانى

الباحثون فى التاريخ العثمانى عامة ، وتاريخ مصر العثمانية خاصة لا غنى لهم عن الرجوع لمصادر الحقبة المملوكية الخالصة (١٢٥٠ — ١٥١٧) ، خاصة من يهتم منهم بالأبعاد الاجتماعية والاقتصادية للتاريخ ، لسبب بسيط وهو أن العناصر الحاكمة — كما سبق القول — كانت فى الغالب هى العناصر نفسها فى العصرين المملوكى والعثمانى على سواء ، بل وبعد ذلك أيضا ، كما أن النسيج الاجتماعى وعلاقات الانتاج كانت فى غالبها واحدة مع اختلافات يسيرة ، رغم محاولات الدولة العثمانية فرض الاصلاح باصدار القوانين وهو أمر غير مجد — كما سبق القول — ما لم يصاحبه تغيير فى البنية الاجتماعية التى تعد القوانين أحد أساليب تغييرها لكنها بالتأكيد ليست الأسلوب الوحيد .

وقد انعكس النسيج الاجتماعى حتى على فئات المؤرخين أو أنواعهم ، فليس بين أيدينا المؤرخ الفلاح أو ذو الأصول الفلاحية فى العصر المملوكى الخالص ، اللهم الا اذا اعتبرنا قصيدة أبى شادوف ذات جذور تمتد للعصر المملوكى . وهذه القصيدة شرحها فى العصر العثمانى يوسف الشربينى وهو فلاح أيضا فيما يبدو ، أو له أصول فلاحية على الأقل (١) ، وقد وصل الباحثون المؤرخون (٢) الى أن أبى شادوف ليس شاعراً معروفا بعينه وانما هو « صوت مجهول عن حال الفلاح .. انه شاعر شعبى مجهول » والمعروف أن الأشعار الشعبية المجهول قائلها ، عادة ما لا يكون واضعها مؤلفاً واحداً ، وانما هى بمثابة تراث تراكمى يضيف اليها كل من يصادفها اذا كانت لديه ملكة الشعر ،

---

(١) فى كتابه « هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف » .

(٢) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى ، الهيئة العامة للكتاب ـ سلسلة تاريخ المصريين .

ومن هنا فليس هناك ما يمنع أن يكون لهذه القصيدة الشهيرة أصول تعود الى العصر المملوكى الخالص (١٢٥٠ ــ ١٥١٧) وأنها ان شاعت فى العصر العثمانى ، فليس هناك ما يمنع من توغل جذورها عمقاً الى أبعد من ذلك ، أما شارح القصيدة (يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن خضر الشربينى) فهو حقيقة تاريخية ، وأنه شرح قصيدة أبى شادوف هذه بناء على طلب الشيخ احمد السندوبى أحد علماء الأزهر (٣) .

وفيما عدا قصيدة أبى شادوف ان جاز استنتاجنا السابق ، فالمؤرخون فى العصر المملوكى اما عسكر خالصون أو عسكر اداريون ، أو أولاد عسكر (أولاد مماليك) وهم المعروفون باسم (أولاد الناس) ، وان كان خاير بك قد اطلق عليهم فى بداية العصر العثمانى (أولاد الصرمة) ووصفهم بأنهم صرم أولاد صرم (بضم الصاد وفتح الراء) وجعل لها الباحث ميكل ونتر Michael Winter (٤) مقابلا انجليزيا Old Shoes ، اى الأحذية القديمة . ومن المعروف أن خاير بك هو أيضا مملوك وان كان من أصول عرقية مختلفة .

ومن هنا تأتى أهمية ابن زنبل الرمال ، فقد كان الرجل ضارباً للرمل وليست هذه المهنة من المهن العسكرية أو الإدارية ، كما انه لم يكن من (أولاد الناس) الذين هم أولاد الصرمة على حد تعبير خاير بك فيما بعد . وكان لمهنة ابن زنبل أثرها فى عرضه للأحداث التاريخية ، وطريقته فى تفسيرها كما سيتضح فى سياق هذه الدراسة .

وسنستعرض فى السطور التالية اهم الكتابات التاريخية فى العصر المملوكى (١٢٥٠ ــ ١٥١٧) ، مع نسبة كل مؤرخ للفئة التى ينتمى اليها (عسكرى خالص ــ عسكرى ادارى ــ ابن ناس ...) . ان أول من نلقاه هنا هو بيبرس الدوادار الناصرى المنصورى (ت ١٣٢٥) وهو أمير كان من مماليك المنصور قلاوون ، ومن مماليك ابنه الناصر محمد بن قلاوون من بعده ، وكان بيبرس الدوادار قائداً عسكرياً لامعاً ، بالإضافة

---

(٣) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، فصول ، ص ٥٧ .
(٤) فى كتابه : Egyptian Society under ottoman rule 1517-1798.

الى وظائفه السياسية ، كما كان — كما هو واضح من أسمه — دوادار ، أى شاغل وظيفة الدوادارية ، أى حمل دواة السلطان وابلاغه بالرسائل الصادرة عنه وتقديم الشكاوى اليه (٥) .. ولبيبرس هذا كتابان هما : (التحفة الملوكية فى الدولة التركية) و (زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة) والمقصود بالدولة التركية فى عنوان كتابه الأول دولة المماليك البحرية ، أو الدولة المملوكية الأولى ؛ لأن العرق الغالب على مماليك هذه الدولة كان هو العرق التركى ، وكتابه الثانى بمثابة تاريخ عام للاسلام ينتهى سنة ٧٢٤ هـ / ١٣٢٣ م . ومن الطبيعى أن يكون الاهتمام الأول لبيبرس الدوادار فى كتابيه هذين هو التاريخ العسكرى والسياسى ولم يشر الرجل فى قليل أو كثير لأوضاع الفلاحين ، ولا حتى البدو (العربان) .

والمؤرخ العسكرى الثانى هو أبو الفداء المشهور (ت ١٣٣١) وهو من سلالة أيوبية ولكنه اندمج فى الحياة العسكرية والسياسية للمماليك ، فقد صحب أباه مع جيش المنصور قلاوون للهجوم على حصن المرقب الذى كان بأيدى الصليبيين سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م وكان أبو الفدا خبيراً فى شئون الحرب ، فقد كان « يخرج مع جيوش المماليك سواء ضد المغول أو الأرمن ، كما كان علیماً بالأحداث العسكرية والسياسية التى كان هو شاهد عيان لها ، بل وشارك فى صنع بعض أحداثها » (٦) . وكتاب أبى الفداء المشهور هو (المختصر فى أخبار البشر) ومن الطبيعى أن يركز أبو الفداء على تفاصيل أخبار الشام التى فيها نشأ ، ومن الطبيعى ايضا ألا يذكر شيئا عن فلاحى مصر أو الشام أو حرافيش مصر أو زعر الشام (الزعر والمفرد ازعر ، هو ابن البلد غير المملوك ولا البدوى فى بلاد الشام) وان اهتم بأخبار العربان باعتبارهم عناصر عسكرية ، ويعرض أبو الفدا تاريخه منذ بداية التاريخ الاسلامى على النسق الحولى (عام فعام) ويركز على وفيات الأعلام حتى سنة ٧٣١ هـ / ١٣٣٠ م .

---

(٥) سعيد عبد الفتاح عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، القاهرة ، النهضة العربية ، ١٩٦٥ ، ص ٤١٦ .

(٦) قاسم عبده قاسم : الرؤية الحضارية للتاريخ عند المسلمين ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨١ ، ص ١٢٩ .

وعندما سقنا هذين المثالين على المؤرخين العسكريين ، كنا نقصد انهم عسكريون بالمفهوم المملوكى ، فلم يكن هناك فصل بين ما هو عسكرى وما هو سياسى فى هذا العصر ، فكل عسكرى هو سياسى بالضرورة ، وهو عسكرى فى نطاق مصلحته الشخصية أو نطاق مصلحة مجموعته أو شرذمته أو عرقه ، فهو يمارس السياسة لصالحه فى نطاق مجموعته ، وهو يمارس السياسة فى نطاق مجموعته ضد المجموعات الأخرى ، وهو يمارس السياسة إذا وصل الى السلطنة للاحتفاظ بمقعده خلال دوامة من الصراعات الداخلية ، وعينه فى الوقت نفسه على الحدود مترقبة العدو الخارجى .. انه بالضرورة (بتاع كله) وهو مصطلح متغلغل فى التاريخ المصرى ، لكنه ان كان صالحاً لعصور مضت ، فقد أصبح مدعاة للتخلف فى عصور لاحقة .

★★★

فإذا انتقلنا للمؤرخين الاداريين وهم ذوو خلفية عسكرية ودينية بالضرورة ، والاختلاف بينهم وبين المؤرخين العسكريين الآنف ذكرهم فى الدرجة لا فى النوع ، فقد فاق المؤرخون الاداريون زملاءهم الآنف ذكرهم فى زيادة تبحرهم فى علوم عصرهم ، وتوليهم مناصب متعلقة بالتنظيم والادارة ودواوين الانشاء ، ومن هؤلاء ابن فضل الله العمرى (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م) وهو من أسرة تولت ديوان الإنشاء بمصر لفترة تقرب من قرن من الزمان وكان تلميذا لابن تيمية المشهور ، وعمل بالقضاء وقد أصابه بعض مما يصيب القريبين من السلطان فأمر السلطان الناصر محمد بمصادرة أمواله وسجنه ثم عفا عنه ، وفى فترة لاحقة عزل من وظيفته ورسم أو فرض عليه الترسيم وهو مصطلح يعنى تحديد الاقامة . وكتاب ابن فضل الله العمرى الذى يهمنا هو (مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار) وهو كتاب موسوعى لكنه يحوى جزءاً تاريخياً حوليا يصل الى سنة ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م ، ومن المتوقع أن يشير مثل هؤلاء المؤرخين الى عناصر المجتمع كله من فلاحين وعربان وأهل ذمة بالاضافة طبعاً للطبقة الحاكمة .

أما أبو العباس أحمد المعروف بالقلقشندى لنشأته فى قرية قلقشندة (قرقشنده كما ينطقها العوام - فى محافظة القليوبية مركز طوخ الآن) وصاحب كتاب (صبح الأعشى فى صناعة الانشا) ، فقد التحق بالعمل فى ديوان الانشا فى عهد الظاهر برقوق واستمر فى العمل فيه حتى وصل لدرجة رفيعة ووافته منيته سنة ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م ، وهو لم يكتب كتابه هذا ليكون مرجعا للباحثين فى التاريخ وانما ليكون دليلا للعاملين فى ديوان الانشاء (قريب من وزارة الخارجية الآن) ومن هنا ؛ فاننا نجد فيه فيضا من المعلومات عن المراسلات والألقاب والتواقيع كما تعرض لفئات المجتمع والقبائل وغير ذلك .

★★★

وفى فترة من الفترات ، كان من غير المقبول أن يعمل أبناء المماليك فى السلك العسكرى بحكم انتفاء مبدأ التوريث فى المجال العسكرى (مناصب أو اقطاع) فلم يكن أمام هؤلاء الا العمل فى ميدان التجارة أو ادارة مشروعات حرفية وخدمية (حمامية أو حباكية .. الخ) واتجهت طائفة منهم للعلم ، وقد عرف هؤلاء بأنهم (أولاد الناس) فهم ليسوا أرقاء كآبائهم وانما لهم آباء معروفون وأمهات معروفات ، وكان أهل مصر يحترمونهم ربما أكثر من آبائهم على أساس أنه « لم يمسسهم الرق » وانما ولدوا أحرارا ، وربما لم يكن أهل مصر على وعى بأن (للرق) أو (للعبودية) أو « لجماعة المماليك » تراثاً يورثونه لأبنائهم جيلا بعد جيل كما يورثونهم ملامح وجوههم وبياض بشرتهم .. الخ ، وثمة سمة اجتماعية أخرى لاولاد الناس هؤلاء هى أنهم نشأوا مدللين فى (حجور النساء) على حد التعبير الشائع ؛ فلم يهتم آباؤهم بتعليمهم فنون القتال وانصرفوا عنهم لشراء مماليك جدد كانوا أداتهم فى الحرب والصراع . ويلاحظ أن نظرة هؤلاء المماليك من أولاد الناس للتركيب الاجتماعي لم تكن تختلف عن نظرة المؤرخين العسكر ، فهم يهتمون بالتاريخ العسكرى والسياسى ويسجلون وفيات المشاهير ، ولا يشيرون للتاريخ الاجتماعى الا لماما ، وعندما كنت أعد دراسة لرحلة عبد اللطيف البغدادى لمصر التى تعرض فيها لفترة جفاف ألمت بمصر فأكلت الأخضر واليابس حتى

اكل الناس الرمم والجيف بل ولحوم البشر أيضا ، رأيت أن أعارض ما ذكره عبد اللطيف البغدادى بما ذكرته المراجع المملوكية ، فهالنى أن المؤرخ من أولاد الناس كان يخصص اكثر من ثلاثة أرباع ما يكتبه عن العام الذى يؤرخ له لوفيات الأعيان من أمراء وقضاة ، ويخصص أقل من الربع بقليل للفتن والدسائس بين جماعات المماليك ثم لا يفرد للمجاعة وأحوال أهل البلاد الا سطراً أو سطرين يختمهما بانخفاض النيل وأن الناس من أهل البلاد أكل بعضهم بعضاً ، وانتهى الأمر عند ذلك . على اية حالة ، فمن مؤرخى هذه الفئة :

ـ ابن أيبك ، صاحب كتاب (كنز الدرر أو الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب) وعرفنا شيئاً عنه من خلال الاشارات الواردة فى كتاب (العصر المماليكى فى مصر والشام) (٧) .

ـ وابن دقماق ، صاحب كتاب (الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين) (٨) .

ـ وخليل بن شاهين الظاهرى فى كتاب (زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك) .

وابن تغرى بردى صاحب (النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة) وهو كتاب مشهور .

ـ وابن إياس صاحب كتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، واسمه الكامل أبو البركات محمد بن إياس الحنفى (ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣م) وقد تناول ابن إياس الوقائع التاريخية نفسها التى تناولها ابن زنبل الرمال وتعرض بالتفصيل للمعارك بين المماليك والعثمانيين قبل سقوط دولة المماليك ودخول مصر فى حوزة الدولة العثمانية ظاهراً ، وان ظلت فى حقيقة الأمر على نحو أو آخر فى أيدى المماليك . ومن الطبيعى أن يكون ابن

(٧) تأليف د. سعيد عبد الفتاح عاشور .

(٨) قرأنا ما أورده د. عاشور عنه فى كتابه الآنف ذكره .

اياس (ابن الناس) متعاطفاً مع المماليك حزينا لذهاب دولتهم غير مرحب بالعثمانيين غير سعيد بقيام دولتهم ، ونفضل هنا ايراد جانب من بدائع الزهور يتناول فيه الحرب بين طومان باى والقوات العثمانية ، وهو جانب مما تعرض له ابن زنبل أيضا ليقف القارىء على طريقة التناول عند الكاتبين ، وعدم اختلافهما فى الحقائق الأساسية وان كانت اللمسات الاجتماعية ، وطريقة التفكير الشائعة فى هذه الفترة أوضح ما تكون عند ابن زنبل لأسباب وضحناها فى غير موضع من هذه الدراسة . فيما يلى نص ابن إياس عن موقعة الريدانية (شمال القاهرة) وهى الوقعة التى أصبحت بعدها السلطنة المملوكية فى حكم المنتهية (٩٢٢ هـ / ١٥١٧ م) (٩) :

« ... فلما كان يوم الخميس التاسع عشر من ذى الحجة (١٠) وقعت كاينة عظيمة تذهل عند سماعها عقول أولى الألباب ، وتضل لهولها الآراء عن الصواب ، وما ذاك الا أن السلطان « طومانباى » لما توجه الى الريدانية ونصب بها الوطاق (١٠) ، فحصن الوطاق بالمكاحل (المدافع) ، وصف هناك الطوارق ، وصنع عليها تساتير من الخشب وحفر خندقا من الجبل الأحمر الى غيطان ، وقد تقدم القول على ذلك ثم ان السلطان جعل خلف المكاحل نحو الف جمل وعليها زكايب فيها عليق ، وعلى أقتابها صناجق كبار بيض وحمر يخفقون فى الهواء ، وجمع عدة أبقار بسبب جر العجل ، وظن أن القتال يطول بينه وبين ابن عثمان ، وان الحصار يقيم مدة طويلة ، فجاء الأمر بخلاف ذلك . فلما نزل عسكر ابن عثمان ببركة الحاج أقام يومين ، فلم يجسر السلطان طومانباى ان يتوجه اليهم ، ولو توجه اليهم وقاتلهم هناك قبل أن يدخلوا الريدانية لكان عين الصواب » .

« فلما كان يوم الخميس المقدم ذكره زحف عسكر ابن عثمان ووصل أوائله الى الجبل الأحمر ، فلما بلغ السلطان طومانباى ذلك زعق النفير

---

(٩) ما بين القوسين اضافة من الباحث .

(١٠) الوطاق هى الخيمة الكبيرة تعد للقادة ، وتعنى أيضا خيام المعسكر والجمع وطاقات . عن أحمد السعيد سليمان ، تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل .

فى الوطاق ونادى السلطان العسكر بالخروج الى قتال عسكر ابن عثمان فركبت الأمراء المقدمون ودقوا الطبول حربيا ، وركب العسكر قاطبة حتى سد الفضاء ، وأقبل عسكر ابن عثمان كالجراد المنتشر وهم السواد الأعظم ، فتلاقى الجيشان فى أوائل الريدانية ، فكان بين الفريقين وقعة مهولة يطول شرحها أعظم من الوقعة التى كانت فى مرج دابق ، فقتل من العثمانية ما لا يحصى عددهم ، وقتل سنان باشا لالا بن عثمان وكان أكبر وزرائه ، وقتل من أمرائه وعسكره جماعة كثيرة ، حتى صارت الجثث مرمية على الأرض من سبيل علان الى تربة الأمير يشبك الدوادار . وقتل فى هذه المعركة ابن ابن سوار قتل فى الريدانية ودفن على جده سوار فى تربته التى تجاه تربة يشبك الدوادار ، وكذلك قتل هناك سنان باشا وزير ابن عثمان الأكبر » .

«ثم ان العثمانية تحاربوا وجاءوا افواجاً افواجاً، ثم انقسموا فرقتين : فرقة جاءت من تحت الجبل الأحمر ، وفرقة جاءت للعسكر عند الوطاق بالريدانية فطرشوهم بالبندق الرصاص ، فقتل من عسكر مصر ما لا يحصى عددهم ، وقتل من الأمراء المقدمين جماعة ، منهم أزبك المكحل وآخرون منهم ، وجرح الأتابكى سودون الدوادارى جرحاً بالغاً وقيل انكسر فخذه فى غيط هناك ، وجرح الأمير علان الدوادار . فلم تكن الا ساعة يسيرة مقدار خمس درجات ، حتى انكسر عسكر مصر وولى مدبرا وتمت عليهم الكسرة ، فثبت بعد الكسرة السلطان طومان باى نحو عشرين درجة وهو يقاتل بنفسه فى نفر قليل من العبيد الرماة والمماليك السلحدارية ، فقتل من عسكر ابن عثمان ما لا يحصى عددهم ، فلما تكاثرت عليه العثمانية ورأى العسكر قد قل من حوله ، خاف على نفسه أن يقبضوا عليه فطوى الصنجق (١١) السلطانى وولى واختفى ، وقيل إنه توجه نحو طرا (١٢) ، وهذه ثالث كسرة وقعت لعسكر مصر ... » .

« ... ثم ان جماعة من العثمانية لما هرب السلطان ونهبوا الوطاق ، دخلوا الى القاهرة وقد ملكوها بالسيف عنوة ، فتوجهوا جماعة من العثمانيين الى المقشرة وأحرقوا بابها وأخرجوا من كان بها من المحابيس

---

(١١) العلم او الشارة .
(١٢) سجن معروف بهذا الاسم .

وكان بها جماعة من العثمانية سجنهم السلطان لما كان بالريدانية فأطلقوهم اجمعين ، واطلقوا من كان فى سجن الديلم والرحبة والقاعة اجمعين . ثم توجهوا الى بيت خاير بك المعمار أحد المقدمين فنهبوا ما فيه ، وكذلك بيت يونس الترجمان ، وكذلك بيوت جماعة من الأمراء وأعيان المباشرين ومساتير الناس وصارت الزعر (١٣) والغلمان ينهبون البيوت فى حجة العثمانية ، فانطلق فى أهل مصر حجرة نار . ثم دخلوا جماعة عدة من جمال السقايين وصارت العثمانية تنهب ما يلوح لهم من القماش وغير ذلك ، وصاروا يخطفون جماعة من الصبيان المرد (١٤) والعبيد السود ، واستمر النهب عمالا فى ذلك اليوم الى بعد المغرب ، ثم توجهوا الى شون القمح التى بمصر وبولاق فنهبوا ما فيها من الغلال . وهذه الحادثة التى وقعت لم تمر لأحد من الناس على بال وكان ذلك مما سبقت به الاقدار فى الأزل(١٥) ، وقال الشيخ بدر الدين الزيتونى فى هذه الواقعة :

نبكى على مصر وسكانها	قد خربت أركانها العامرة
واصبحت بالذل مقهورة	من بعد ما كانت هى القاهرة ...

« .... ومن هنا نرجع الى أخبار ابن عثمان ، فانه لما نزل الوطاق الذى نصبه فى بولاق عند الرصيف اقام به الى يوم الثلاثاء رابع المحرم ، فلما كانت ليلة الأربعاء خامس الشهر بعد صلاة العشاء لم يشعر ابن عثمان الا وقد هجم عليه الاشرف طومان باى بالوطاق واحتاط به ، فاضطربت أحوال ابن عثمان للغاية ، وظن أنه مأخوذ لا محالة ، وأشيع أنه هجم عليه بجمال وهى محملة بسا وأطلق فيها النار ، فاحترق بعض خيام من وطاق ابن عثمان ، ووقع فيهم السيف تحت الليل فقتل من عسكر ابن عثمان ما لا يحصى عددهم ، واجتمع هناك الجم الغفير من الزعر وعياق بولاق من النواتية وغيرها وصاروا يرجمون بالمقاليع وفيها الحجارة ، واستمروا على ذلك الى أن طلع النهار فلاقاهم الأمير علان الدوادار

---

(١٣) الزعر ، جمع ازعر ، والمقصود العوام من أهل المدن ممن ليسوا مماليك أو بدوا ، وهى تقابل الفلاحين من أهل القرى .

(١٤) المرد جمع أمرد أى لم تنبت لحيته ولم يظهر شاربه ، والغرض مفهوم .

(١٥) فكرة الجبر أو القدر والمكتوب وهى أوضح ما تكون عند ابن زنبل كتفسير للأحداث ، كما وضحنا فى غير هذا المكان فى هذه الدراسة .

الكبير من الناصرية عند الميدان الكبير ، فكان بين عسكر ابن عثمان وبين عسكر مصر هناك وقعة تشيب منها النواصى فملكوا منهم رأس الجزيرة الوسطى الى قنطرة باب البحر والى قنطرة تديدار ، واستمر الحرب ثائرا بين الفريقين من طلوع الفجر الى الذى كان بالريدانية . ثم ان المماليك الجراكسة صاروا يكبسون البيوت بعد المغرب . واشيع أن العربان لما وقعت هذه الحركة نهبوا وطاق العثمانية والحارات على العثمانية كما كانت العثمانية تكبس البيوت والحارات على المماليك الجراكسة » .

« ومثلما تعمل شاة الحمى في قرض يعمل فى جلدها »

«فصاروا الاتراك(١٦)كل من يظفرون به من العثمانية يقطعون رأسه ويحضرون بها بين يدى السلطان طومان باى وصار الطالب مطلوب . فلما كان يوم الخميس سادس المحرم اشتد القتال بين العثمانية وبين الأتراك ونادى السلطان فى الناصرية وقناطر السباع للزعر والعياق بأن كل من قبض على عثمانى يأخذ عريه ويقطع رأسه ويحضرها بين يدى السلطان ثم ان العثمانية طردوا الاتراك من بولاق وجزيرة الفيل وملكوها منهم ، ثم طردوا الاتراك من الجزيرة الوسطى الى الناصرية وملكوها منهم ثم إن الأتراك خرقوا عقد قنطرة قديدار، خوفاً من العثمانية أن يهجموا عليهم ثم ان العثمانية هجموا على زاوية الشيخ عماد الدين التى فى الناصرية وقبضوا منها على مماليك جراكسة فأحرقوا البيوت التى حول الزاوية ، وفيهم صغار وشيوخ . ثم ان العثمانية طردوا الاتراك عن الناصرية الى قناطر السباع » .

« ثم إن السلطان طومان باى نزل فى جامع شيخو الذى بالصليبة وصار يركب بنفسه ويكر من الصليبة الى قناطر السباع فى نفر قليل من العسكر ثم رسم بحفر خندق فى رأس الصليبة ، وآخر عند قناطر السباع ، وآخر عند رأس الدولة ، وآخر عند جامع ابن طولون ، وآخر عند حدرة البقر . ثم ان السلطان رسم بحرق خان الخليلى فمنعه بعض الأمراء من

(١٦) المقصود المماليك .

ذلك ، واشيع أن السلطان قسم العسكر أربع فرق : فرقة الى جهة قناطر السباع ، وفرقة الى جهة الدولة ، وفرقة الى جهة جامع ابن طولون ، وفرقة الى جهة باب زويلة . فلم يقاتل من المماليك السلطانية الا القليل ، وصاروا يختفون فى الاسطبلات خوفاً من القتال ، وقد دخل الرعب فى قلوبهم من العثمانية ما بقى يخرج منها » (١٧) .

« ثم ان طائفة من العثمانية توجهوا على مصر العتيقة ، وطلعوا من على القرافة الكبيرة ، وملكوا من باب القرافة الى مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، فدخلوا الى ضريحها وداسوا على قبرها وأخذوا قناديلها الفضية والشمع الذى كان عندها ، وسط الزاوية ، وقتلوا فى مقامها جماعة من المماليك الجراكسة وغير ذلك من الناس الذين كانوا احتموا بها . ثم ان السلطان قصد يهدم قناطر السباع وطلع جماعة فوق موآذن الجامع المؤيدى ، وصاروا يرمون على الناس بالبندق الرصاص ويمنعونهم من الدخول الى باب زويلة ، واستمروا على ذلك حتى طلعوا لهم الاتراك وقتلوهم فى المئذنة اشر قتلة » .

« ثم صارت القتلاء من الاتراك والعثمانية أجسادهم مرمية من بولاق الى قناطر السباع والى الرملة والى تحت القلعة ، وفى الحارات والازقة من الأتراك والعثمانية ، وهم أبدان بلا رءوس . وهذا والعربان واقفة عند قنطرة الحاجب وهم يشلحون الناس ويعرونهم من أثوابهم ، ويقتلون من يلوح لهم من العثمانية ، ولولا لطف الله تعالى لهجموا على القاهرة ونهبوا أسواقها ودورها . ثم ان السلطان طومان باى نادى فى القاهرة أن كل من مسك احدا من عسكر ابن عثمان وطلب منه الأمان فلا يقتله . ومن العجائب أن السلطان طومان باى لما ظهر خطب باسمه علي منابر القاهرة فى يوم الجمعة ، وكان فى الجمعة المضية خطب باسم « سليم شاه بن عثمان » فكان كما يقال :

لا تيأسن من فرج ولطف وقوة تظهر بعد ضعف

---

(١٧) يعطى ابن زنبل تفسيرا أعمق لهذا الموقف وهو الصراع بين المماليك المجالبيب والمماليك الأمراء ، وتفضيل السلطان الغورى قبل موته لفئة مماليكه المجاليب .

« فاستمر السلطان طومان باى يتقع مع عسكر ابن عثمان ، ويقتل منهم فى كل يوم ما لا يحصى عددهم ، من يوم الأربعاء الى يوم السبت طلوع الشمس ثامن المحرم ، فرأى عين الغلب وقد تكاسل العسكر عن القتال واختفوا فى بيوتهم ، وتفرقت الأمراء كل واحد فى ناحية ، واستمر السلطان وبعض مماليك سلطانية وبعض أمراء منهم شار بك الأعور وآخرون من الأمراء العشرات ، فلما ظهر له الغلب هرب وتوجه الى نحو بركة الحبش ، وكان قليل الحظ غير مسعود الحركات فى افعاله ، فكان كما يقال :

قليل الحظ ليس له دواء ولو كان المسيح له طبيب

« وهذه رابع كسرة وقعت لعسكر مصر مع ابن عثمان ، وقد غلت أيديهم عن القتال حتى نفذ القضاء والقدر ، وكان ذلك فى الكتاب مسطوراً (١٨) . ولما هرب السلطان طومان باى وقع فى القاهرة المصيبة العظمى التى لم يسمع بمثلها فيما تقدم من الزمان ، فلما انهزم صبيحة يوم السبت ثامن المحرم طفشت العثمانية فى الصليبة وأحرقوا جامع شيخو ، فاحترق سقف الايوان الكبير والقبة التى كانت به كون أن السلطان طومان باى كان به وقت الحرب واحرقوا البيوت التى حوله فى درب ابن عزيز ، ثم قبضوا على الشرفى يحيى بن العداس خطيب الجامع وأحضروه إلى بين يدي سليم شاه بن عثمان فهم يضرب عنقه ، فلما بلغ الخليفة ذلك ركب واتى إلى ابن عثمان وشفع فى ابن عداس وخلصه من القتل ، ولولا كان فى إجله فسحة لضربوا عنقه فى الحال ، وقاسى شدة عظيمة من الطرية » .

« ثم إن العثمانية طفشت فى العوام والغلمان من الزعر وغير ذلك ، ولعبوا فيهم بالسيف وراح الصالح بالطالح ؛ وربما عوقب من لا جنى ، فصارت جثثهم مرمية على الطرقات من باب زويلة الي الرملة ومن الرملة

(١٨) هذا هو التفسير اللاحق لمسيرة الاحداث مما يوضح عمق الفكرة (فكرة القضاء والقدر) فى هذا العصر خاصة ، مع أن هناك أسبابا اكثر وضوحا ، ككثافة النيران العثمانية ، والحزازات العميقة بين المماليك مما جعلهم ـ كما كانوا فى معركة مرج دابق قبلها ـ فى حالة خلاف مستمر ، وفكرة القدر المكتوب اكثر ما تكون وضوحا عند الرمال باعتبار مهنته ، كضارب للرمل .

الى الصليبة الى قناطر السباع الى الناصرية الى مصر العتيقة ، فكان مقدار من قتل فى هذه الوقعة فوق العشرة آلاف انسان فى مدة هذه الأيام الأربعة ، ولولا لطف الله تعالى لكان لعب السيف فى أهل مصر قاطبة » .

« ثم ان العثمانية صارت تكبس على المماليك الجراكسة فى البيوت والحارات فمن وجدوه منهم ضربوا عنقه . ثم صاروا العثمانية تهجم الجوامع وتأخذ منها المماليك الجراكسة ، فهجموا على جامع الأزهر وجامع الحاكم وجامع ابن طولون وغير ذلك من الجوامع والمدارس والمزارات ، ويقتلون من فيها من المماليك الجراكسة فقيل قبضوا على نحو ثمانمائة ما بين أمراء عشرات وخاصكية ومماليك سلطانية فضربوا أرقابهم أجمعين بين يدى ابن عثمان . وقيل ان المشاعلى الذى كان هناك كان افرنجيا ، وقيل كان يهوديا من الاروام ، فكان اذا ضرب عنق أحد من المماليك الجراكسة يعزل رؤوسهم وحدها ورؤوس الغلمان والعربان وحدها ثم ينصب الحبال على الصوارى ويعلق عليها تلك الرؤوس فى الوطاق الذى فى الجزيرة الوسطى . وكان المشاعلى اذا جز رأس المماليك يرمى جثثهم فى البحر . وأخبرنى من أثق به أنه شاهد جثة الأمير « قانصوه روح لو » أحد الأمراء المقدمين الذى كان نائب قطيا ، وهى مرمية قدام سبيل السلطان والكلاب تنهش فى مصارينه وشحم بطنه ، فانه كان رجلا جسيما . وقتل فى هذه الوقعة الأمير « يخشباى بن قانم » الذى قرر أمير مجلس كما تقدم ، وقتل آخرون من الأمراء الطبلخانات والعشرات والخاصكية وغير ذلك ، صارت الجثث مرمية فى الرملة الى سوق الخيل إلى الخيميين والكلاب تنهش أجسادهم ، وصارت الخيول فى الرملة وفى الأسواق ، والأزقة ، وقد قتلوا بالبندق الرصاص .. » .

« ... ومن هنا نراجع الى أخبار السلطان طومان باى ، فانه لما تلاقى مع عسكر ابن عثمان على المناوات ، وقيل بوردان ، فانكسر عسكر السلطان طومان باى كما تقدم القول على ذلك ، فلما أنكسر توجه الى نحو تروجة بالغربية فلاقاه « حسن بن مرعى » وابن أخيه « شكر » مشايخ البحيرة فى ضيعة تسمى البوطة فعزم « حسن بن مرعى » و «شكر» على السلطان طومان باى هناك ، وكان « حسن بن مرعى » بينه وبين

السلطان طومان باى صداقة قديمة ، فاركن له طومان باى ونزل عنده على سبيل الضيافة ، ثم ان السلطان طومان باى احضر الى حسن وابن أخيه شكر مصحفا شريفا وحلفهما عليه انهما لا يخونانه ولا يغدرانه ولا يدلسان عليه بشيء من أسباب الملك ، فحلفا له على المصحف سبعة أيمان بمعنى ذلك فطاب حينئذ قلب السلطان طومان باى عند ذلك ونزل عنده ، فلما استقر عنده احتاطت به العربان من كل جانب ، وأرسل أعلم السلطان سليم شاه بذلك ، فأرسل اليه جماعة من عسكره قبضوا عليه ووضعوه فى الحديد وتوجهوا به الى ابن عثمان . فلما رأى من كان مع السلطان طومان باى من الأمراء والعسكر أنهم قبضوا عليه ، تفرقوا من حولـه وتشتتوا فى البلاد وتمت الحيلة على السلطان طومان باى ، وخانه حسن ابن مرعى بعد أن حلف له على المصحف الشريف وأركن اليه ، وكان حسن ابن مرعى من أعز أصحاب طومان باى ، وله عليه غاية الفضل والمساعدات من أيام السلطان الغورى ، وأقام عنه بما عليه من المال ، فلم يذكر له شيئا من ذلك ولا أثمر فيه الخير ، فكان كما يقال فى المعنى :

لا تركنن الى الخـريف فماؤه مستوخم وهـواؤه خطـاف
يمشى مع الأجسام مشى صديقها ومن الصديق على الصديق يخاف

« فلما أحضروا السلطان طومان باى بين يدى ابن عثمان كان عليه مثل لبس العرب الهوارة زمط وعليه شاش وملوطة بأكمام كبار ، فلما وقعت عين ابن عثمان عليه قام له وعاتبه ببعض كلمات ، فلما خرج من قدامه توجهوا به الى خيمة فأقام بها وأحاطوا به الانكشارية بالسيوف لأجل الحفاظ به ، فأقم هناك أياما وهو بوطاق ابن عثمان ببر إنبابة ، فلما وردت الأخبار الى القاهرة بمسكه فصار طائفة من الناس تكذب بمسكه وطائفة تصدق بذلك . فأقام السلطان فى الوطاق عند ابن عثمان وهو فى الحديد الى يوم الاثنين ثانى عشرين ربيع الأول من تلك السنة وكان ذلك اليوم يوم الخماسين ، وهو يوم فطر النصارى وعيدهم الأكبر ، فعدوا بالسلطان طومان باى من بر انبابة الى بولاق ، فطلعوا به من هناك وهو راكب على اكديش (١٩) وهو فى الحديد ،

---

(١٩) فرس هجين ، والجمع اكاديش ، واكادش ، فارسية دخلت التركية ، محمد السعيد سليمان ، تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل .

وعليه لبس العرب الهوارة كما تقدم . وكان السلطان طومان باى لما قبضوا عليه اقام فى الوطاق عند ابن عثمان نحو سبعة عشر يوما ، وكان اشيع ان ابن عثمان يرسل طومان باى الى مكة ولا يقتله ، ثم بدا له من بعد ذلك ما سنذكره . وفى مدة اقامة ابن عثمان فى الوطاق فكانت العثمانية يطوفون فى المدينة نهارهم كله ، ومن بعد العصر يرجعون الى الوطاق يباتون به » .

« فلما بلغ ابن عثمان ان الناس لا تصدق بمسك طومان باى فدفع من ذلك وعدى به ، فلما طلع من بولاق شق من المقس وقدامه نحو اربعمائة عثمانى ورماة بالنفط ، فطلع من على سوق مرجوش وشق من القاهرة ، فجعل يسلم على الناس بطول الطريق حتى وصل الى باب زويلة وهو لا يدرى ما يصنع به فلما أتى إلى باب زويلة أنزلوه من على الفرس وأرخوا له الحبال ووقفت حوله العثمانية بالسيوف ، فلما تحقق أنه يشنق وقف على أقدامه على باب زويلة ، وقال للناس الذين حوله : اقرءوا لى سورة الفاتحة ثلاث مرات . فبسط يده وقرأ سورة الفاتحة ثلاث مرات وقرأت الناس معه ، ثم قال للمشاعلى : اعمل شغلك ، فلما وضعوا الخية فى رقبته ورفعوا الحبل فانقطع به فسقط على عتبة باب زويلة ، وقيل انقطع به الحبل مرتين وهو يقع على الأرض ، ثم شنقوه وهو مكشوف الراس وعلى جسده شاياه جوخ أحمر ، وفوقها ملوطة بيضاء بأكمام كبار ، وفى رجله لباس جوخ أزرق » .

« فلما شنق وطلعت روحه صرخت الناس صرخة عظيمة وكثر عليه الحزن والأسف ، فانه كان شابا حسن الشكل سنه نحو اربع وأربعين سنة وكان شجاعا بطلا تصدى لقتال ابن عثمان وثبت وقت الحرب وحده بنفسه ، وفتك منها ما لا يحصى ، وكسرهم ثلاث مرات فى نفر قليل من عسكره ، ووقع منه فى الحرب أمور ما لا تقع من الأبطال . وكان لما سافر عمه السلطان الغورى جعله نائب الغيبة عنه الى أن يحضر من حلب فساس الناس فى غيبة السلطان أحسن سياسة ، وكانت فى غاية الأمن من المناسر والحريق وغير ذلك . فلما مات السلطان الغورى عمه وتسلطن عوضه ، أطل من المظالم اشياء كثيرة مما يعمل فى أيام

الغورى ، ولم يشوش على أحد من الناس فى مدة سلطنته ، ولا يقبل فى أحد من الناس مرافعة ولا صادر أحدا من المباشرين فى مدة سلطنته ، ولما وصل ابن عثمان الى الشام وقصد أن يخرج اليه فشكى ان الخزائن خالية من الأموال ، فقالوا له الأمراء وجماعة من المباشرين : افعل كما فعل السلطان الغورى وخذ أجرة أملاك القاهرة سبعة اشهر وخذ على الرزق والاقطاعات خراج سنة . فلم يسمع لهم شيئاً وأبى من ذلك ، وقال : ما اجعل هذا أن يكون فى صحيفتى » .

« وكان ملكا حليما قليل الأذى كثير الخير ، وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ثلاثة اشهر وأربعة عشر يوما ، فانه تسلطن رابع عشر شهر رمضان ، وانكسر وهرب تاسع عشرين ذى الحجة . وكان فى هذه المدة فى غاية النكد والتعب وقاسى شدائد ومحنا وحروبا وشرورا وهجاجا فى البلدان ، وآخر الأمر شنق على باب زويلة ، وأقام ثلاثة أيام وهو معلق على الباب حتى جافت رائحته ، وفى اليوم الثالث أنزلوه وأحضروا له تابوتا ووضعوه فيه ، وتوجهوا به الى مدرسة السلطان الغورى عمه ، فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه هناك ، ودفنوه فى الحوش الذى خلف المدرسة ، ومضت أخباره كأنه لم يكن ، وقد قلت من أبيات :

لهفى على سلطان مصر كيف قد ... ولى وزال كأنه لن يذكرا

شنقوه ظلما فوق باب زويلة ... ولقد أذاقوه الوبال الأكبرا

يا رب فاعف عن عظائم جرمه ... واجعل بجنات النعيم له قرا

« وكان شنق السلطان طومان باى من سعد سليم شاه بن عثمان ولم ينتج أره من بعد ذلك ولم يسمع بمثل هذه الواقعة فيما تقدم من الزمان أن سلطان مصر شنق على باب زويلة قط ، ولا علقت رأس سلطان على باب زويلة قط ولم يعهد بمثل هذه الواقعة فى الزمن القديم ، ومن عهد سوار شاه لما كلبوه على باب زويلة لم يعلق عليه من له شهرة طائلة غير السلطان طومان باى » .

★★★

ضربنا أمثلة للمؤرخين العسكر ، والعسكر والاداريين ، وأبناء العسكر (أولاد الناس) ، لكن هذا لا يعنى أنه ليست هناك فئات أخرى من المؤرخين لهذا العصر فلدينا الذهبى (شمس الدين احمد) المتوفى ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م المنحدر من أسرة تركمانية مقرها ديار بكر (شرق تركيا الحالية) وكان والده يعمل فى صياغة الذهب ومن هنا أتى اسمه (الذهبى) وقد انشغل بالعلم وتولى وظائف ذات طابع دينى فى دمشق، وعرف عنه اتقانه للحديث النبوى ، ومن أهم كتبه (تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والأعلام) انتهى فيه الى سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠١ م) وهو يركز — كالمؤرخين الآنف ذكرهم — على الوقائع العسكرية والسياسية ، لكنه يفوقهم باهتمامه بالنشاط الدينى .

وهناك أيضاً المؤرخ والعالم الدينى الشهير ابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٩ م) وقد ولد فى مصر وعاش فيها ومات بها ، أما العسقلانى فنسبة الى أصل أسرته ، ولا يبدو أن ابن حجر مملوكى الأصل أو حتى تركى ، فهو فى الغالب من أصول عربية ، وقد حقق ابن حجر شهرة كبيرة فى علم الحديث ، وكان قاضى قضاة الديار المصرية مدة تزيد على العشرين عاما وفقا لما ذكره شمس الدين السخاوى تلميذه ، وقام بتدريس الحديث والفقه ، وتولى الخطابة فى جامع عمرو ابن العاص والجامع الأزهر ، وأهم مؤلفاته التاريخية إنباء الغمر بأنباء العمر (٢٠) بدأه بسنة ميلاده ٧٧٩ هـ (١٣٧٣ م) وانتهى به سنة ٨٥٠ هـ (١٤٤٦ م) (٢١) ، وترجع أهمية هذا الكتاب الى أنه أقرب لروح أهل مصر وأكثر توازنا ، وقد اعتمد على مصادر شفوية بالاضافة للمصادر الأخرى ، وهو يهتم بالجوانب الدينية والشرعية بحكم خلفيته الدينية المتينة ، وهو يستخدم الشهور القبطية باعتبار استخدامها أمراً شائعا خاصة فى الأرياف وان كان تاريخه الأساسى بطبيعة الحال بالشهور والسنوات الهجرية ، ونورد فيما يلى قبساً من كتاباته تبين اهتمامه

---

(٢٠) حققه ونشره الأستاذ الدكتور حسن حبشى ، القاهرة ، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، ٣ مج .

(٢١) قاسم عبده قاسم : الرؤية الحضارية للتاريخ عند العرب والمسلمين . صص ١٨٤ — ١٨٧ .

بالجوانب الاجتماعية والاقتصادية : « وفى ثانى عشر صفر (سنة ٨٣١ هـ) صرف (السلطان) القاضى الحنبلى محب الدين أحمد بن نصر الله (البغدادى الحنبلى) وكان محب الدين أحس بأنه يعزل فمكر بأن سأل ناظر الجيش أن يسأل له السلطان فى الاعفاء ، فبلغ ذلك السلطان فأعجب به ، وقال : « لولا أنه رجل جيد ما طلب الإعفاء » وأمر أن يستمر ، فظن حصول مقصوده بذلك من الاستمرار ، فصبر على ذلك مدة ، وسخط منه كاتب السر لأمر اقتضاه فاحتال عليه بأن قال للسلطان : « هذا الحنبلى شيخ كبير وقد تكرر سؤاله الإعفاء وأن يقرر له رزق على جهة حل (أى من مصدر حلال) يأكل منها ويعبد الله ويدعو للسلطان » فأمر السلطان باجابته لذلك فخلعه ولم يشعر محب الدين بذلك ، فضج ودار على الأمراء فلم ينجح ، وقرر له وقف يلبغا التركمانى .. وكان يظن انه بما تحيل به يستمر فانعكست حيلته ... » هذا مثال من (المقالب) أو (الخنب) التى شاعت فى العصر المملوكى .

« .. وفيه (عام ٨٣١ هـ) حضر جماعة من أهل دمياط وشكوا من ابن الملاح الكاتب النصرانى وانه متجاهر باللواط ويستخدم من يكون جميل الصورة من أهل البلد ويبالغ فى اظهار الفاحشة حتى انه ربما قام بحضرة الناس فخلا به الشاب منهم بحيث لا يواريه الا جدار المخدع أو شبهه ، ثم يخرجان معاً على الهيئة الدالة على المراد . وكثر ذلك منه وأنف جماعة من الناس ومنعوا أولادهم من الخدمة عنده وهو يفسدهم بكثرة العطية ومعاقرة الخمر والغناء مع ما هو فيه من الجاه العريض حتى كان والى البلد يقف فى خدمته ، ومهما قال لا يرد ومهما فعل لا يتعقب ومن نازعه فى شىء أفسد حاله عند ناظر الخاص المتكلم على البلد ، فرفعوا فى أمره قصة تتضمن هذا وغيره من المفاسد ، فعقد له مجلس بحضرة السلطان ، فلما ادعى عليه انكر ، فقامت البينة بشىء من ذلك ، فبادر وأسلم وحكم باسلامه ولقب محب الدين .. وأذعن والتزم وتوجه الى دمياط وحسنت سيرته بالنسبة الى ما كان ، والله أعلم بغيبه .. » .

نحن هنا ازاء رجل كان أبوه ملاحا ، انضم — ربما كأبيه — لجيوش المسلمين وحارب معهم حتى أصبح له أهمية المماليك ، فوصل من خلال خدماته العسكرية الى منصب غير قليل شأنه ، وقد كثرت هذه الفئة كثرة كبيرة فى العصر العثمانى ، خاصة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، اذ انضم آلاف من أهل أوروبا والبحر المتوسط الى البحرية العثمانية طمعاً فى الغنائم ، وشنوا مع المسلمين هجمات على السواحل الأوربية من اليونان حتى إسبانيا ، وراق لبعضهم أن يعلن اسلامه وهو لا يعلم عن الاسلام شيئا ، وكان مسلكهم الخلقى مشيناً ، وعرفوا فى المصادر العثمانية باسم العلوج (جمع علج) ، وكان لهم صفات البحارة والقراصنة ، وقد وصل بعض هؤلاء لمناصب مهمة بعد ذلك ، ومن المتوقع أن يحاول هؤلاء مواءمة الإسلام مع حياتهم بكل ما فيها ، وليس العكس أى تعديل حياتهم لتتمشى مع روح الاسلام وقد ظل تراث هؤلاء لفترة لكنه سرعان ما اختفى والا بماذا نفسر اعتراض عالم دين على حملة الدولة على المخدرات على أساس أنه لم يرد بشأنها نص ، وأن المطلوب هو منع الخمور فقط ، لا شك أن هذا من بقايا تفكير هذه الفئة ، وما معنى أن يتعب واحد من الباحثين نفسه ويسوق الشاهد تلو الشاهد ليثبت أن الخمر حلال ، بينما أثبت العلم الحديث تأثيرها الضار على العقل والأعصاب ... الخ .

ثم نأتى أخيراً على ذكر المؤرخ الشهير تقى الدين المقريزى (ت ٨٥٤ هـ / ١٤٤٢ م) الذى ولى ديوان الانشاء ، وتولى الحسبة ، وجاور بمكة المكرمة وقام برحلات عديدة « .. والحق أن المقريزى لم يترك جانبا من جوانب الحياة المصرية دون أن يتعرض له فى كتاباته على نحو او آخر ، وانعكست ثقافة المقريزى وخبرته العملية الواسعة فى تلك الطائفة الكبيرة من المؤلفات التى تناولت تاريخ البشرية والتاريخ الاسلامى العام ، وتاريخ مصر منذ الفتح الاسلامى حتى عصره (دولة السلاطين الجراكسة) ، كما تناولت موضوعات جزئية مثل النقود والمجاعات والقبائل العربية والحج ... وأهم مؤلفات المقريزى الخطط المقريزية المعروفة باسم المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ..

وهو كتاب موسوعى شامل يضم اشارات قيمة للحياة الاجتماعية والثقافية والدينية فى مصر . وكتابه « إغاثة الأمة بكشف الغمة » يتناول المجاعات فى مصر حتى سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م ، ومن كتبه أيضاً الحولية المعروفة السلوك لمعرفة دول الملوك .

★★★

من هذا العرض السابق لأهم المصادر المشهورة عن العصر المملوكى ، يتضح لنا أن هناك عدة مراجع قليلة ، تتسم بالتوغل فى عمق المجتمع المصرى وأوضاعه السياسية لكونها صادرة عن عناصر لا تنتمى للطبقة العسكرية الحاكمة ، وهذه المصادر هى :

— قصيدة أبى شادوف وشرحها اذا وضعنا فى اعتبارنا أنها من الأدب الشعبى الذى تنتجه ضمائر الجموع وبالتالى فهى صالحة للعصرين المملوكى والعثمانى المملوكى على سواء ، وهى — أى القصيدة — هى المصدر الفلاحى الوحيد بين أيدينا .

— كتابات ابن حجر العسقلانى ، وهى نموذج لكتابات عربى ، غير بدوى (أى عربى متحضر مستقر) عالم بأمور الدين وكثير من أمور الدنيا .

— كتابات المقريزى القاهرى ابن حارة برجوان .

— كتاب ابن زنبل الذى نحن بصدده ، فهو ليس كتابا فى التاريخ العسكرى فحسب ، وانما هو حافل بإشارات متكاملة للعناصر المكونة للمجتمع المصرى ، وحافل بالاشارات النفسية والاجتماعية التى تعبر بوضوح عن نسيج هذا المجتمع ، بالاضافة لاشاراته المفيدة عن توجهات الدولة العثمانية مما تعرضنا له فى غير موضع من هذه المقدمة .

نحن إذن أمام مجموعة قليلة من المصادر — ابن زنبل من بينها — ليست من تأليف الطبقة العسكرية الحاكمة .

★★★

ونظراً لأهمية المماليك فى التاريخ المصرى ، ولتأثيرهم الممتد — ربما على نحو أو آخر — حتى تاريخنا الحديث والمعاصر ، عن لى فى فترة من الفترات أن أعد ثبتاً كاملا بالمراجع عنهم ، ما نشر منها وما لم ينشر فكانت هذه القائمة غير الكاملة ، وقد حذفت من هذه القائمة المصادر التى تناولتها بالدراسة آنفـا .

— ابن أيبك الدوادار ، أبو بكر بن عبد الله (ت ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥م) درر التيجان وغرر تواريخ الزمان . مخطوطة بدار الكتب المصرية ، رقم ٢٦٠٥ تاريخ .

— .... ، فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر مخطوطة بدار الكتب المصرية ، رقم ٢٣٩٩ تاريخ .

— الجزرى ، شمس الدين أبو عبد الله ، تاريخ الجزرى (بفتح الجيم والزاى) مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية ، رقم ٩٩٥ — تاريخ .

— ابن الجيعان ، شرف الدين أبو البقاء (ت ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م) القول المستطرف فى سفر مولانا الملك الأشرف قايتباى ، مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٢١٠ — تاريخ .

— ابن حبيب ، الحسن بن عمر (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) ، درة الأسلاك فى دولة الأتراك — مخطوطة مصورة بمكتبة جامعة الملك سعود ، رقم ٧٦ ص والمقصود بدولة الأتراك دولة المماليك البحرية لغلبة العنصر التركى على مماليكها .

— السيوطى ، جلال الدين (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) تاريخ الملك الأشرف قايتباى المحمودى الظاهرى ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ١٥٥٩ تاريخ .

— ابن خلكان ، أبو العباس (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق احسـان عباس ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٨ — ١٩٧٢ .

— السخاوى ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ م) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، بيروت ، بدون تاريخ نشر .

— السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، حققه محمد أبو الفضل ابراهيم . القاهرة ، عيسى البابى الحلبى ، ١٩٦٧ — ١٩٦٨ .

— وله أيضا ذيل طبقات الحفاظ للذهبى ، دمشق ، مطبعة التوفيق ، ١٣٤٧ هـ .

— ابن شاكر الكتبى ، فخر الدين محمد بن أحمد (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م) فوات الوفيات ، القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٥١ .

— ابن شاهين ، غرس الدين الظاهرى (ت ٨٧٣ هـ / ١٤٦٧ م) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تحقيق بال رافيس . باريس ، ١٨٩١ .

— الشجاعى ، شمس الدين (ت ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م) تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون وأولاده ، تحقيق بربارة شيفر ، فيسبادن ، شتاينر ، ١٩٧٨ .

— الصفدى ، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م) الوافى بالوفيات .

— ابن عبد الظاهر ، محيى الدين (ت ٦٩٢ هـ / ١٢٩٢ م) تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور . تحقيق مراد كامل . القاهرة ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٦١ .

— وله أيضا الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، تحقيق عبد العزيز الخويطر . الرياض ، مطابع القوات المسلحة السعودية ، ١٩٧٦ .

ــ العينى ، بدر الدين محمود (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) السيف المهند فى تاريخ الملك المؤيد ، تحقيق فهيم محمد شلتوت . القاهرة ، دار الكتاب العربى ، ١٩٦٧ .

ــ الغزى ، نجم الدين محمد بن محمد (ت ١٠٦١ هـ ــ ١٦٥١ م) الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة .

★★★

فإذا ما انتقلنا الى الفترة العثمانية وهى الفترة التى يسميها المؤرخون الواعون الفترة المملوكية العثمانية ، وجدنا جملة من المصادر الأصيلة لم تحظ للأسف بالاهتمام الكافى ، ولم تعد ــ حتى المطبــوع منها ــ متوفرة بين ايدى الباحثين ، نذكر منها :

ــ الديار بكرى ، حسين بن محمد (ت ٩٦٦ هـ / ١٥٥٩ م) تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس ، القاهرة ، المطبعة الوهبية ، ١٢٨٣ هـ.

ــ أحمد شلبى ، ابن عبد الغنى الحنفى المصرى ، أوضح الاشارات فيمن تولى مصر من الوزراء والباشات المعروف بتاريخ العينى . حققه ونشره د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

ــ البكرى الصديقى ، محمد بن أبى سرور ، كشف الكربة فى رفع الطلبة ، حققه د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، نشر فى المجلة التاريخية المصرية العدد ٢٣ ، ١٩٧٦ .

ــ وله أيضا النزهــة الجلية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة ، مخطوط ــ بمكتبة جامعة برنستون بالولايات المتحدة برقم ٤٤٤٥ مجموعة جرت Garrett .

ــ وله أيضا التحفة البهية فى تملك آل عثمان الديار المصرية ، مخطوط بمكتبة فينــا .

— الدمرداشى ، أحمد ، كتاب الدرة المصانة فى أخبار الكنانة — مخطوط بالمكتبة البريطانية .

— الورثلانى ، الحسين بن محمد ، نزهة الأنظار فى علم التاريخ والأخبار ، بيروت ، ١٩٧٤ (رحلة) .

— الحموى ، محب الدين ، الدرة المضيئة فى الرحلة المصرية — مخطوط بجامعة ييل Yale (رحلة) .

— الفاسى ، أحمد بن محمد الفهرى ، الرحلة (مخطوط بدار الكتب المصرية — برقم ١٤٠٣ تاريخ) (*) .

★★★

هذا بطبيعة الحال الى جانب الوثائق التى تضمها الأرشيفات الوطنية وغيرها من الهيئات ، وقد اشار بعض الباحثين المصريين الى هذه الوثائق العربية وقدموا دراسات شاملة عن تكوينها وتصنيفها ومواضعها (٢٢) .

أما الوثائق العثمانية فتقف اللغة حائلا بين المؤرخين العرب وبين الاستفادة منها ، فقليلون هم الذين باتوا يعرفون هذه اللغة خاصة بعد كتابة التركية الحديثة بالحروف اللاتينية ؛ مما أوجد فجوة بين التركية الحديثة والتركية العثمانية ، لكن المطالع فى كتب المؤرخين الأوربيين

(★) استعنا عند سرد هذه المصادر المتعلقة بالحقبة المملوكية العثمانية بما أورده ميكل ونتر فى كتابه Egyptian Society Under ottoman rule وقد اكتفينا بالمصادر العربية ، فقد أورد ونتر كثيرا من المصادر المكتوبة بالتركية العثمانية ، بالاضافة للمراجع الحديثة بلغات أوربية .

(٢٢) د. عبد اللطيف ابراهيم على اهتم كثيرا بوثائق الوقف المملوكية ونشر بعضا منها فى الدوريات العلمية وفى كتابه دراسات تاريخية واثرية فى وثائق عن عصر المماليك . كما قدم د. عبد الرحيم عبد الرحمن دراسات مفصلة عن وثائق تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى (١٥١٧ — ١٧٩٨) فى دار الوثائق المصرية فى كتابه فصول من تاريخ مصر فى العصر العثمانى . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ولا تخلو كتبه الأخرى من اشارات لها . ود. صلاح هريدى فى كتابه دور الصعيد فى مصر العثمانية ، دار المعارف .

(ميكل ونتر مثلا) الذين أتيح لهم الاطلاع على هذه الوثائق فترجموها أو ترجمت لهم ، يكتشف أن فى هذه الوثائق فيضاً من المعلومات عن مصر ، فلاحيها وأعرابها ومماليكها ، وقد قدم لنا ميكل ونتر (٢٣) على سبيل المثال ، معارف جديدة عن جماعة الفلاح وهم مماليك امتلكهم فلاح مصرى قح ، كما أضاف لمعلوماتنا غير قليل عن دور العربان فى حياة مصر السياسية والاجتماعية .

★★★

وقد قدم الأستاذ المحقق بفكرة عن حياة ابن زنبل لم أجد مبررا لتكرارها هنا : ولا شك أنى مدين بكتابة هذه الدراسة للفترة التى قضيتها أدرس مقرر « علم التاريخ عند المسلمين » لما يزيد عن عامين فى احدى الجامعات العربية ، مما أتاح لى فرصة الاطلاع على كثير من المراجع فى هذا الموضوع .

---

(٢٣) فى كتابه : Egyptian Society under ottiman rule.

٢ ـ الأسلحة والنظم العسكرية
فى عصر ابن زنبل

ظهرت عدة دراسات ذات طابع تفصيلى عن المماليك (١) من حيث : نشأة نظامهم ، وتكوينهم العرقى ، والسلطنة التى أقاموها بعد سقوط الدولة الأيوبية ، وحروبهم التى حققوا فيها انتصارات كبرى ، يوم كانت طبيعة الحرب تعتمد على البطولة الفردية ، وعلى الأسلحة التقليدية ، وكذلك حروبهم التى منوا فيها بهزائم ساحقة خاصة بعد استخدام الأسلحة النارية ، وتغير طبيعة التشكيلات العسكرية ، كهزيمتهم الساحقة فى معركة مرج دابق ، أمام العثمانيين سنة ١٥١٦ ، التى كانت نصراً للعثمانيين دون أن يخوضوا معركة حقيقية ، وكهزيمتهم أيضا فى معركة الريدانية شمال القاهرة أمام العثمانيين سنة ١٥١٧ ، وفشلهم فى حرب الاستنزاف التى خاضوها ضد الجيش العثمانى فى مصر ، وكهزيمتهم الساحقة أمام جيش نابليون بونابرت سنة ١٧٩٨ ، وكانت الهزائم التى حاقت بمصر بعد ذلك نتيجة التمسك بطبيعة الاجتماع المملوكى ، كما كان الانتصار الذى حققته مصر فى تاريخها الحديث نتيجة التخطيط المحكم ، وتحديث السلاح ، وتغيير روح الاجتماع المملوكى الى حد ما كما سيتضح من هذه الدراسة .

ولنبدأ بتكوين الجيش المملوكى وطبيعة تشكيلاته بشىء من التفصيل بالرجوع لابن زنبل وغيره من المصادر المتاحة .

يشير لنا ابن زنبل الى الكراهية الشديدة بين مجموعات (القرانيص) ومجموعات (الأجلاب) ، حتى إن السلطان الغورى آثر (الاجلاب) ولم يجعلهم يخوضون حيث الخطر ، وفى الوقت نفسه امتنع (القرانيص)

---

(١) كالدراسات التى قام بها المؤرخون : السيد الباز العرينى فى كتابه (المماليك) وسعيد عبد الفتاح عاشور فى كتابه (العصر المماليكى) وعلى ابراهيم حسن فى كتابه (دراسات فى تاريخ المماليك البحرية) وغيرهم .

عن خوض المعركة أسوة بالأجلاب ، ونعنى بالمعركة هنا معركة مرج دابق . فمن هم القرانيص ؟ ومن هم الأجلاب ؟ وما سبب الأحقاد الدفينة بينهما ؟ . القرانيص هم مماليك السلاطين القدامى (فى حالتنا هذه مماليك السلاطين السابقين على الغورى) ، وهذا يعنى أن القرانيص لم يكونوا فئة واحدة ذات تراث انتمائى واحد ، وبالتالى لم يكونوا فئة عسكرية واحدة ، أو كتيبة مترابطة ، اذ لم يكن يجمعهم الا كراهيتهم للسلطان (الحالى) واجترار أيام العز التى عاشوها زمن السلطان أو السلاطين الذين عاشوا قبل ذلك فى كنفهم . وكانوا بطبيعة الحال بحكم (الأقدمية) أو الأسبقية الزمنية يعتبرون أنفسهم (أهل الخبرة) ومن سواهم مجرد صبيان ، وكان كل واحد من القرانيص يعتبر نفسه أميراً أو قائداً . ومن الطبيعى أن ينظر السلطان (الغورى فى حالتنا هذه) نظرة شك لانتماء كل واحد منهم الى أستاذه الذى اشتراه وأعتقه، كما كان من الطبيعى أن ينظر لهم — بشكل عام — كمصدر خطر ، ومن باب احداث التوازن الاستراتيجى بين القوات ، فقد كان يفرق فى المعاملة بينهم خاصة من الناحية المالية ، وأن يحاول زرع الفتن بينهم ، الا انهم ، على اية حال ، كانوا على وعى كامل بأنهم قرانيص وأنهم غير الأجلاب .

والأجلاب او المجلوبون هم المماليك الذين قام السلطان الحالى (الغورى فى سياقنا هذا) بشرائهم أو الحصول عليهم بطريقة أو أخرى . وعند وصولهم يضعهم فى معسكرات خاصة بهم (طباقات) فيعيشون معاً ، ويتم تعليمهم وتدريبهم ، ثم يعتقون ويفرض لكل منهم راتب (جامكية) ، وتقدم لهم الاقطاعات والسلاح ، بالاضافة الى إكرامهم بالخيل والقماش وما الى ذلك .

وفى هذه الحال يمكننا أن نتبين مدى الحقد الكامن فى صدور القرانيص ضدهم ، خاصة اذا تجاوز السلطان الحد بدعوى التوازن الاستراتيجى بين القوات ، فهذه الحجة لابد أن يكون لها حدود ، ولنطالع اثر هذا التجاوز فى معركة مرج دابق فيما كتبه ابن زنبل :

« .. ولم يقاتل فى هذا اليوم — يقصد مرج دابق — أكثر من الفى فارس .. وأما جلبان الغورى الذين هم مشترواته فلم يتحركوا من مواضعهم ولم يهزوا رمحا ولا جبذوا سيفاً ... وعلى ما قيل أن السلطان الغورى أمر بأن أول مرة يخرج القرانصة — أو القرانيص — لكونهم اعرف بالحرب من الجلبان ، وكان قصده أن ينقطع القرانصة ليكتفى شرهم ويصفو له الوقت فإنه كان يحسب حسابهم ... فأمر بتقديمهم فى الحرب وأخر جلبانه .. فتغيرت نيات القرانصة وقالوا : نحن نقاتل بأنفسنا مع النار وانت واقف تنظر الينا كالعين الشامتة ما تأمر أحد من مماليكك يخرج للميدان فكان العسكر مختلفاً فى بعضه مفسود النية ... » .

ونأتى بعد ذلك للخاصكية ، وهم تربية السلطان شخصيا اى أنهم أكثر قربا وحظوة من الأجلاب ، فالأجلاب يشتريهم السلطان ويعهد لمقدمى المماليك بتدريبهم وتعليمهم أو الاشراف على تعليمهم ، أما الخاصكية فالسلطان (الغورى فى حالتنا هذه) هو نفسه الذى يشرف على تدريبهم وتعليمهم ، ومعنى هذا أنهم بمثابة حاشية له بالاضافة لمهامهم العسكرية، فهم ملازمون للسلطان دوما ، وقد زاد عددهم فى أواخر العهد المملوكى ، وامتازوا بحسن المظهر وأناقة المركوب والملبس .. ولم يشر ابن زنبل لهذه الفئة خاصة وهم قليلو العدد على أية حال اذا قيسوا بالجلبان البالغ عددهم ١٣ الف مقاتل ، جرى تحييدهم لخلافات داخلية كما سبق القول فلم يؤدوا دورهم فى معركة مرج دابق . أما الخاصكية ، فيمكن استنتاج موقفهم من عبارات عامة أوردها ابن زنبل مثل : « وباتوا — أى الجيش المملوكى كله على غير حرب ولكن لم يهنأ لأحد منهم نوم من مكر بعضهم لبعض » وهو يصف فى هذه العبارة جيش المماليك فى اليوم السابق على معركة مرج دابق . وان كان ابن زنبل قد أشار لبعض البطولات التى قام بها بعض الخاصكية كالأمير بخشباى (أمير مجلس)، لكن بشكل عام لم يقم الخاصكية المدللون بدورهم فى الحرب ، فقد تقدم الامير سودون العجمى الى الغورى والمعركة دائرة وقال له : « يامولانا السلطان اين جلبانك ؟ اين خاصكيتك (خاصيتك) هكذا عملت بنا ولازلت قائما فى حظ نفسك حتى اهلكت نفسك واهلكتنا معك » .

نأتى الى تشكيل آخر من تشكيلات الجيش المملوكى وهم أجناد أو عساكر الأمراء ، فقد كانت مكانة كل أمير مرهونة بعدد مماليكه وكان هذا بدوره مرهونا بحالة الأمير المالية ، فعندما يحدثنا ابن زنبل عن الأمراء الذين خرجوا مع الغورى ، فان هذا يعنى حديثه عن تشكيلات عسكرية صغيرة بعدد هؤلاء الأمراء ، ولما كان ابن زنبل يقرر لنا أن كل أمير من هؤلاء كان يتمنى موت السلطان ليكون هو السلطان بدلا عنه ، اتضح لنا أن هذه التشكيلات — تبعا لأمرائها — كانت تتنافس فى تقديم التشكيلات الأخرى فى ساحة الوغى ، أى أنها — أى هذه التشكيلات كانت تتنافس فى البعد عن الخطر ، لا اقتحامه فيما عدا استثناءات ليست كثيرة ذكرها لنا ابن زنبل .

أما فرقة أولاد الناس ، فكانت بمثابة فرقة احتياطية . والأصل فى النظام المملوكى أن أولاد المماليك لا يدخلون فى التشكيلات العسكرية ، لكن حدث فى أواخر العصر المملوكى أن تم ادراجهم فى هذه التشكيلات ، وكان هذا فى الغالب رغبة فى استفادتهم من الرواتب والاقطاعات ، اذ كان العمل الأساسى لأولاد الناس هو التجارة وادارة المشروعات ، ولم يكونوا يواظبون على التدريب ويدعون فقط للحرب عند الضرورة[5] ، وكانت الأفكار المعروفة عنهم أنهم تربوا « فى حجور أمهاتهم » وأنهم « خيخة » أو « زيزة » على حد العبارة التى أوردها ابن زنبل .

وأخيراً أجناد الحلقة ، وهم الأكثر عدداً والأقل تجانسا ، وكانوا بمثابة الجيش الدائم للدولة ، وقد انضم اليهم بعض أصحاب الحرف من الطوائف المختلفة ، واعتبر من أجناد الحلقة العربان ، وفى وقت السلم كان على كل أربعين من أجناد الحلقة مقدم الا أنه لم يكن له سلطة عليهم الا أثناء الحرب ، فهم بمثابة عسكر احتياطى لا يدعى للخدمة العسكرية الا اذا قامت الحرب ، وهم وان كانوا يأتمرون بأمر السلطان الا أنهم ليسوا ملكاً له ولا من عتقائه وكان منهم حراس القلعة ، وكان السلطان يرسل منهم بعض السفراء فى مهام خاصة ، وكان عدد كبير منهم يخدمون فى بيوت الأمراء (عساكر مراسلة) وفى أواخر عهد المماليك أصبح

أجناد الحلقة مجرد هيكل ، لم يكن فيه من الصفات العسكرية سوى الاسم فيما يقول واحد من الباحثين الغربيين (٢) .

ومن بين أجناد الحلقة نخص العربان بالفقرات التالية ، باعتبارهم عنصراً عسكرياً لعب دوراً مهماً . لقد فاقت انتماءاتهم القبلية انتماءهم للسلطان ، وكانوا فى أحيان كثيرة ينتظرون هزيمة أحد الطرفين لينقضوا على الطرف المهزوم ليسلبوه ، رغم أنهم قد تزاوجوا مع المماليك فى بعض الحالات واصبحوا نسباء ، فقنصوه العادلى لجأ الى عربان الشرقية أنسبائه ، وقبيلة الهواوير فى الصعيد تزاوجت مع المماليك فيما يقول الباحث ميكل ونتر (٣) .

كان الجيش المملوكى اذن كبير العدد (بفتح العين) ، بل والعدد (بضم العين) ايضا ، ومع هذا حاقت به هزيمة ساحقة فى مرج دابق ، ومن بعدها الريدانية ، وكان تركيبه كما ذكرنا آنفا ، ولم يكن هذا التركيب أو هذا التشكيل يبشر بالنصر ، وهنا من حق القارىء أن يتساءل : أليس هذا هو التركيب نفسه — أو قريباً منه — الذى حقق المماليك من خلاله انتصارات عظمى على المغول والصليبيين ؟ والاجابة : بلى ، لكن الوضع لم يكن هو الوضع ، ونؤجل الاجابة عن هذا السؤال حتى نستعرض أسلحة المعركة ، فالسلاح ليس مجرد أداة قتالية ، وانما هو يفرض نوعاً خاصاً من العلاقات أو لنقل انه يؤثر فى طبيعة الاجتماع العسكرى (٤) .

لقد كان محور المهارة المملوكية يتمثل فى الفروسية وبالنسبة للعسكر المشاه استخدام السيف والرمح والبلطة (الفأس) وما الى ذلك ، وقد حدثنا الرحالة العرب والأجانب عن مهارتهم الفائقة فى هذين المضمارين، فالرحالة الايطالى الأصل ، البرتغالى الانتماء لودفيجو فارتيما يحدثنا — بانبهار — عن مهاراتهم الفائقة فى هذا المجال . لقد وصفهم فارتيما

---

(٢) بولياك ، الاقطاعية فى مصر وسوريا وفلسطين • ترجمة عادل زعيتر ، بيروت ، ١٩٤٨ ، ص ٩٨ .

(٣) فى كتابه : المجتمع المصرى تحت الحكم العثمانى .

(٤) John Ellis, The Social history of the machine Gun. London, Groom Helm, 1975.

الذى تسمى باسم الحاج يونس المصرى ، والذى زار مصر فى آخر القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر – بأنهم كالجان وتحدث عن قدرتهم القتالية باعجاب شديد ، بل ان ابن زنبل يشيد بذلك ولا ينكره رغم هزيمة المماليك أمام العثمانيين ، وأكثر من هذا فقد اعترف السلطان سليم ومن بعده السلطان سليمان بمهاراتهم الفائقة فى هذا المضمار ، وسنتناول هنا بشىء من التفاصيل أسلحتهم . ولنبدأ بالسيف وهو سلاح استخدموه بكثرة مشاة وفرسانا ، وكانت مراكز صناعة السيوف المملوكية فى القاهرة ودمشق وكانت دكاكين السيوف فى القاهرة فى منطقة بين القصرين ، وكانوا يبللونها بالسموم ، وعرفت هذه المواد التى يغمسون فيها سيوفهم (بالسقايات) وهى محاليل من البورق والملح ، وملح البول والزرنيخ والنورة على نسب معينة (٥) . والحرب بالسيف سواء للراكب أو الراجل ، تقتضى اقترابا شديداً من الشخصين المتقاتلين . اقتراباً يكاد يكون التحاما ، وحمل السيف يحتاج الى قوة بدنية وهو أمر متوفر لدى المماليك ، كما يحتاج لقوة بدنية وحذر وهما أمران تدرب عليهما المماليك جيدا . انه سلاح فردى على اية حال ، وقلما يشترك محاربان فى ملاقاة محارب واحد بالسيف ، فهذا ضد روح الفروسية نظريا على الأقل ، لكن غالبا ما ينسى المتقاتلون مثل هذه المسائل فى مواجهة اعتبارات عملية .

أما الرمح ، فهو أيضا ضمن الأسلحة التى أنتجتها المصانع الحربية المملوكية ، وكانوا يصنعون قصبته من خشب الزان أو من (غاب) أو بوص مصمت مستورد من الهند ، ومنها نوع يركب فيه السهم . والسهم سلاح يقتضى فى بعض الأحيان اقتراب المتقاتلين ، لكنه فى أحيان أخرى يقذف من بعد غير بعيد ليصيب الخصم . وفى هذه الحال يحتاج لمهارة فى التصويب ، والطعن بالرمح – على اية حال – يقتضى مهارة أقل من القتال بالسيف .

---

(٥) أورد هذه الخلطات أو السقايات أحمد عدوان فى كتابه : العسكرية الاسلامية نقلا عن : بكتوت الرماح : نهاية السؤال والأمنية فى تعليم أعمال الفروسية . مخطوط بجامعة القاهرة ، ولم نتمكن من الاطلاع عليه . ومحمد بن منكلى : الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية فى فن القتال فى البحر – مخطوط بدار الكتب المصرية .

أما القوس ، فهو قوس خشبى يشد طرفاه بخيط أقصر من قضيب القوس فيثنيه ويجعله على هيئة قوس ويشد فيه السهم وهو قطعة حديد لها نصول ثلاثة (جمع نصل) ، ويقذف السهم باستعمال اليد أو الرجل أو عن طريق آلة تشبه المنجنيق ، وكانت هناك أقواس لرمى مادة تشتعل بمجرد ارتطامها بالهواء ، ولم تكن كثيرة الاستعمال ، ولم تستعمل فى معركة مرج دابق اذ لم يشر اليها ابن زنبل أو ابن اياس ، وهناك طرائق لقذف سهام كثيرة برمية واحدة . وهناك سهام تسمى الجروخ استخدمها المماليك وهى عبارة عن « آلة حربية لرمى السهام والنفط والحجارة ويقال لمستخدمها من الجند الجرخى ، وهو ما نسميه بالسهم النارى » (٦) .

وغنى عن الذكر أن مدى الرمى للسهام أقل بكثير من مدى رمى المقذوف من البندقية العثمانية . أما الطبر (بفتح الطاء والباء) فهى الفأس الحربية وتلك لا تقذف ، وانما تحتاج لاقتراب شديد من الخصم ، وكلما كانت المفاجأة شديدة كانت اصابتها أخطر ، وأما الجنبية فهى الخنجر وسميت بهذا الاسم لأنها سلاح مساعد توضع فى الجنب ، وكانت تصنع فى الزردخانة (دار صناعة السلاح الأبيض) .

وكان من الطبيعى أن يحترز المماليك لأنفسهم بجملة احترازات لوقاية أنفسهم ، سواء فى حروبهم مع بعضهم وبعضهم الآخر أو مع أعدائهم الخارجيين . فاستخدموا الخوذة من الجلد أو الحديد ، والمغفر الذى يغطى الوجه كاملا فلا يظهر الا العينان وقد تمتد أحيانا على الأذرع والظهر فتسمى (رفرف) (٧) وبطبيعة الحال ، فان هذا لا يغنى كثيراً فى مواجهة رصاص البنادق ، كما أن الاصابة ان كانت فى البطن أو الجانب الأسفل أدت الى تدحرج الجندى فيقترب منه الأعداء للاجهاز عليه بالدبابيس والطبر والرماح ... الخ . وقد تفنن المماليك فى أساليب الوقاية وفقا لمقتضيات عصرهم ، وكان تفننهم هذا مفيدا فى عصر ما قبل البندقية ،

---

(٦) أحمد عدوان ، العسكرية الاسلامية .. ص ٥٨ وقد أرجع هذه المعلومة الى الهروى فى كتابه التذكرة الهروية وكتب أخرى .

(٧) من تعليقات رسوم المتحف الحربى بالقاهرة – القلعة .

ومن ذلك التجفاف وهو شبيه بالدرع واستخدموا القفاز من جلد البقر او جلد الملط (حيوان صحراوى) والجوشن لوقاية الصدر والمضمض وهو خوذة مسدولة على قفا المحارب وحول رقبته ، والرانات وهى جوارب طويلة تكسو الساق ، وفى المتحف الحربى المصرى نماذج مختلفة للتروس العائدة للعصر المملوكى ، وكان بعض المماليك يرتدون قمصانا مصنوعة من الزرد الخالص ، وكان بعضهم يغطى حتى ساقيه بهذه الدروع الثقيلة . من هذا العرض يتضح أن الجندى المملوكى كان مثقلا بالعدد ، ونفهم من رواية ابن زنبل أن الجيش العثمانى كان جنوده أخف حركة واسرع خاصة فى مرج دابق ، كما نفهم أن السلطان سليم عندما رأى رسل الغورى وهم « فى الحديد » على حد تعبير ابن زنبل علم انهم ما أتوا بهذا الشكل الا لارهاب جنوده ، وقال لهم بما يفيد الم يكن لدى استاذكم (الغورى) أحد من العلماء يرسله لنا ، لكنه انما أرسلكم لنا بهذا الحديد (يقصد الدروع وخلافه) كى تفهموا عساكرنا أنه لا مجال لاصابتكم ، ثم أمر سليم — فيما يقول لنا ابن زنبل — بقتلهم ورميهم أمام المعسكر ليراهم جنوده . وبصرف النظر عن قسوة هذا التصرف ، فيبدو أنه كان أمراً ضرورياً لرفع معنويات عساكره وازالة الرهبة من الجنود العثمانية ، ونفهم من رواية ابن زنبل أيضا أن جنود العثمانيين كانت رواتبهم اقل بكثير من رواتب الجنود المماليك ، كما نفهم أن مظهرهم كان اقل ابهة وثراء من منظر الجنود المماليك ، وأن أسلحتهم — فيما عدا البنادق وآلات قذف النيران — كانت أقل شأنا مما لدى المماليك ، على أن البنادق وآلات قذف النيران لم تكن هى الوحيدة المسببة للنصر العثمانى ، وانما كان هناك تخلخل الجبهة المملوكية الداخلية ، وسنتعرض فى السطور التالية لتجارب انتصرت فيها جيوش اقل تسليحاً على جيوش مدججة بالسلاح ، مع عدم اغفال اهمية السلاح بطبيعة الحال .

كان الجندى المملوكى مثقلا فى فترة زمنية كان السلاح فيها قد غدا أخف وربما أمضى ، **واذا كان التاريخ يفسر بعضه بعضه الآخر** فليس خروجاً عن سياقنا هذا أن نذكر أن مسألة تخفيف الأثقال التى يحملها

الجندى ، والتى قد تعوقه عن الحركة وبالتالى عن واجبه القتالى كانت احدى شواغل قادة حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، خاصة وأنه كان على الجندى أن يعبر حائلاً مائياً وأن يواجه تلا رملياً عليه صعوده أو اختراقه ممثلاً فى خط بارليف ، فكان الحل العبقرى المستوحى من التاريخ بأن يكون مع كل جندى من فوج العبور الأول عربة يدفعها باليد فيها معداته الثقيلة، وان يكتفى بحمل ما هو ضرورى جداً على كتفه وظهره ، فيمكنه أن يترك عربته بجانبه ليؤدى واجبه القتالى ثم يدفعها عند تيسر الأمور ، وكان الحل العبقرى البسيط أيضا بازالة الساتر الترابى بقوة دفع المياه بدلا من ضربه بالمدافع فكان هذا — بالاضافة لأسباب أخرى — أحد أسباب النصر .

أما أبراج الحصار فلم يشر اليها ابن زنبل ويبدو أن الغورى لم يصحبها معه . وابراج الحصار بمثابة سترة للرجال الذين يشتركون فى جر المجانيق اتقاء لقذائف منجنيقات العدو ، ولم نفهم من رواية ابن زنبل أن الغورى قد استصحب معه حتى المنجنيقات عند توجهه الى الشام ، ومن الطبيعى ألا يصحب معه دبابات — والمقصود بالدبابات هنا آلات نقب الأسوار ، كما لم يشر ابن زنبل الى العرادات (آلات قذف النفط المشتعل) وكلها آلات انتجتها المصانع الحربية المملوكية ، وهذا يقودنا الى سؤال مهم جداً : ماذا كان يريد السلطان الغورى بخروجه للشام ؟ ان الاجابة عن مثل هذا السؤال توضح أن الهدف لم يكن محدداً لديه ، وبالتالى فهو لم يتخذ القرار الصحيح ، ولم تكن هناك توجيهات للأركان بالهدف الاستراتيجى للمعركة . فابن زنبل لم يحدثنا عن اجتماع مجلس الحرب ، وهو مؤسسة قديمة فى التاريخ الاسلامى والمملوكى ، وهو مجلس يجتمع برئاسة السلطان وأتابك العسكر ، ويحضره الخليفة العباسى فى القاهرة ، وكان حضوره شرفيا ، ويحضره أمراء العسكر ، من جلبان وقرانيص ... الخ ومهمته تحديد الهدف من الحرب ، والمدى الذى يمكن أن يصل اليه الجيش المقاتل ، ومتى يستمر ومتى يتوقف ، والغاية المراد تحقيقها .. اننا نقرأ فى كتب التاريخ عن مجلس الحرب الذى عقده قطز عندما تلقى تهديد المغول ، وسنتعرض فيما بعد لذلك

بشيء من التفصيل . اننا نفهم من رواية ابن زنبل أن الجنود المماليك فوجئوا بأنهم سيخوضون حرباً وهم فى الشام قبل قيام الحرب بساعات محدودة ، أو لنقل بيوم واحد . ونفهم من ابن زنبل أنه حتى الأمراء فوجئوا بأنهم سيحاربون ، وأن كثيرين كانوا يظنون أن السلطان خرج لعقد صلح بين السلطان سليم وغريمه اسماعيل الصفوى الشيعى الفارسى .. المسألة اذن مجرد حملة هى بمثابة (تشريفة) أو (استعراض للقوة) وتتناقض أقوال الرواة الذين يروى عنهم ابن زنبل، فهو يقول لنا ان الأمير سيباى نصح السلطان الغورى بعدم الخروج من مصر ، وأن يأمر امراءه فى الشام بمواجهة العثمانيين ان كان ثمة خطر لكنه رفض ، فان كان حقاً يريد الخروج للحرب فأين المنجنيقات والعرادات .. ولم يقل لنا ابن زنبل أنه قسم المهام على جيشه قبل الخروج ، ولم يجمعهم ليقسموا يمين الولاء والطاعة أثناء القتال ، وهو اجراء له أهمية بالغة فى هذه العصور وربما فى كل العصور .

كان انتقال الغورى الى الشام اذن اجراء استفزازيا لا مبرر له ، وبصرف النظر عن تناقض روايات ابن زنبل ، فان الأحداث التاريخية التى اعقبت ذلك تفيد أن السلطان سليم لم يكن ينوى بالفعل أن يتوجه الى مصر ، وأنه طوال اقامته فيها كان قلقاً على الأوضاع فى الأناضول والروميللى (أوربا العثمانية) ، وكرر السلطان سليم لكل من قابله من أمراء المماليك انه لم يكن ينوى القدوم الى مصر ، بل لقد عرض على طومان باى بعد هزيمة الغورى أن يذكر اسمه فى الخطبة ويسك اسمه على السكة ويعترف به خادما للحرمين الشريفين وكفى ، لكن طومان باى لم يوافق بعد أن أجبره بعض أمراء المماليك على ذلك .

والتاريخ كما قلنا يفسر بعضه بعضاً ، فقد كان أحد أسباب نصر اكتوبر المجيد أن التوجيه الاستراتيجى كان واضحاً ومحدداً : العبور والتوقف عند الممرات الحاكمة والتوقف لفتح باب التفاوض من منطلق تفاوضى جيد ، وتمسكت القيادة بذلك بعد تحقيقه معطية أذناً صماء للمطالبين بالاستمرار ، ذلك لأن هدفها الاستراتيجى المقرر منذ البداية

والمحسوب حسابه قد تحقق بالفعل ، والأمر كان مختلفاً تماما فى حرب ١٩٦٧ ، فالشواهد مما قرأناه ممن تعرضوا لهذه الحرب (هيكل وغيره) أنه لم تكن هناك نية حقيقية للحرب ، بل ونفهم أن جهوداً بذلت مع دول كبرى لمنع نشوب الحرب ، ففيم اذن كانت الاجراءات السابقة على الحرب ؟ . لكن حرب ٧٣ المجيدة قامت بعد أن تعلم المصريون الكثير ، ويبدو أيضا أن طبيعة الاجتماع العسكرى كانت قد ابتعدت على نحو أو آخر عن التراث المملوكى .

★★★

نعود للمسألة التى أثرناها من أن استخدام العثمانيين للبنادق والأسلحة النارية لم يكن هو السبب الوحيد لهزيمة المماليك فى مرج دابق والريدانية ، فثمة تجارب عسكرية حتى فى القرن السابع عشر ، حيث أصبحت الأسلحة النارية اكثر تطوراً من الأسلحة النارية التى استخدمها العثمانيون تفيد امكانية تحقيق انتصار من قوى لا تستخدم هذه الأسلحة اذا تمتعت بكثافة بشرية وتخطيط سليم (٨) ، ومن ذلك أن البرتغاليين فى بداية القرن السادس عشر كانوا يستخدمون البنادق قديمة الطراز muskets ، ومع هذا لم تحسم هذه البنادق الهدف الاستراتيجى لقواتهم المهاجمة فى جنوب أفريقيا ، واكتشف البرتغاليون أن مدافعهم لا تصلح مع هؤلاء الذين ينبطحون على الأرض حتى كأنهم جزء منها ثم يشرعون اذا حان الوقت فى استخدام أسلحتهم البدائية ، وفى القرن السابع عشر أدرك الهولنديون أن أهل البلاد من الخواسان قد عرفوا أن بنادق المشاة الهولنديين Dutch muskets تحتاج بعد اطلاقها لفترة زمنية لاعادة تعميرها reloading ؛ فكانوا ينتهزون هذه اللحظات للانقضاض على أعدائهم ، وأدرك أهل البلاد صعوبة اشعال فتيل

---

(٨) اعتمدنا فى كثير من الأفكار الواردة فى هذه الفقرة على :

عبد الرحمن عبد الله الشيخ : أثر الأسلحة النارية فى مجتمعات جنوب افريقيا فى القرون ١٧ و ١٨ و ١٩ ، دراسة فى التاريخ الاجتماعى العسكرى ، مجلة كلية الآداب جامعة الملك سعود ، المجلد ١٤ ، العدد ١ ، ١٤٠٧ هـ ، ١٩٩٧ م ، صص ٦٣ — ١٠٢ .

البندقية أثناء هطـول المطـر to ignite in rain فكانوا ينتهـزون هطول المطر لشن هجوم مضاد بأعداد كبيرة ، وواجه الزولو الأسلحة النارية بحصار العدو ومحاولة الاقتراب منه بأعداد كبيرة ، وقد أثبت تكتيكهم هذا نجاحا ملحوظا فى مواجهة الاسلحة النارية لهذا العصر ، رغم كثرة ضحاياهم ، وظل رجال الحرب والمؤرخون لمدة تصـل الى نصف قرن يكتبون مندهشين من هول انتصارات قبائل الزولو عـلى الجيش البريطانى ، ذلك لأنهم ـ أى الزولو ـ بمثابة شعب مسـلح (وليس مجرد جيش) وكانوا يقتربون من العدو فجأة بأعداد كبيرة ، وكل هذا لم يمنعهم من محاولة الحصول على السلاح النارى وفهمـه والتدرب عليه فى حدود امكاناتهم .

وتروى لنا صفحات التاريخ الهزيمة المنكرة التى حاقت بحملة هكس على السودان سنة ١٨٨٣ ، فقد استغل المهديون طبيعـة الأرض ، واستدرجوا عدوهم بعيداً عن مصادر المياه .. الخ ومـع أن بنـادق معركة مرج دابق كانت من البنادق قديمة الطراز التى تحتاج لفترة لاعادة التعمير . ولم يحاول المماليك ابتداع خطة لمواجهة هذا السلاح الجديد ، لأن طبيعتهم (طبيعة اجتماعهم) لا تتسم بالمرونة من ناحية ، ولأسباب أخرى سنوردها فيما بعد ، وكان العربان بمجرد سماع صوت (البندق) على حد تعبير ابن زنبل يولون الإدبار مسرعين قائلين : ومن الذى يطيق النيران ؟! بينما كان الهجوم والالتفاف كافيا لابطال مفعول هذه البنادق خاصة باستخدام تشكيل قرنى البقرة الذى استخدمه الزولو وغيرهم ، لكن روح القبيلة التى غلبت روح الوطنيـة أو بمعنى أدق روح الانتماء للمماليك جعلتهم يولون الإدبار فى مرج دابق والريدانية ، ثم عملوا بعد ذلك وبسرعة على إفشاء أسرار المماليك لآل عثمان . ولم يتعلم المماليك التطورات العسكرية الحادثة فى مجال السلاح ، بل ولم يستوعبوا ضرورة تغيير طريقة التشكيل أو حتى الصف لمواجهته ، فوقعوا فى الأخطاء نفسها عند مواجهة حملة نابليون بونابرت ١٧٩٨ فكانوا أيضا يواجهون العدو بصفوف متراصة ، مما يجعل طلقاته لا تخيب أو لا يخيب منهـا كثير ، بينما كانت طريقة الطوابير الطولية المقللة او ترك فرجات بين

المقاتلين يؤدى الى ضياع كثير من مقذوفات العدو . لقد واجهوا أسلحة ومنابرت المتطورة بنفس طريقة الصف التى واجهوا بها آل عثمان والصليبيين والمغول . ان طبيعة اجتماعهم تجعلهم عنصراً متجمداً يصعب اصلاحه .

ويروى لنا ابن زنبل أن رجلا مغربيا كان قد اتى الى مصر حاملا معه بندقية (أوربية) الى السلطان الغورى ، « وأخبره أن هذه البندقية ظهرت فى بلاد البندق (البندقية غالبا) وقد استعملها جميع العسكر الروم والعرب ، وهى هذه ، فأمره أن يعلمها لبعض مماليكه وجىء بهم فرموا بحضرته فساءه ذلك ، وقال للمغربى : نحن لا نترك سنة نبينا ونتبع سنة النصارى ... فرجع المغربى وهو يقول : من عاش ينظر هذا الملك وهو يؤخذ بهذه البندقية .. » . ونقرأ فى أكثر من موضع فى كتاب ابن زنبل لعنات على أول من صنعها (أول من استخدمها) ويروى لنا على لسان امراء المماليك أنها حرام ، واستخدامها لا يدل على الشجاعة والفروسية فلو رمت بها امرأة لأصابت ، وكيف ترغم على مسلم ، وكيف توجه النيران الى من يشهد بالوحدانية ... الخ . وغنى عن القول أن نذكر أنه لا فرق بين أن نقذف النار فى وجه من يشهد بالوحدانية ، وقطع رأسه بالسيف أو بقر بطنه بالرمح ، أو هتك جسده تحت أرجل الخيل ، أو حرقه أو اغراقه ... الخ ، وربما كان المثل المصرى الشائع « اللى تغلب به العب به » يعود الى اصول عثمانية فى هذه الفترة ، والحقيقة أن استخدام الدين فى مثل هذا المجال نوع من الكذب والعبث ، وعدم القدرة على التكيف وعدم القدرة على تغيير طبيعة الاجتماع . يقول الباحث ميكل ونتر (١٠) : « وتعد فترة حكم الشركس أو المماليك البرجية فترة اضمحلال اذا ما قورنت بفترة المماليك البحرية (التركية) فلم يعد للسلطنة أعداء خطرون ، اذ إن الفرنجة (الصليبيين) كانوا قد طردوا سنة ١٢٩١ ومع مطلع القرن الخامس عشر بعد انسحاب تيمور لنك من الشام ، لم يعد المغول يشكلون تهديداً

---

(١٠) فى كتابه : المجتمع المصرى تحت الحكم العثمانى ، ترجمة ابراهيم محمد ابراهيم (سلسلة الألف كتاب ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب) .

أيضاً فلم يطور الجيش طرائق فنية عسكرية جديدة (تكنيكات) ، كما لم يتخذ تكنولوجيات عسكرية جديدة ، ذلك أن المماليك رفضوا استخدام أسلحة نارية وهى التسليح الحديث لهذا الزمان ، معتبرين انهـا أسلحة لا تمت للفروسية أو الرجولة أو الاسلام ، كما لم يمكـن استخـدام البندقية من فوق صهوة جواد .... ونتيجة لذلك مر الجيش المملوكى بفترة طويلة من الركود ... بينما كانت الجارة الشـمالية (الدولـة العثمانية) تتطور تطوراً سريعاً من امارة صغيرة اقيمت فى بداية القرن الرابع عشر فى **الركن الشمالى** الغربى من الأناضول .. واشتبكت فى حرب مقدسة ضد البيزنطيين وراجت تتوسع باضطراد على حسـاب الحكام المسيحيين فى البلقان الممزق ، وعلى حساب الإمارات التركية فى الأناضول .. وبعد أن استولى العثمانيون على القسطنطينيـة ازداد توجس المماليك من التوسع العثمانى .. وفى نهاية القـرن صـارت العلاقات الدولية فى الشرق الأوسط — فجأة — **أكثر تعقيداً** اذ حـرم اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح والوصول **للهند** ، مصر من عوائد تجارة **التوابل** فأسهم ذلك فى مصاعب اقتصادية ... » لكـن الحقيقة أن هذه المصاعب **الاقتصادية** لم تكن هى سبب جمود العقليـة المملوكية وامتناعها عن تطوير قواتها المسلحة ، فقد ظل النظام العسكرى الاجتماعى **المملوكى منغلقا** على نفسـه لفترة طويلـة قبل اكتشـاف البرتغاليين لرأس الرجاء الصالح . فلم تكن المسألة مسألة مشكلـة اقتصادية وانما هى فى الأساس مشكلة اجتماعية ، فقد امتلك المماليك — بالفعل — المكاحل (المدافع) لكنهم لم يتوسعوا فى صناعتها بعـد زوال الخطر المغولى والصليبى ، ويشير لنا ابن زنبل الى أربعة مدافع مملوكية تم دفنها فى الرمال فى مصر كما خرج معه للشام أمير مكحـل (أى خبير مدافع) ، وان كان ابن زنبل لم يشر الى مكاحل (مدافع) مملوكية فى معركة مرج دابق ، ولم تنطلق الا قذيفة واحدة من هـذه المدافع المملوكية **أطلقها** رجل عابر أصم وفقاً لرواية ابن زنبل .

واذا كان التاريخ — كما كررنا آنفا أكثر من مرة — يفسر بعضـه بعضه الآخر ، فان تغير طبيعة الجندى المقاتل كانت أحد أسباب نصر

أكتوبر المجيد سنة ١٩٧٣ ، ففى هذه الحرب زاد عدد الجنود المؤهلين المتعلمين الأقدر على استيعاب الموقف والأقدر على التطور ، فكان العابرون مهندسين واطباء ومعلمين ومحاسبين عسكريين ، ومن هنا فقد تبنت الدولة بعد ذلك قضية التعليم كقضية محورية .

★★★

وحتى لا يفهم من العرض السابق أن المعركة بين المماليك والعثمانيين كانت معركة بين طرفين حاز احدهما كل المزايا فانتصر ، وحاز احدهما كل النقائص والعيوب فانهزم ، كان لا بد من التعرض للجيش العثمانى المنتصر على نحو ما تعرضنا للجيش المملوكى ، وقد اشار ابن زنبل لشىء من هذا ، وسنورد فقرات مما أورده فى سياقها .

فالحقيقة أن القوات المسلحة العثمانية لم تكن تختلف كثيراً من حيث التكوين عن القوات المملوكية ، فالنظام فى كليهما مملوكى (قوامه العبيد البيض) . فما الذى جعل كفة العثمانيين هى الراجحة . ان ذلك يعود الى حزم السلاطين العثمانيين وإحداثهم للتوازن بين (فئات) العسكر فأمسكوا بالعصا بحزم ، وكان التوازن الاستراتيجى بين القوات معلوماً محسوباً له حدود ، والأهم من ذلك أن القوات العثمانية كانت فى حالة مواجهة خطر دائم منذ فترة طويلة ، فهى فى حالة قتال متواصل سواء فى الأناضول قبل توحيده تحت سيادة آل عثمان ، أو فى البلقان حيث اتخذت الحروب طابع الجهاد المقدس ، أو ضد فارس حيث اتخذت الحروب ايضا طابع الجهاد المقدس ضد الشيعة الذين كان يطلق عليهم الروافض بل واحيانا الكفار . كل هذا جعل الجند العثمانيين اكثر يقظة واحساساً بالخطر من المماليك المصريين الذين عاشوا فى ظل النعمة طويلا بعد زوال الخطرين المغولى والصليبى . اما من حيث التشكيل والتركيب ، فهو واحد تقريباً كما سبق القول فيما عدا بعض التعديلات على الجانب العثمانى اقتضاها دخول الأسلحة النارية ، وفيما عدا قلة الاختلافات العرقية أو العنصرية بين الانكشارية (الينكجرية) الذين

كانوا هم عماد الجيش العثمانى فى هذه الفترة والفترة السابقة عليها ، والفترة اللاحقة عليها الى أن تم القضاء عليهم بعد أن استعصوا على الاصلاح وهو ما سنذكره فيما بعد .

نقرأ فى كتاب محمد فريد بك (١١) : « من أهم أعمال علاء الدين — أخى السلطان أورخان الأول الذى حكم سنة ١٢٨١ م ، وكان علاء الدين متوليا لأمور الدولة الداخلية بينما تفرغ أورخان الثانى لتوسيع الدولة ومقاومة أعدائها — أنه وضع نظاما للجيوش المظفرة وجعلها دائمية اذ كانت قبل ذلك لا تجمع الا وقت الحرب وتصرف بعده ، ثم خشى من تحزب كل فريق من الجند الى القبيلة التابع لها وانفصام عرى الوحدة العثمانية .. فأشار عليه أحد فحول هذا العصر واسمه قره خليل بأخذ الشبان من أسرى الحرب ، وفصلهم عن كل ما يذكرهم بجنسهم وأصلهم وتربيتهم تربية اسلامية عثمانية بحيث لا يعرفون لهم أبا الا السلطان ولا حرفة الا الجهاد ، ولعدم وجود أقارب لهم بين الأهالى لا يخشى من تحزبهم .. فلما كثر عددهم ذهب بهم الى الحاج بكطاش فدعا لهم وأسماهم ينى تشارى ، أى الجيش الجديد وحرف الاسم بالعربية الى انكشارية .. » .

هل يختلف هذا النظام فى روحه عن نظام المماليك ، بالطبع لا ، والفارق الوحيد انه لم يكن لأحد الحق فى أن يكون له انكشارية الا السلطان ، وهو فارق جوهرى على أية حال .

ومهما يكن من أمر ، ففى مرحلة لاحقة خرج الانكشارية عن حدودهم وتعدوا؛ مما جعلهم سببا فى تأخر الدولة . وقد أصدر السلطان محمود الثانى فى ١٦ يونيو سنة ١٨٢٦ قرارا بالغاء هذا النظام بعد أن قتل عددا كبيرا منهم ، فحقيقة الأمر أن نظام المماليك (سواء بحرية أو برجية أو انكشارية) نظام غير طبيعى فمن المحال أن يفلح أحد فى تكوين قطيع من البشر على نحو ما يكون قطيعا من الثيران ، واذا كان محمود الثانى

---

(١١) فى كتابه الدولة العلية العثمانية . تحقيق احسان عباس ، ص ١٢٢ .

قد أجرى مذبحة للانكشارية سنة ١٨٢٦ ، فقد سبقه محمد على وأقام للمماليك مذبحة سنة ١٨١١ . والقضاء على عدد كبير من المماليك أو الانكشارية لا يحل المشكلة ، اذ إن تراثهم يبقى من خلال ذراريهم ، ومن خلال تراثهم المتوغل فى المجتمعات التى عاشوا فيها ، ولم تكن مصر فى عهد محمد على ولا الدولة العثمانية فى عهد محمود الثانى قد بلغت مرحلة حضارية تجعلها تدرك أن مجرد اصدار القوانين او ذبح المماليك لا يكفى لحل مشكلة هذا التراث المملوكى (تراث العبيد البيض) ، فهناك الحل المعمارى أى اعادة تصميم المساكن بحيث نقضى على روح معسكر العزاب ، واعادة تقنين نظام الترقيات والمكافآت ليكون فعلا لصاحب الانجاز الأكبر ، ومراقبة تشكيل أى تكتلات فى الجهاز الادارى على أسس مصلحية أو عرقية ، ومراقبة تبادل المنافع بين مسئولى أجهزة الدولة المختلفة ، ومنع الاحتكاك المباشر مع مسئولى الجهاز الادارى قدر الامكان بانجاز المعاملات بالبريد مثلا .. الخ ، ولعل اثارة قضية (أهل الثقة) و (أهل الخبرة) فى الستينيات من هذا القرن هى فى حقيقتها اعادة طرح لقضية مملوكية صميمة .

ولم يكن تخلص محمود الثانى من الانكشارية هو المحاولة الوحيدة فقد سبقه عدد من السلاطين فى محاولات أخرى مختلفة ، لعل أهمها محاولة جرت فى عهد عثمان خان الثانى سنة ١٦٢٢ ؛ لكن محاولته فشلت وقتله الانكشارية (١٢) .

وكما أفسدت الصراعات المملوكية الحياة السياسية فى مصر ، كذلك أفسد الإنكشارية الحياة السياسية فى الدولة العثمانية ، وكما نهب مماليك مصر حصاد جهد الفلاحين من أهل البلاد ، فعل الانكشارية الشيء نفسه فى الأناضول ، وان كانت درجة الذل التى حاقت بالفلاحين المصريين اشد وأفظع فلم يكونوا من العناصر المقاتلة كسكان الأناضول ، وحقق العربان فى مصر بعض المزايا فى ظل المماليك لا لشيء الا لانهم عناصر مقاتلة .

---

(١٢) محمد فريد ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٧٨ .

ولم يكن ابن زنبل جاهلا تمام الجهل بالوضع العثمانى ، فهو يحدثنا عن الخلافات بين السلطان سليم وأبيه وأخوته :

« ... فان السلطان سليم كان له أخ أكبر منه يسمى السلطان أحمد وكان حاكم بورصة ، وكان أخوه قرقورد حاكم المغنيسيا ، والسلطان سليم قبل أن يتسلطن كان حاكم طرابزون ، ولكنه كان ذا همة وطلب الملك على اخوته فالهمه الله تعالى زواج ابنة ملك التتار خان ليكون ظهراً له فتزوجها ، ثم تجرد بعد ذلك لأخذ الملك من أبيه لما سمع من الجواسيس الذين كانت تأتيه بالأخبار بأن أباه السلطان بايزيد ضعيف على موت ، وأنه أرسل لولده أحمد يحضره ليقلده الملك ... وجرد سليم العساكر على أبيه الذى أمر بالخروج لملاقاته .. وعاون كمال أغا السلطان سليم ضد أبيه ..... الخ » .

الصورة على الجانبين اذن لم تكن تختلف الا فى التفاصيل ، لكن احساس العثمانيين بالخطر كان أعمق مما لدى مماليك مصر ، وكان العثمانيون ، كما سبق القول ، فى حالة حرب مستمرة ، بينما كان المماليك المصريون قد أنسوا للراحة منذ فترة طويلة ، بالاضافة بطبيعة الحال للأسلحة النارية التى كانت لدى العثمانيين ولم تكن لدى المماليك .

وكان انهيار الانكشارية بعد ذلك فى القرن التاسع عشر يرجع للأسباب نفسها التى أدت لانهيار العسكرية المملوكية ، ومحور هذه الأسباب هو عدم القدرة على التطور واستيعاب الأسلحة الجديدة ، وتغيير تشكيلاتهم وفقاً للظروف المتغيرة ... الخ .

★★★

لم يكن سبب تفكك الدولة العثمانية وانهيارها فى النهاية — فيما يقول بول كولز (١٣) الباحث فى التاريخ الاجتماعى — نتيجة قصور فى القوانين والتشريعات ، فقد أخذت أوربا كثيراً من التشريعات والتنظيمات

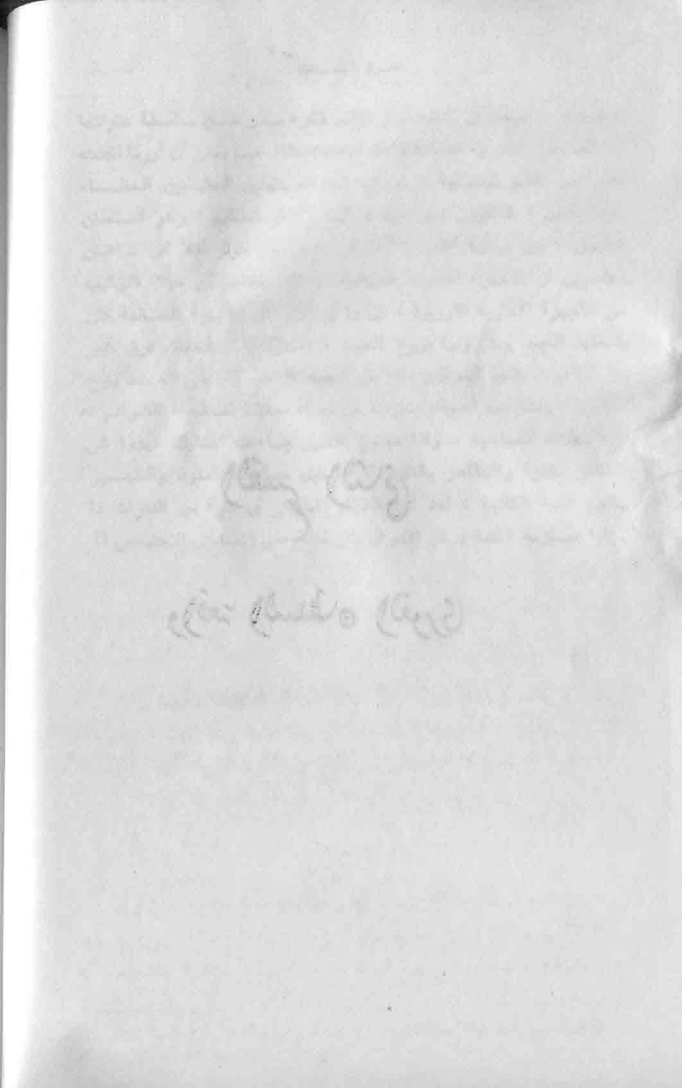
---

(١٣) فى كتابه : العثمانيون فى أوروبا (سلسلة الألف كتاب الثانى — الهيئة العامة للكتاب) ترجمة د. عبد الرحمن الشيخ .

العثمانية ، لدرجة ان كتاب كولز الآنف ذكره صدر ضمن سلسلة عنوانها (الحضارة الأوربية European civilization) ،مما يعنى أن أوربا أخذت كثيراً من النظم العثمانية ، كما أن أحد السلاطين العثمانيين العظماء عرف بإسم (القانونى) وأحيانا (الباهر) أو العظيم ، وهو السلطان سليمان ، وفى مرحلة الانهيار العثمانى يذكر بول كولز نقلا عن مراقبين معاصرين أن الأجهزة الادارية العلمانية لم تكن تختلف من حيث التركيب عن الأجهزة الادارية الأوربية ، كل ما فى الأمر أن الأجهزة العثمانية كان يشغلها العبيد ويديرونها بروح العبيد (المماليك) ، وهناك فرق كبير بين أن يوكل تنفيذ القوانين لثلة من العبيد لا تعمل على تنفيذ روح القانون ، وانما تدور حوله وتفرغه من معناه تحقيقا لمصالح « الشراذم » أو التكتلات المصلحية . واذا تجاوز التطور جماعات المماليك عمدوا الى التظاهر بالقوة والتظاهر بالنفوذ أو تشكيل جماعات النفوذ والظهور بمظهر القوة الكاذبة ، لقد كان النظام المملوكى فى فترة من الفترات ذا مزايا عسكرية ؛ لكنه فى كل الأحوال كان لعنة على المستوى الاجتماعى !!.

القسم الثانى

واقعة السلطان الغورى



مقدمة

بقلم الأستاذ / عبد المنعم عامر

لم تشهد بلاد مصر فى تاريخها السياسى فترة أظلم من تلك الحقبة التى خضعت فيها لحكم المماليك البحرية ، والجراكسة ، من سنة ٦٤٨ : ٩٢٣هـ (١٢٥١ ـ ١٥١٧م) ، فلقد حاق بأهل مصر فى هذه المدة ما ران على قلوب هؤلاء المماليك الحكام من الاستعباد والقهر(١)، واشتدت الحياة على المصريين فى نظام الاقطاع الذى صار فيه الفلاح المصرى أجيرا تتنازع ثمار جهوده أهواء الغالبين وذوى النفوذ من الحكام والكشافة (٢) ، ومن هم على شاكلتهم من التابعين .

---

(١) هذان التاريخان اللذان حددهما الأستاذ المحقق يشيران فقط الى قيام السلطة الرسمية للمماليك وسقوطها ، لكنهما لا يشيران الى فترات الحكم المملوكى الفعلية . فالحقبة التالية ونعنى بها الحقبة التى تلت الفتح العثمانى لمصر ، كانت أيضا مملوكية فلم يكن للعثمانيين الا الخطبة والسكة وحماية السواحل المصرية ، أما الحكم الحقيقى فقد ظل كما هو فى أيدى المماليك ، لذلك عرفت الحقبة العثمانية لدى عدد كبير من المؤرخين باسم الحقبة العثمانية المملوكية . راجع الدراسة التفصيلية فى صدر الكتاب .

(٢) كان منصب الكاشف (والجمع كشاف أو كشفة ـ بفتح الكاف والشين) منصبا فى الغاية من الأهمية فى عهد سلاطين المماليك ، وكان يفوق منصب والى الاقليم ، ففى عهد دولة المماليك الأولى (البحرية) كان هناك كاشف للوجه البحرى يمتد نفوذه على جميع أقاليم الدلتا ، وآخر للوجه القبلى يمتد نفوذه الى جميع أقاليم الصعيد ، وكان الكاشف يسمى والى الولاة وكان له نفوذ كبير على الأقاليم التابعة له ، أما فى عهد المماليك الجراكسة فكان لكل من الوجهين البحرى والقبلى نائب . (عاشور ، العصر المماليكى ، ص ٣٥٨) واستمر المنصب فى العصر العثمانى المملوكى ، لكن الكشاف تحولوا الى مجرد مديرين لقرى الكشوفية وتقلصت مدة توليهم لتصبح سنة واحدة ، رغم قيامهم بتحصيل المال الميرى ، والاشراف على الجسور وضبط الأمن .. الخ .. واستغلوا مناصبهم للاستيلاء على أراضى الغير والاثراء . (عبد الرحمن عبد الرحيم ، الريف المصرى فى القرن ١٨ ، ص ٤٨) .

ولم تكن مصر فى هذا الوقت وحيدة فيما صار اليه أمرها ، أو فيما آل اليه حال أهلها ، وانما شاركها فى النظام العام للحكم وفى اللون الخاص لأسلوبه القسم الثانى من السلطنة المملوكية ، ممثلا فى البلاد الشامية ٠

فلقد كانت الوحدة قائمة بين مصر والشام منذ أن غلب صلاح الدين الأيوبى الاستعمار فى الحروب الصليبية ، وتولى أمر السلطنة وقضى على الروح الانفصالية فى البلاد العربية والاسلامية ، فجبر بفعله ذلك الصدع الذى أصاب بنيان الدولة الاسلامية بانهيار الدولة العباسية وسقوط الدولة الفاطمية ٠

وكانت مصر والشام بعد حكم صلاح الدين بلدا واحدا تحكمه القاهرة ، مقر الدولة ومركز السلطان ومقام الخليفة العباسى، ودام حكم دولة الأكراد(٣) مدة اثنتين وثمانين سنة، الى أن سقطت الدولة الأيوبية زمن توران شاه على أيدى المماليك الذين استقدمهم أبوه الصالح نجم الدين أيوب حماة لدولته وقد كانوا معه مدة سجنه بالكرك حتى خلص من السجن سنة سبع وثلاثين وستمائة وملك مصر ، فحمد لهم ثباتهم معه حين تفرق عنه الأكراد ، ثم أكثر من شرائهم ، وجعلهم أمراء دولته وبطانته المختصين بدهليزه اذا سافر ، وأسكنهم معه فى قلعة الروضة ، وسماهم المماليك البحرية ، وكانوا نحو الألف ، كلهم من الأتراك ، ولقد كان شراء المماليك أمرا تألفه الملوك والأمراء ليتقووا به (٤) ٠

---

(٣) المقصود الدولة الأيوبية ٠

(٤) عين بعض الخلفاء العباسيين مماليك (عبيدا بيضا) لحكم مصر ومنهم الوالى على بن يحيى الأرمنى فى الفترة من ٢٢٦ هـ (٨٤١ م) الى ٢٢٨ هـ (٨٤٣ م) ويزيد ابن عبد الله التركى فى الفترة من ٢٥٤هـ / ٨٦٨ م الى رمضان من العام نفسه ، واستطاع =

وأول من تسلطن من هؤلاء المماليك الملك المعز عز الدين أيبك الجاشنكير (٥) التركمانى الصالحى سنة ثمان وأربعين وستمائة بعد زواجه من شجرة الدر وحدوث الفتن فى البلاد مما ترتب عليه اجتماع رأى الأمراء على اقامة الأشرف مظفر الدين موسى من ذرية الدولة الأيوبية شريكا له فى السلطنة، فأقاموه معه وعمره نحو ست سنين ، فصارت المراسيم تصدر عن الملكين الا أن الأمر والنهى للمعز ، وليس للأشرف سوى مجرد الاسم ، الى أن قبض عليه المعز وسجنه ، وقطع اسمه من الخطبة ، وانفرد بالسلطنة ، فكان ظلوما غشوما سفاكا للدماء .

واستمر حكم المماليك البحرية الى أواخر سنة أربع وثمانين وسبعمائة ، وقد فسدت فى مدة حكمهم أحوال المملكة ، وزاد افساد العرب فى البلاد ، وغامر غالب النواب فى البلاد الشامية ، فخرجوا عن الطاعة ، فاقتضى الحال اقامة سلطان تجتمع حوله الكلمة ، ويسكن به الاضطراب .

فتولى الملك السلطان الظاهر أبو سعيد برقوق بن آلفى، وهو جركسى الجنس ، أخذ من بلاد الجركس ، وبيع فى بلاد القرم ، وجلب الى القاهرة فاشتراه الأمير يلبغا الخاصكى ، وأعتقه ، وجعله من جملة مماليكه الأجلاب (٦) .

= أحمد بن طولون وكان واحدا من رقيق الخليفة العباسى المعتز بن المتوكل ، أن تكون له ولذريته دولة شبه مستقلة بمصر ، فكما أن أسلوب المماليك فى الحكم لم ينته بسقوط السلطنة المملوكية سنة ١٥١٧ فان له أيضا جذورا تاريخية أعمق فى مصر .

(٥) الجاشنكير فى الأصل وظيفة يقوم شاغلها بتذوق المأكول والمشروب قبل السلطان أو الأمير خوفا من أن يكون مسموما . (عاشور ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٠٣) .

(٦) أو المجاليب أى الذين تم شراؤهم كبارا (ليسوا فى مرحلة الطفولة) أما المماليك الترابيون فهم الذين تم أسرهم أثناء الحروب وهم أطفال .

وبدأ عهد دولة المماليك الجراكسة ، واستقر برقوق فى الحكم ، فأخذ يكثر من شراء المماليك ، وقد رخص لهم بالسكنى فى القاهرة وبالتزوج ، فنزلوا من الطباق فى القلعة ، وتزوجوا بنساء أهل البلد ، وأخلدوا الى البطالة ، وتغيرت أحوال الدولة وعاداتها ، ورفع نواب البلاد الشامية لواء العصيان ، ووقع بينهم وبين عساكر مصر وقائع كثيرة ، سفكت فيها الدماء ، وقد دام الاضطراب حتى حضر يلبغا الناصرى بعساكره من الشام ، فحارب عساكر السلطان برقوق خارج باب النصر ، فانهزمت عساكر السلطان واختفى برقوق ، واستولى يلبغا علىالقلعة ، فأخرج حاجى بن الأشرف آخر سلاطين الدولة الأيوبية من دار الحريم ، وولاه السلطنة ، ولقبه بالمنصور .

ثم قبض يلبغا على كثير من الأمراء ، وامتدت أيدى العساكر الشامية الى النهب والسلب ، فارتجت القاهرة ، وأكثر الناس من الشكوى الى يلبغا ، فمنع هذا ، ثم أخرج جميع مماليك الظاهر برقوق من مصر ، وأكثر البحث عنه حتى ظفر به ، فقبض عليه ، وأرسله مسجونا الى الكرك .

وبعد هذا حدثت عداوة بين الأمير منكاش وبين الأتابك يلبغا تسبب عنها فتنة ومحاربات آل الأمر فيها الى أن هرب يلبغا وخلص الأمر الى الأمير منكاش ، فعزل وولى . وتصرف تصرفا مطلقا .

وفى تلك المدة تمكن الملك الظاهر برقوق من الخروج من الكرك ، وانضم اليه مماليكه وكثير من العرب ، وحصل له مع ولاة الشام والملك المنصور وقعات عديدة انتهت

برجوعه الى السلطنة ثانيا ، فمال اليـه كثير من النـاس ، وصار يهجم على البلاد الشامية ليخضع له النواب فيها حتى استتب له الأمر ٠

وكان تيمورلنك فى هذه المدة يعبث فى البلاد بجيوشه الباغية ، وحصل بينه وبين المصريين وقعات كثيرة ، واستولت عساكره على بغداد، ففر صاحبها الى مصر، فأكرمه السلطان، وأنزله فى دار تطل على بركة الفيـل ، ثم جهز له جيشـا ، وسار معه بنفسـه الى الشـام ، وكان تيمورلنك قد رحـل عنها، فرجع السلطان برقوق الى بلاده ، وتوجه صاحب بغداد الى مملكته ٠

وكانت هذه المدة كلها حروب وشـدائد ، ووقع فيهـا غلاء وبلاء بمصر ، تسبب عنهما خراب كثير فى البـلاد ٠ واستمر السلطان برقوق فى الملك الى أن مات سـنة احـدى وثمانمائة ، وتبعه فى الحكم من بعده أربعة وعشرون سلطانا من المماليك الجراكسة ، آخـرهم الملك الأشرف طومان باى الذى تولى السلطنة بعد وقعة السلطان سليم العثمانى مـع السلطان أبى النصر الأشرف ، قانصوه الغورى ، ودام سلطان المماليك الجراكسة احدى وعشرين ومائة سنة تقلبت فيهـا البلاد أطوارا مختلفة من العمارة والخراب ، وخضع الحكم فيها لنظام القوانين التترية بعد أن كانت الأحكام تقضى على الشريعة الاسلامية ، واختلط الحق بالباطل ، ومزج الحسن بالقبيح ، وصار نظام الحكم ذا وجهين ، الوجه السياسى ، والوجه الشرعى ، وقد فوض لقاضى القضاة كل ما يتصـل بالأمور الدينية من الصوم والصلاة وأمر الأوقاف والأيتام

والنظر فى القضايا الشرعية كالديون والزوجية ، وجعل الحكام لأنفسهم قوانين أخرى ، يقضون بها فى أقضيتهم ، وقد رجعوا فيها الى أصول قوانين جنكيز خان التى وضعها بعد أن صار ملكا ٠

وكانت القلعة مسكن المماليك السلطانية وخواص الأمراء بنسائهم ومماليكهم ودواوينهم ومطابخهم وسائر وظائفهم ، وكان بها عدة أبراج لسجن الأمراء والمماليك ، وجب هائل مظلم كريه الرائحة كثير الوطاويط أعد لذلك أيضا ٠

واستجد فى القاهرة أيام المماليك الجراكسة عمارات فخيمة ، وكثرت القصور والبساتين فى ضواحى المدينة وفى بولاق ومصر القديمة ، وكان نطاق العمارة آخذا فى الاتساع رغم كثرة التقلبات وتواليها ، فقد كان المماليك يتنافسون ويتفاخرون فى بناء الدور والمدارس والجوامع والأسبلة والقبور ٠

وكان أهل مصر ينتفعون بما فى أيدى المماليك من الرزق ، وكان خدمهم يبيعون للناس ما تصل اليه أيديهم من اللحم والسمن والعسل ، وسائر المأكولات والملبوسات ونحو ذلك بأبخس الأثمان ٠ وكانت لهم سوق يباع فيها الفاضل من الأطعمة التى يأخذها الخدم من الأسمطة ٠

ثم فشا فى الناس الظلم والعدوان ، وكثرت المصادرات، وغلبت السيئات على الحسنات ، ومال الحكام وأتباعهم الى الغواية والفساد ، وآخلوا بكثير من شعائر الدين ٠

أما سكان الريف فقد كانوا يعيشون فى نظام بغيض من الاقطاع ، يقوم على استغلال الفلاح المصرى وسلبه أمواله وثمار جهوده ، وكانت البلاد المصرية مقسمة الى آقاليم ، تسمى كشوفيات . وعلى كل اقليم كشاف من الأمراء ، وفى الوجه القبلى سبعة آقاليم وبالوجه البحرى سبعة أخرى .

وكان يعين فى كل سنة على كل اقليم كشافون آخرون يسمون « كشافى التراب » وعملهم جمع ما يتعين على الأقاليم أداؤه الى الدولة من الأموال والرجال لحفر الترع واقامة الجسور ، وحفظ شواطىء النيل زمن الفيضان . وتعيش قبائل العربان بين هذه الإقاليم أو على حدود البلاد، وتتشعب هذه القبائل الى طوائف ، يرأس كلا منها أمير ، من تحته جماعات أخرى من الأمراء .

ولم يكن هم المماليك بصالح البلاد شيئا يذكر بجانب ما كانوا يهتمون به من المصالح الذاتية ، وقد دبت فيهم نوازع الحسد ، وجرت بينهم دوافع الضغن وحب التعالى والطمع ، فأبطل كل واحد منهم ما أحكمه الآخر ، ونقض ما أبرمه(٧) ، فتفرقت كلمتهم ، وساءت سيرتهم ، وصاروا شيعا وأحزابا تهوى بها رياح الجهالة والحمق ، فأصبحوا بلا عدة تحفظهم ولا قوة تمنعهم وعم الفساد فى البلاد ، قاصيها ودانيها ، وتوالت موجات الغلاء والأمراض ، وتعاقب الوباء ، وأهمل أمر الرى . وساء توزيع المياه ، فطميت الترع والخلجان ، وانقطعت المياه من المزارع ،

---

(٧) طبيعة الاجتماع المملوكى (اجتماع العبيد) تفرض ذلك ، فروح المعسكر الذى اجتمع فيه اغراب ، وروح ارتباط جملة مماليك بسيد (أو أستاذ) تقتضى بالضرورة أن يحطم كل مملوك جهد المملوك الآخر .

وخيفت السبل ، وسلب الأمن ، فطمع العثمانيون فى ملك المماليك (٨) ٠

***

ويسجل هذا المخطوط الذى ألفه ابن زنبل ، الشيخ أحمد الرمال حوادث الحرب التى قامت بين المماليك والسلطان العثمانى، من أولها، فى موقعة مرج دابق بالشام الى نهايتها فى موقعة امبابة ، وانتهت بهزيمة المماليك والقضاء على سلطانهم المطلق ٠

والشيخ أحمد الرمال ، هو أحمد بن أبى الحسن على بن نور الدين المحلى الشافعى ، ابن زنبل وهو خير من يؤرخ لهذه الواقعة ، فقد عاصرها وعاش فى جوها وشاهد الحوادث فيها ، وكان منها بمنزلة المشير على المماليك يضرب لهم الرمل ، ويكشف لهم عن حظهم فى كل موقعة ، وهم يأنسون الى رأيه ، ويصدقون قوله ٠

وقد توفى ابن زنبل بعد سنة ٩٦٠ هـ ، وبقى كتابه المسمى « وقعة الغورى والسلطان سليم وما جرى بينهما » مخطوطا لم ينشر ، حتى كان عام ١٢٨٧ هـ فطبع جزء من الكتاب ، طبع حجر بالأستانة ، لكن لم يتحقق نشر جملة الكتاب رغم أنه يصور حقبة هامة من حياتنا التاريخية ، وقد اعتبره المؤرخون مصدرا أصيلا من مصادر التاريخ المصرى ، واعتمد عليه رواد القصة التاريخية فنسجوا من

---

(٨) هذه مسألة خلافية بين المؤرخين ، فالثابت ان السلطنة المملوكية هى التى تحرشت بالدولة العثمانية دون استعداد حقيقى للمواجهة العسكرية ، ولم تحدث معركة حقيقية فى مرج دابق ، وانما حقق العثمانيون فى هذه المعركة « نصرا بلا حرب » (راجع الدراسة فى صدر هذا الكتاب) ونضيف هنا أن بكوات مصر (المماليك) كان لهم وضع خاص لم تمسسه الدولة العثمانية كثيرا بعكس الحال فى الولايات الأخرى ٠

بعض حوادثه قصصا له أثره فى الحياة الأدبية المعاصرة ، كما فعل السيد الأستاذ سعيد العريان فى قصته المشهورة « على باب زويلة » .

ولكتاب ابن زنبل عدة مخطوطات :

١ ــ المخطوط رقم ٣٧٦ تاريخ تيمور ، وهو محفوظ بدار الكتب بالقاهرة ، وعدد صفحاته ٢٣٧ صحيفة ، مقاسها ١٩٠ × ١٤٥ ملم وعدد الأسطر فى الصحيفة ستة عشر سطرا ، وفى كل سطر سبع كلمات . وقد كتب بخط تعليق وبقلم واحد ، عدا الصفحات رقم ٣ و ٤ و ٥ و ٣٩ و ٥٠ ، والجزء الأسفل من الصحيفة ٣٨ فقد كتبت بقلم مختلف ، وتاريخ الفراغ من نسخ هذا المخطوط يوم السبت سادس عشر من شهر صفر سنة ١٠٦٥ هـ .

٢ ــ المخطوط رقم ٧١٤ تاريخ تيمور بدار الكتب بالقاهرة ، أوله .. الحمد لله على كل حال ، وبعد فقد سأل الفقير محمد الزنبلى الرمال أن يوفقه الله تعالى ويعينه على التيسير أن يؤلف سيرة الملك الأشرف السلطان الغورى مع السلطان سليم خان ..

وآخره .. ولما مات تولى محمد باشا ، ثم تولى على باشا الطواشى ومات بمصر ، ودفن بجانب القاضى بكار ، وهلم جرا ، باشا بعد باشا الى يومنا هذا .

وكان الفراغ من نسخ هذا المخطوط رابع يوم من شهر رجب من شهور سنة ١٢٠٩ هـ ، وقد كتب هذا المخطوط على ورق صقيل لامع من ٣٠٣ صحائف ، مقاس كل صحيفة منها ٢٣٥ × ١٧٠ ملم ، وعدد الأسطر فى الصحيفة الواحدة خمسة عشر سطرا ، وفى كل سطر ثمانى كلمات .

٣ ــ المخطوط رقم ٤٤ تاريخ بدار الكتب ، وهو جزءان ضخمان ، يحوى الجزء الأول ٦٠٩ صحائف ، والجزء الثانى ٢٠٦ أوراق ، وقد قام بنسخ الجزء الأول محمد قناوى محمد، وفرغ من كتابته فى اليوم السادس والعشرين من شهر شوال سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة وألف من نسخة أعارتها البطريركية القبطية الأرثوذكسية المرقسية بالقاهرة لدار الكتب .

وهذا الجزء ناقص من أوله ومن آخره .

وأما الجزء الثانى فقد انتهى نسخه فى يوم الاثنين سابع عشر ربيع الأول من شهور سنة ثمان وستين (وألف) من الهجرة ، وعليه تمليك برسم شيخ الاسلام محمدالدميرى الحنفى تاريخه سنة ١١٥٧ هـ .

وأول الجزء الثانى .. ولما أصبح الله بالصباح وأضاء بنوره ركب السلطان طومانباى بعدما صلى الصبح ، وكذلك الأمير جانم بمراكبه من بر الشرق الى بر الغرب .

٤ ــ مخطوط بمكتبة الجامعة بالاسكندرية مبيع من الدكتور عطيه سوريال ، وعليه خاتم احدى خزانات الكتب بألمانيا .

ولقد اعتمدت فى نشر الكتاب على المخطوط رقم ٣٧٦ تاريخ تيمور ، وجعلته الأصل ، لسبق وجوده ولتكامله واتفاقه معالمخطوط الآخر المحفوظ بمكتبة جامعة الاسكندرية فى كثير من نواحى الشبه ومع المخطوط رقم ٧١٤ تاريخ تيمور بدار الكتب، وان الخلاف الموجود بين هذه المخطوطات

الثلاثة والمخطوط رقم ٤٤ تاريخ بدار الكتب لهو خلاف واضح وجوهرى وبخاصة خلاف الحجم الذى يرجع سببه الى الاستطراد والسرد لحوادث تاريخية لا صلة لها بهذه الفترة من الزمن ، والى ذلك الشعر الطويل الكثير الذى يرويه المخطوط رقم ٤٤ عن حوادث قديمة ، قد لا يكون لها صلة بما يعرضه الكتاب من تاريخ وقعة السلطان سليم مع السلطان الغورى مما لا يجد فيه القارىء فائدة ترجى أو لذة تحس ، وانما عمد فيها واضع الكتاب الى جمع قصص منه ما يمثل القصص المثيولوجى ومنه ما يمثل غيره ، بدون ربط أو شبه ، وفى استطراد يكاد يذهب بالمادة التاريخية التى حواها الكتاب .

ويبدو لى أن هذا المخطوط لا يصور المخطوط الذى ألفه ابن زنبل تصويرا صادقا لخلافه مع المخطوطات الأخرى ولأن عنوانه كتب بنفس الخط والحبر اللذين كتب بهما تمليك الشيخ محمد الدميرى ، فضلا عن أن الجزء الأول منه منسوخ نسخا حديثا ، ولم يتيسر لى العثور على الأصل المنسوخ منه هذا الجزء .

ومن خصائص هذا المخطوط الذى أقوم بنشره أن العلامة الألمانية للورق تتفق مع تاريخ النسخ ، وأنه معقب تعقيبا كاملا ، تحوى كل صفحة يمنى فى زاويتها السفلى الكلمة التى تبدأ بها الصحيفة التالية لها ، وقد التزم الناسخ كتابة « قال الراوى » بحبر أحمر .

***

ولقد عرض المؤرخ ابن اياس فى كتابه : « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » الحوادث التاريخية التى رواها

ابن زنبل فى كتابه ، مفرقة على التوقيت اليومى الذى اتبعه ابن اياس فى كتابة تاريخه ، وتختلف روايتاهما فى كثير من الأحيان ، ولقد أثبت الخلاف فى هوامش الكتاب مضافا اليه ايضاحات لأسماء البلاد والأعلام والمصطلحات اللغوية ، التى توضح للقارىء ما يستغلق عليه ادراكه من الألفاظ والتعبيرات التى لا تشيع فى أسلوبنا المعاصر ، وأسميت الكتاب « آخرة المماليك » مع المحافظة على الاسم الأصلى « وقعة السلطان الغورى مع السلطان سليم » ، تمشيا مع الجرس الموسيقى لأسماء الكتب الحديثة .

وعنيت فى تحقيق الكتاب ونشره بترقيم الأسلوب وتفصيص عباراته الى فقرات متناسقة تتفق فى حوادثها ومجرياتها وفى أزمانها ، ولم أعمد الى تصويب عبارة الكتاب من الناحية اللغوية أو من الناحية الاعرابية ، ابقاء على الأسلوب فى وضعه الذى يصور اللغة التأليفية فى عصر ابن زنبل حتى يكون الكتاب مادة للدراسات اللغوية المقارنة فى العصور المختلفة .

ولقد ذيلت الكتاب بملحق يوضح القاهرة وما كانت عليه أقسامها أيام المعركة فتتضح للقارىء ميادين القتال وأماكن الحوادث ، واعتمدت فى هذا على كتاب خطط المقريزى وكتاب خطط على مبارك المسمى « الخطط التوفيقية » وعلى كتاب « تاريخ الجبرتى » ، وأرجو أن أكون قد وفقت فى تزويد المكتبة التاريخية المصرية بمصدر هام من مصادر التاريخ المصرى .

ذكر خروج السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى من مصر لملاقاة السلطان سليم بمرج دابق

وكان خروجه من مصر يوم السبت سادس عشر (★) ربيع الآخر سنة احدى وعشرين وتسعمائة (١٥١٥ م) ، وكان أمراء دولته (★★) فى ذلك العهد ، أولهم سودون العجمى أمير كبير(★★★) وأركماش أمير سلاح ، وأمير مجلس (١) ، وسيدى محمد بن السلطان الغورى ، وأمير

(★) ذكر ابن اياس أن السبت يوافق خامس عشر ربيع الآخر .

(★★) كان عدد الأمراء الذين تعينوا للسفر صحبة الغورى خمسة عشر أميرا منهم أرباب وظائف ضخمة ، وأمراء مقدمون بدون وظائف عشرة ، وأما الأمراء الذين تخلفوا بالقاهرة فمنهم طومان باى أمير دوادار كبير ابن اخى السلطان ، وقد تعين أن يكون نائب الغيبة عن السلطان الى أن يحضر ، والأمير تقطباى نائب القلعة ، والأمير أرزمك ، والأمير تانى بك النجمى ، وكان قرر أمير الحاج يركب المحمل ، والأمير ، ازبك ، والأمير قانصوه ابو سنة ، والأمير قانصوه التاجر ، والأمير بخشباى ، وكان قد توجه الى الفيوم لعمارة الجسر الذى بها ، والأمير خاير بك المعمار ، وكان مقيما بثغر رشيد لعمارة الابراج التى هناك ، والأمير خدابرى نائب الاسكندرية ، والأمير قانصوه الشهير بروح لو .

(★★★) امير كبير : وظيفة ذات شأن عظيم ، ويقوم بخدمة من يشغلها ثلاثة الاف وخمسمائة مملوك ، ويقتضى نظامها أن يكون شاغلها من مقدمى الالوف . وكانت الوظائف حسب منازل اصحابها على النحو التالى : امير كبير ، ثم يليه امير سلاح ، ثم امير مجلس ، ثم امير دوادار الكبير ، ثم امير اخور الكبير ، ثم راس نوبة النواب ، ثم امير حاجب الحجاب ، ثم امير خازندار الكبير ، ثم امير الحاج الشريف . ولا يشغل هذه الوظائف الا من جملة مقدمى الالوف .

(١) يدير مجلس السلطان أو الأمير . أشار الى هذا المنصب القلقشندى فى صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ١٨ .

أخور كبير (٢) ، وسودون داوودى رأس نوبة النواب(٣) ، وأنس باى حاجب الحجاب ، وقانصوه ابن السلطان جركس، والأمير نقطباى نائب القلعة ، والأمير قانصوه ابن سلطان كسرت ، والأمير طومان باى دوادار (٤) كبير ، والأمير تنم الزردكاش (٥) ، والأمير جان بلاط آبو ترسين ، والأمير تان بك الخازندار(٦) ، والأمير يزبك المكحل(٧) ، والأمير رزمك الناشف ، والأمير أبرك رأس الجلبان ، والأمير اقباى الطويل ، والأمير بيبرس ابن عم السلطان، والأمير كرت بيك الوالى وأبو المفاخر والمعالى ، والأمير قانصوه آبو سنة ، والأمير قانصوه رجله (★) ٠

وكان هؤلاء الأربعة والعشرون أصحاب الطبلخانات فى مصر ، لهم الأمر والنهى والحكم مثل السلطان ، وكان كرت بيك الوالى أعظمهم حرمة لشجاعته وفروسيته ومخاصمته الشجعان والأبطال فى جهة الميدان ٠

---

(٢) هو المشرف على اسطبل السلطان ليرعى ما فيها من خيول ٠

(٣) النوبة فرق العسكر التى تتناوب الوقوف لحراسة السلطان وهى خمس فرق تتغير ظهرا وعصرا وعشاء وفى منتصف الليل وفى الصباح ٠

(٤) اى حامل دواة السلطان أو الامير ومبلغ الرسائل ، وعن طريقه تقدم الشكاوى وأوردها د٠ محمد السعيد سليمان فى كتابه تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل هكذا (الدويدار) وذكر أنها تكتب أيضا (الدواتدار) و (الدويتدار) و (الدوالدار) ، وفى النجوم الزاهرة أن أول من ابتدع هذه الوظيفة هم السلاجقة وكان يسمى أحيانا الحاجب ، وقد عظم شأن هذه الوظيفة فى القرن الرابع عشر حتى أصبحت كنيابة للسلطنة وكان الدوادار يشاور السلطان فيمن يسمح له بدخول القصر ٠ أما فى الادارة العثمانية ، فكان الدوادار بمثابة رئيس للكتاب (محمد السعيد سليمان ، المرجع نفسه) ٠

(٥) الزردكاش ، أحد المسئولين عن السلاح خانة ، والمسئول عن صنع السلاح واصلاحه وتجديده (القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ١٢) ٠

(٦) الخازندار مسئول مالية السلطان والسلطنة ٠ (عاشور ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤١٠) ٠

(٧) المكحل ، مسئول مكاحل البارود وهى المدافع على أنواعها ٠ انظر ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ ١٢ ، ص ٢٧٧ ٠

(★) ذكر ابن اياس أنه ضد الأمير الشهير بروح لو وفى الاصل ما ذكر ، وهو نائب قطيا ، وعدد الأمراء الذين ذكرهم المؤلف عشرون ٠

وسيأتى طرف مما كانوا عليه ، رحمهم الله تعالى أجمعين •

ذكر
نواب البلاد التى كانت فى حكمهم

فأول النواب نائب قطيا كان قانصوه رجله ، وأما القدس الشريف وغيره والرملة وما هناك من الضياع فكان المتولى على جميع ذلك دولتباى ، وأما صفد وطرابلس والشام وبيروت وصيدا وأعمالهم فكان النائب عليهم الأمير تمراز الأشرفى ، وأما دمشق الشام فكان نائبها سيباى ، وأما حمص فكان نائبها أصلان بن بداق ، وأما حماة فكان نائبها أقبردى الغزالى لا لقاه الله خيرا • وأما حلب فكان نائبها الأمير خاير بك • وأما البيرة فكان نائبها جان بردى ، وعنتاب كان نائبها يونس بن أقبية ، وأما قلعة الروم كان نائبها أبو زيد ، وكانت أونه وجميع بلاد مرعش وأعمالها الى ديار بكر (٨) بحكم على دولتباى ، والى حين ينتهى الى جنب الروم (٩) بحكم محمود بن رمضان •

وكان على دولات يحمل المال الى مصر من جميع حكمه وبلاده ، وهو الذى كان سبب الفتنة بين السلطان سليم وبين

---

(٨) هى منطقة كان الترك يطلقون عليها اسم قره آمد وكانت حاضرتها تقع على الضفة اليسرى لنهر دجلة (فى تركيا الآن) ، وقد فتحها العثمانيون سنة ١٥١٥ بعد معركة تشالديران التى خاضها العثمانيون ضد الفرس ، اى قبل موقعة مرج دابق بعام واحد • وقد جهر اهلها بالولاء للسلطان العثمانى سليم الأول خوفا من تهديد الفرس • (الموسوعة الاسلامية — مادة ديار بكر) ومن خلال موقع ديار بكر الآنف ذكره يمكن فهم نص ابن زنبل ، فقد كانت ديار بكر قريبة جدا من الروم (المقصود العثمانيون) •

(٩) المقصود الدولة العثمانية ، فمصطلح الروم استخدم كثيرا بهذا المعنى فى مصادر المماليك •

الغورى ، وقابريك أيضا (١٠) ، الى آن حصل ما حصل من القتل بين الفريقين ، « ان ربك يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » ، « ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين » ٠

وأما الكشاف (★) فكانت أسيوط مع برسباى الأشرفى ، ومنوف كاشفها قانصوه العادلى ، والفيوم والبهنسا كاشفهما جانم الأشرفى ، ودمنهور مع يونس البدوى ، والمحلة مع أطاس ٠٠ وكان مشهورا بالظلم ٠

وأما الثغور المحروسة فكان نائب الاسكندرية قضا بردى ، ونائب دمياط على باى ٠

وأما مشايخ العربان فى الصعيد الأعلى ، فكان ابن عمر الأمير على فى جرجا ، وأولاد الأحدب فى الشرق ، وشيخ غزاله (١١) حماد بن خبير فى الجيزة ، والأمير حجازى بن

---

(١٠) المقصود غالبا خير بك الذى كان يكره المماليك كراهية شديدة مع انه مملوك لكن من أصول مختلفة اذ كان جورجيا ولم يكن شركسيا ٠

(★) جمع كاشف ، وهم الحكام ٠ وكان الحاكم بمثابة المحافظ ، أو بمثابة وكيله أو مأمور المركز اذا كان يحكم جزءا من الكشوفية ٠ وكلمة كاشف مأخوذة من الفعل كشف اذ ان الأصل فى وظيفة الكشافة أن يكشفوا عن أحوال المحافظات ، ولما اتسعت سلطتهم وصار الحكم اليهم ، وأخذوا المحافظات التزاما بقى الاسم القديم ملازما لهم ، وصار الكاشف يحكم المحافظة أو جزءا منها ٠ انظر تاريخ الحركة القومية ج ١ للاستاذ عبد الرحمن الرافعى ٠ وقد جاء فى كتاب زبدة كشف الممالك لخليل بن شاهين الظاهرى ، طبعة باريس سنة ١٨٩٤ ان الكشاف يعين مرة فى كل سنة من الأمراء مقدمى الألوف ، وكان الكشافة فى أول أمرهم ثلاثة : كاشف الوجه القبلى فى الولاء من الجيزة الى الشلالات ، ويولى من تحت أمره ولاة بأقاليم الوجه القبلى ، وكاشف بالوجه البحرى ، وكاشف بالجيزة ٠

انظر أيضا حاشية سابقة عن الكاشف ٠

(١١) ضبطها ميكل ونتر Winter فى كتابه : Egypt under the ottoman rule عزاله ، بالعين غير المعجمة ، ووردت فى مصادر أخرى بالغين (المعجمة) ٠

بغداد بالمنوفية ، وشيخ البحيرة كان الجويلى ، وأما الغربية فكان من نواحى سنهور (١٢) حسن بن مرعى ٠

وكانوا على هذا الترتيب فى زمن الغورى ، رحمة الله عليهم أجمعين ٠

وكان فى الشرقية أحمد بن بقر (١٣) ، وكان قليل الخير ، سيرته سيئة ٠

ونرجع الى خروج الغورى من مصر ٠

فلما وصل الى غزة قام بها ثلاثة أيام ، فشكت الرعايا للسلطان من نائب غزة ، فعزله عنها ، ورسم عليه (١٤) ، وعنفه على فعله وظلمه ، وزجره غاية الزجر ، وبعد ذلك رده اليها لكونه ابن عمه ٠

فورد على السلطان مكاتبة ، وهو مقيم بغزة ، من عند سيباى نائب الشام ، يذكر فيها الذى يعرضه المملوك على المسامع العالية ، أعلاها الله تعالى ، وأدامها ٠ أن العبد سمع بأن السلطان يريد السفر الى قتال ابن عثمان وأن المملوك يقوم بهذا الأمر ، ويكون السلطان مقيما بمصر ، ويمد المملوك بالعساكر المنصورة ٠

والذى يعلم به مولانا السلطان أن خاير (★) بك ملاحى

---

(١٢) عرف بها الأستاذ عبد المنعم عامر فى حاشية لاحقة ٠

(١٣) الصحيح بقار (بفتح الباء وتشديد القاف وفتحها) ٠

(١٤) رسم عليه أى حدد اقامته ، والمصدر ترسيم ، والجمع تراسيم ٠ ويعنى أيضا الوضع تحت المراقبة ٠ (عاشور ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٠١) ٠

(★) فى الأصل خير بك ، وفى غير هذا الموضع من الكتاب خاير ، وكذا فى كتاب بدائع الزهور لابن اياس : خاير ، وقد التزمت كتابة الاسم على هذا الرسم توحيدا للشكل وتحديدا للنطق به ٠

علينا (١٥) ، ومكاتيبه لا تنقطع من عند ابن عثمان فى كل حين • فرد عليه السلطان : ها نحن قد جئناهم بأنفسنا •

ثم أمر بالرحيل بالجيوش والعساكر ، وهم يموجون كالبحر الزاخر ، والسحاب الماطر ، فرسانا كالعقبان الكواسر ، ولكن اذا نزل القضاء عمى البصر ، فألقى الله تعالى فيهم الفتنة • فكان كل من الأعيان يتمنى هلاك السلطان حتى يكون هو السلطان ، فبهذا الموجب هلكوا أجمعين ، ويبعثون على نياتهم •

ومن غريب صنع الله تعالى أن السلطان الغورى كان له رمال حاذق ، فكان كل حين يقوله له السلطان : « انظر الى من يلى الحكم بعدى » ، فيقول : « حرف السين » •

فكان السلطان يعتقد أنه سيباى •

وكان كلما كتب سيباى للسلطان بما يفعله خاير بك نائب حلب من المكاتبات للسلطان سليم بأنه معه ، وأنه ملاحى على أبناء جنسه ، ويحرضه على المجىء الى أخذ مصر من الجراكسة ، والسلطان الغورى لا يقبل من سيباى نصيحة حتى نفذ قضاء الله تعالى وحكمه وقدرته ، وكان ما كان •

ولم يتمكن سيباى من ملاقاة السلطان الا على سعسع وهى قرية من قرى الشام •

وحضر سيباى قدام السلطان ، وقدم تقدمة عظيمة ، لها قدر وقيمة •

---

(١٥) ملاحى علينا أى معاد لنا ، ولحى فلانا عذبه وقبحه ، ويقال لحاه الله أى قبحه ، ولاحاه نازعه وخاصمه (المعجم الوجيز ، مادة لحى) •

فشكره السلطان على فعله شكرا زائدا بعد أن خلع عليه خلعة عظيمة ولم يخلع على أحد من النواب غيره ·

وكل ذلك والسلطان معتقد أن الخيانة انما هى من سيباى ، وما قصده الا أخذ السلطنة كما ذكر المنجم الرمال على حرف السين ، ولا يظن ويخطر فى فكره ، أن السلطان سليما يقدر يدخل أرض مصر أبدا لما يعلم من شجاعة الجراكسة ، ولا يمكنوا أحدا من أخذ بلادهم ، وما دروا أن الأرض لله ، يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين ·

وكان السلطان الغورى يعلم أن سيباى بطل من الأبطال ، لا يخطر الموت على باله ، فانه كان فارسا مناعا ، وبطلا شجاعا (★) ، ذا عزم شديد ، وبأس مديد · فكان السلطان لا يحسب الا حسابه ·

وأما خاير بك فانه لم يكن السلطان يحسب له حسابا لما يعلم من جبانته ، وعدم شجاعته ، فأخذه من لا يكترثه ·

وكان سيباى من مماليك السلطان قايتباى ، وكان رجلا يعد برجال ، وهو الذى عمر المدرسة التى بدمشق ، المعروفة بمدرسة سيباى ــ وهى اذا طلعت من سويقة باب الجابية (★★) وأنت طالب الى دار السعادة تكون على يسارك ــ ووقف لها الأوقاف ، ورتب لها الخيرات ، رحمة الله عليه ·

قال الناقل ، وهو الشيخ أحمد بن زنبل الرمال المحلى،

(★) فى الأصل فارسا مناع وبطلا شجاع ·

(★★) أحد أبواب دمشق ·

الجامع لسيرة الجراكسة (★) ، وما وقع بينهم مع السلطان سليم بن عثمان ، فان السلطان سليما كان له أخ أكبر منه يسمى السلطان آحمد وكان حاكم برصه (١٦) . وكان أخوه قورقود (١٧) حاكم المغنيسا (١٨) ، والسلطان سليم قبل أن يتسلطن كان حاكم طرابزان (١٩) ، ولكنه كان ذا همة فى طلب الملك والرياسة على اخوته ، فألهمه (٢٠) الله تعالى زواج ابنة ملك التتار خان ليكون ظهرا له ، فتزوجها . ثم تجرد بعد ذلك لأخذ الملك من أبيه ، لما سمع من الجواسيس الذين كانوا يأتونه بالأخبار بأن أباه السلطان بايزيد ضعيف على موت ، وأنه آرسل لولده أحمد يحضره ليقلده الملك من بعده . .

(★) الجراكسة أبناء شعب موطنه غربى القوقاز وقسم من الشاطىء الشرقى للبحر الأسود ، وقد هاجروا الى تركيا وسوريا والأردن ، وهم ينسبون الى أبيهم جركس .

(١٦) جرت العادة على كتابتها **بورصة** (**بالصاد**) منطقة ومدينة بآسيا الصغرى وكانت عاصمة للدولة العثمانية فى الفترة من ١٣٢٧ الى ١٣٦١ ثم انتقلت العاصمة الى أدرنة ثم الى **استانبول** (اسطنبول) سنة ١٤٥٣ . (محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العثمانية ، تحقيق احسان حقى ، ص ١١٩) .

(١٧) تكتب عادة **كركورد** ، ونقرأ فى تاريخ الدولة العلية العثمانية لمحمد فريد : « لما كان تعيينه (السلطان سليم) بمساعى **الانكشارية** يقتضى توزيع المكافآت عليهم حسب المعتاد أعطى لكل نفر منهم خمسين دوكا ، ثم عين ابنه سليمان حاكما **للقسطنطينية** وسافر بجيوشه الى بلاد آسيا لمحاربة اخوته وأولاد اخوته حتى يهدأ باله بداخليته ولم يبق له منازع فى الملك . فاقتفى أثر أخيه أحمد الى أنقرة ولم يتمكن من القبض عليه لوجود علاقات بينه وبين الوزير مصطفى باشا الذى كان يخبره بمقاصد السلطان . لكن علم السلطان بهذه الخيانة فقتل الوزير شر قتلة جزاء له وعبرة لغيره ثم ذهب الى بورصة حيث قبض على خمسة من أولاد اخوته وأمر بقتلهم وبعدها توجه بكل سرعة الى **صاروخان** مقر أخيه كركورد ففر منه الى الجبال وبعد البحث عليه عدة أسابيع قبض عليه وقتل » .

(١٨) فى آسيا الصغرى ، واليها ينسب حجر المغناطيس .

(١٩) عادة ما تكتب طرابزون ، كانت حاضرة لمملكة طرابزون الرومية . على **البحر** الأسود وتبعد ١٤٠ كم عن مدينة **أرضروم** (أرض الروم) ، واسمها مشتق من (ترابيزوس) اللاتينية . فتحها العثمانيون سنة ١٤٦١ . (محمد فريد ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٠) .

(٢٠) السياق يقتضى ذلك ، وفى الأصل المطبوع بتحقيق الأستاذ عامر (الهمهما) .

فخاف أحمد من أخيه سليم لما يعلم من طلبه الملك لنفسه ، فتأخر عن المجىء ٠

فجرد سليم العساكر على أبيه ٠

فلما سمع أبوه ذلك أخذته الغيرة ، وأمر بالخروج لملاقاته ٠

فخرجت العساكر ، ووقع الحرب بين الفريقين ، فكانت الكسرة على السلطان سليم ٠ فانهزم ، وأخذت زردخانته(٢١) بجملتها ، فهرب الى الكوفة ٠

فدخل عند رجل ، يقال له ، كمال أغا ، وهو دزدار القلعة ، فأضافه ومكث عنده مدة أيام ٠

فشكا له السلطان سليم مما جرى له ، وما ذهب منه من المال والرجال وهو متحير فى أمره ، وقد قصد أخذ الملك من أبيه قبل أن يعطيه لأخيه أحمد ، فلم يصح له ذلك ٠

فقال له كمال أغا : عندنا من مال أبيك شىء كثير متحصل ، وكنا نريد أن نرسله له ، فخذه وتقو به (★) ٠

ففعل كما قال له كمال أغا ، وجمع له عسكرا أكثر من الأول ٠

---

(٢١) الزردخاناه يعنى بيت السلاح ، والمقصود كل رصيده من الأسلحة ٠ عن الزردخاناه راجع القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، صص ١١ – ١٢ ٠

(★) فى الأصل : وتقوى ٠

وكان السلطان سليم لا يتوقف فى جمع العسكر ، لا على رومى ولا على عجمى ، بل كل من اختار أن يكون من عسكره قبله ، ويعطيه الجامكية (★) ويجعله من عسكره .

فجمع عسكرا كثيرا ، وجرد على أبيه ثانيا ، يريد القسطنطينية (٢٢) .

وكانت عساكر أبيه كلهم مالوا الى السلطان سليم لما يعلمون من علو همته .

وأما أبوه السلطان بايزيد . فانه كان رجلا مباركا من أولياء الله تعالى ، لا يحب العظمة ولا التجبر ، وكان رأس عسكره أغاة اليكنجرية (٢٣) ، يونس آغا .

فلما وصل الخبر الى السلطان بايزيد بأن ولدك سليما جرد عليك ثانيا أمر العسكر بالخروج لقتال ولده ، فلم يطعه أحد من عسكره . فجاء السلطان سليم الى أن وصل الى مدفن أبى أيوب الأنصارى ، رضى الله عنه .

فدخل الوزير الأعظم ، وكان اذ ذاك فرهاد باشا ، على السلطان بايزيد ، وأخبره بذلك ، وأعلمه بأن العساكر كلها مالت الى السلطان سليم وبغضوك لما يعلمون من تعففك والعصمة الملوكية ، وأنت تعرف ما يترتب على ذلك .

(★) الجامكية كلمة فارسية . معناها الراتب الذى يصرف للمحاربين بقصد شراء الملابس ، ثم صارت فى الاصطلاح المملوكى والعثمانى تعنى مرتب الجنود .

(٢٢) غريب استخدام الرمال لهذا المسمى لمدينة استقر اسمها منذ الفتح العثمانى على استانبول (اسطنبول أو اسلامبول) .

(٢٣) مصطلح آخر للانكشارية . من الكلمة التركية ينى Yeni بمعنى جديد وجرى Cery بمعنى عسكر ، فتكون يكيجرى بمعنى العسكر الجديد . يوردها الجبرتى أحيانا ينكجرية وهم جيش من المشاة أنشىء فى عهد السلطان العثمانى أورخان ٧٢٦هـ/١٣٢٦ م ، كان جنوده عزابا وفى عهد السلطان سليم سمح لهم بالزواج بشرط كبر السن ثم اطلق حق الزواج . وارتبط الانكشارية بالطريقة الصوفية البكتاشية . محمد السعيد سليمان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣١ .

فأمره السلطان بايزيد أن يقول لهم : السلطان يولى عليكم ولده أحمد ٠

فأبوا ذلك ، وقالوا : مانريد الا سليما ، كلمة واحدة ٠

فخرج السلطان بايزيد ، يريد الكوفة ، بماله وعياله، وأن يقيم هناك الى أن يموت ٠

ودخل السلطان سليم الى القسطنطينية ، فجلس على تخت الملك ، فلم يسافر أبوه الا يومين ، ومات رحمة الله عليه فى سنة ٩١٨ ٠ وأما أخوه السلطان أحمد فانه لما أرسل خلفه ليقلده الملك جاء الى أن وصل اسكدار ، فلم يجسر أن يدخل القسطنطينية خوفا من أخيه ومن العسكر ، لأنهم على غرض السلطان سليم ٠

فلما تولى السلطان سليم أرسل لأخيه احمد خلعة ، ورده الى مكانه ، وأيضا أرسل خلعة الى أخيه قورقود الى مملكته ، وهى مغنيسيا ، ببر أناضول ، واستقر هو فى الملك ٠

ثم أرسل خلف كمال أغا الذى كان بالكوفة ، وجعله أغا اليكنجرية ، ويونس أغا جعله وزيرا، وجعل فرهاد باشا باشة (★) روم ايلى(٢٤) ، ثم أمر بقتل اخوته ، واستقل هو فى الملك ٠

فهرب أخوه قورقود الى مصر ، واستجار بالغورى ، فأجاره ، فأرسل السلطان سليم يطلبه من الغورى ، فأبى أن يمكنه منه ، فاشتدت العداوة بين الغورى وبينه حتى وقع ما وقع ٠

(★) باشة بقطر تركى ، وهو لقب معناه الوالى ٠

(٢٤) أو الروميللى ، المتلكات العثمانية فى شبه جزيرة البلقان ٠

قال الراوى : ومما وقع بينهما من شدة العداوة أن السلطان سليما لما غزا على شاه اسماعيل سلطان العجم ، وجاء بالعساكر من على البيرة(★) ، وكان نائبها يسمى علاء الدولة من طرف جناب السلطان الغورى ، فأمر علاء الدين أهل مرعش ، ألا يبيعوا على عسكر السلطان سليم شيئا مطلقا من المأكل ولا من غيره ٠

فمات أكثر الدواب والناس من شدة الغلاء ، وكان هذا سبب الحرب بين الغورى وبين السلطان سليم ٠

وحصن علاء الدين البلاد كلها والحصارات والأبراج ، فلما جرى للسلطان سليم ذلك عرض على وزرائه ذلك ، وحصل له من الغم ما لا مزيد عليه ٠

وكان السلطان سليم حاد المرارة صعب الخلق ، فأراد أن يأمر العسكر بالحملة على تلك النواحى ، ويحاصر مرعش ، فأشار وزراؤه عليه أن يرسل يعلم بذلك الغورى ٠

فأمر بكتابة مرسوم الى ملك مصر قانصوه الغورى يخبره بما فعل علاء الدولة ، فأجاب الغورى بأن علاء الدولة عاصى أمرى ، فان قدرت عليه فاقتله وخلع عليه قصاده ، وأرسلهم ٠

ثم كتب الغورى مرسوما وأرسله خفية لعلاء الدولة ، يشكره على ما فعل ، ويغريه على قتال السلطان سليم ، ولا يمكنه من شىء أبدا ٠

(★) البيرة قلعة حصينة بين حلب والثغور الرومية ٠

وكان قصد الغورى القاء الفتنة بين الاثنين رجاء أن يقتل أحدهما أو كلاهما ، فيكتفى شرهما ، فانه كان يعرف شدة بأس كل منهما .

فقوى قلب علاء الدولة على قتال السلطان سليم .

وأما السلطان سليم لما قرأ جواب الغورى علم بفراسته أنه خديعة له ، فتحملت نفسه من الغورى غاية التحمل ، فكان ذلك سببا لاثارة الفتنة بينهما حتى وقع ما وقع ، كما هو المشهور .

ثم سافر السلطان سليم الى ملاقاة شاه اسماعيل ووقع الاتفاق بينهما بأن يبطل النار ، ويقاتل بالسيف والعود ، فلم يثبت السلطان سليم غير ساعة ، وولى عسكره منهزما ، لأن الروم لا قدرة لهم على ملاقاة الفرس من غير نار ، فعند ذلك آمر اغا اليكنجرية أن يرموا بالنار ، فما كان الا ساعة وانهزم شاه اسماعيل ، فان النار لا يطيقها أحد .

فأخذ السلطان سليم ما وجد فى أوطاق العجم (★) وانثنى راجعا منصورا يريد قتال علاء الدولة .

وأما علاء الدولة فانه جمع جيوشا كثيرة ، والتقى الجمعان ، وكان مع السلطان سليم خان بن شهوار ، وكان شهوار هو الملك ، والحاكم على تلك الديار ، وهو أخو علاء الدولة .

فلما قبض على شهوار بالحيل التى عملت عليه شنق على باب زويلة بمصر فى زمن قايتباى على يد الأمير يشبك الدوادار كبير ، والقصة مشهورة .

(★) أوطاق او وطاق الخيمة . والمراد المخيمات الكبيرة الخاصة بالملوك او القواد .

ثم أخذ علاء الدولة الحكم بعده ·

وكان لشهوار ولد أكبر أولاده ، فهرب الى السلطان سليم ، فمازال عنده حتى وقع هذا الحرب مع علاء الدولة ، واصطف الفريقان للقتال ، وخرج ابن شهوار الى الميدان بين الجمعين باذن من السلطان سليم ، وقال : من عرفنى فلقد كفى ، ومن لم يعرفنى فأنا ابن شاه سوار · أين من ربى فى انعام أبى ؟ أين المحبون لى ولوالدى ؟ فليأتوا تحت سنجق من حمانى من عدوى ، ولابد لكل انسان من يحبه ويبغضه · فأرتج عسكر علاء الدين ، وافترق منه بعضه ، فمن كان يبغض علاء الدولة مالوا الى ابن شهوار ، فما تم غير ساعة حتى عقل علاء الدولة وغالب أولاده ، وقطعت رءوسهم ، وجاءوا الى السلطان سليم ، فأرسل بهم الى الغورى ، فلما رآهم أحس قلبه بزوال ملكه لما يعلم من اختلاف عسكره عليه ، كما وقع لعلاء الدولة ، فان الملك ليس هو ملكا الا بالعسكر ، فاذا انحرف عليه عسكره ضاع ملكه ·

ثم ان السلطان سليما طمعت آماله فى أخذ مصر ، ثم توجه الى أدرنه (٢٥) ، ثم استشار مع الوزير الأعظم ، وهو أحمد باشابه هرسك ، وبعده بيرى باشا ·

فقال ابن هرسك للسلطان سليم ، نحن تصادمنا مع عسكر مصر فى زمن أبيك ، وكنت أنا باش العسكر وكسرونا أشد كسرة ، وقبضوا على ، ودخلت مصر أسيرا حتى وقفت

---

(٢٥) أدرنة نسبة الى الامبراطور أدريان الرومى ، واسمها بالرومية (أدريانا بولس) ، وهى فى البر الأوربى فتحها البكلربك لاله شاهين سنة ١٣٦١ · كانت عاصمة (أوربية) للدولة العثمانية قبل فتح القسطنطينية — محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية ، ص ١٢٩ ·

بين يدى السلطان قايتباى ، فمن على باطلاقى ، وعفا عنى ، عفا الله عنه ، وقد حلفت له ألا أسحب فى وجه القبيلة(؟) سيفا أبدا ، وصدقه على ذلك بيرى باشا ٠

ثم بعد ثلاثة أيام أمر السلطان سليم بعزل الاثنين ، ثم سار قاصدا عسكر مصر ، فلما وصل الى مدينة زملطى (★) أقام ينتظر الأخبار ، فلم يأته أحد ٠

ذكـــر
ارسال القاصـد من السلطان سليم الى الغورى

فأمر السلطان سليم بارسال قاض الى الغورى ، وكان اسم القاضى زبرك زاده ، وكان أعرج ، فمازال حتى وصل الى حلب ، فرأى أوطاق الغورى خاليا من العسكر ، ما فيه الا نحو ألف أو ألفين ، لأنهم كانوا كلهم دخلوا الى مدينة حلب ، وأخرجوا الناس من بيوتهم ، وسبوا حريمهم وأولادهم ، وآذوهم الأذى البليغ ، وكان ذلك سببا لقيام أهل حلب مع السلطان سليم على الجراكسة ، لشدة ما حل بهم من الضرر منهم ٠

فلما بلغ الغورى بأنه جاء قاصد من عند السلطان سليم أذن له ٠

فتمثل بين يديه ، وتأدب غاية الأدب ٠

فرحب به ، وسأله عن السلطان سليم ٠

(★) زمليلى : كذا فى الأصل ٠ وفى معجم البلدان لياقوت زملكان أو زملكا قريتان احداهما بها المكان القريب من دمشق ٠

فقال له القاضى : هذا ولدك ، وتحت نظرك .

فقال له الغورى : لولا أنه مثل ولدى ما جئت من مصر الى هنا بأهل العلم جميعا حتى نصلح بينه وبين اسماعيل شاه .

ثم أجزل عطاءه وصرفه .

ثم أمر الغورى بالخروج الى الحرب ، فخرج جميع العسكر وأودعوا جميع أموالهم عند أهل حلب بعد أن كدروا عليهم غاية التكدير ، وآذوهم غاية الأذى .

فلما خرجوا من عندهم دعا عليهم الكبير والصغير ، والغنى والفقير لما حصل لهم من ضررهم .

ذكر

ارسال الغورى الى السلطان سليم قاصدا

فلما استقر الغورى فى أوطاقه أمر بارسال قاصد للسلطان سليم ، فشاور أكابر دولته ، فاقتضى رأيهم أن يرسل رجلان من أهل العلم والدين ليتكلم بينهما بالمعروف رجاء لحقن دماء المسلمين .

فلم يفعل ، وأمر باحضار الأمير مغلباى دوادار ، وكان رجلا فاضلا قادرا على رد الأجوبة واقامة الحجة .

فقال له الغورى : جهز نفسك ، واخرج ، اكشف لنا خبر أهل الرم وما هم عليه ، وأعط هذه المكاتبة الى ملكهم .

ثم أمر عشرة من خيار العسكر بالتوجه مع مغلباى الى عسكر السلطان سليم ، وهم ملبسون بالملابس الفاخرة ، كل من رآهم يتعجب فى خلقهم وحسن خيلهم وهندامهم ، وهم كالعرائس .

واصطفوا صفا واحدا .

فلما دخلوا ووقفوا بين يدى السلطان سليم من غير اطالة ، نظر اليهم مليا وامتلأ من الغيظ .

ثم قال للأمير مغلباى : يا مغلباى ، أستاذك ما كان عنده رجل من أهل العلم يرسله لنا .. ؟! وانما أرسلك بهؤلاء العشرة يرعب بهم (★) قلوب عسكرى ويخوفهم برؤية أجناده ، ولكن أنا آكيده بمكيدة أعظم من مكيدته .

ثم أمر برمى رقبة مغلباى وجماعته ، وعيط (★★) من صميم قلبه بجلاده .

فارتجفت قلوب الحاضرين لذلك .

فقام الوزير يونس باشا ، وقبل الأرض بين يديه ، وقال : الرسول لا يقتل ، وليس له ذنب .

فقال : لابد من ذلك .

فقال الوزير : فان كان ولابد فأبق على كبيرهم مغلباى . فأمر بحبسه ، ورمى برقبة العشرة قدام أوطاقه ، واحدا بعد واحد ، وهو ينظر اليهم .

(★) فى الأصل : بها .

(★★) التعيط : الصياح ، لفظة يستعملها أهل لبنان . وفى مصر تستعمل مرادا بها البكاء .

وحبس مغلباى بقلعة رملطو يومين .

ثم أحضره وحلق ذقنه ، وألبسه طرطورا ، وركبه على حمار أعرج معقور .

وقال له : قل لأستاذك : يجتهد جهده ، وهأنا حضرت اليه كالبرق الخاطف والرعد القاصف .

ولم يقرأ مكاتيب الغورى لشدة غيظه ، لأنه لما رأى مغلباى والعشرة الملبسين بالحديد المانع فهم بالفراسة أنه ما أرسل هؤلاء الا ليخوف عسكره من شدة بأسهم وفرسانهم .

فلما رجع مغلباى للغورى على هذه الصفة عسر عليهم ذلك ، وأقامت نفوسهم على قتال السلطان سليم بعد ما كانوا يظنون أنهم انما جاءوا للصلح بين شاه اسماعيل والسلطان سليم .

ثم أمر الغورى بأن يخرج العسكر من مدينة حلب الى أوطاقه ، ويتهيأوا للقتال .

وأمر الأمير كرتباى الوالى بأن يكشف خبر السلطان سليم وعسكره ويرجع على الفور ليمشى عليه ، ويبادر الحرب .

فلما وصل كرتباى الى قيصرية (★) وجد أهلها قد قفلوا أبوابها وتأهبوا لقتال أهل مصر لما بلغهم ما فعلوه فى

(★) قيصرية كذا فى الاصل ، والصواب قيسارية بلد علي ساحل الشام . ومدينة عظيمة في بلاد الروم .

حلب وأهلها من اخراجهم من أماكنهم ونهب أموالهم، وغصب نسائهم وبناتهم ·

ثم وجدوا يونس باشا نائب عنتاب عزل حريمه وماله وهو معول على الرحيل الى السلطان سليم ، وقد قلب على أبناء جنسه ومال مع الروم · فرجع كرتباى الوالى ، وأخبره ان قيصرية وعنتاب عصوا علينا وأرادوا قتالنا ، ومالوا مع السلطان سليم ، وجاءنا الخبر بأن طلائع عسكره قد أقبلت، فلما تحققنا ذلك عطفنا راجعين ·

فارتج عسكر مصر لذلك ، ووقع فيهم الخلل ، فعند ذلك انتبه الغورى من ساعته ، وجمع الأمراء والأعيان ، وتحالفوا على أن لا أحد منهم يخون صاحبه ، ويكونون على قلب رجل واحد ، ويقاتلون عدوهم بعد أن كان غالب العسكر ما يظن الا الصلح بين السلطان سليم وبين شاه اسماعيل ·

وأما يونس باشا نائب عنتاب فانه ندم على فعله مع كرتباى الوالى ، وقال فى نفسه : ربما تكون النصرة لهم ، فلا آمن على نفسى ، ولكن أجعل لى معهم وجها ·

وركب من ساعته الى أن تمثل بين يدى الغورى ، وزعم أن السلطان سليما قبض عليه ، وأنه هرب منه ، وجاء الى مولانا السلطان مساعدا له على عدوه ·

فلم تنطل حيلته على السلطان ثم أمر بتوسيطه فى الوقت والساعة ·

فوسط الأمراء والأعيان كلهم مجتمعون ·

فقام من بينهم الأمير سيباى نائب الشام وقبض على خاير بك نائب حلب ، وجره من طوقه بين يدى السلطان الغورى ، وقال : يا مولانا السلطان ، اذا أردت أن الله ينصرك على عدوك فاقتل هذا الخائن ·

وكان خاير بك فى يده كالشاة بين يدى السبع ، وهو يجره ·

فقام الأمير جان بردى الغزالى وقال : يامولانا السلطان، لا تفتن العسكر وتبدأ فى قتال بعضهم بعضا ، وتذهب أخباركم الى عدوكم ، ويزداد طمعه فيكم ، وتضعف شوكتكم والرأى لكم ·

وتأخر فى مكانه ·

وهذه مكيدة من الغزالى ، والا كان خاير بك قد هلك، ولكن اذا أراد الله تعالى بأمر بلغه ، والحى ما له قاتل ، فأمرهم السلطان بأن يتحالفوا ثانيا ، وألا يخون منهم أحد والخائن يخونه الله تعالى ، وعليه لعنة الله ·

ثم أمر السلطان أن ينادى فى حلب بالرحيل منها بالمعسكر لقتال السلطان سليم ، وأن يتأهب كل أحد ويستفيق لنفسه ·

وكان ذلك فى يوم الجمعة الثانى من رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ·

وكان له مواكب حتى رجت الأرض ، وليس الخبر كالعيان ·

وكان الجلبان (★) ثلاثة عشر ألف مملوك ، كلهم مشتروات الغورى ، ولا واحد منهم الا ويعرف سائر أنواع الحرب والفروسية ، فانه كان مجتهدا فى تعليم الجلبان ، وكان قصده أن ينشىء له عسكرا من مماليكه مشترواته ، ويقطع القرانصة ، وهم مماليك الملوك الذين قبله ، وكان يحسب حسابهم خوفا من أن يمكروا به كما فعلوا بمن قبله ، وكان آخذا حذره ، ولكن الحذر لا ينفع من القدر ، والقاعدة المشهورة ، من طلب جله فاته كله ·

وكان معه الأربعة الأئمة من المذاهب الأربعة ، وخليفة سيدى أحمد البدوى ، وخليفة سيدى ابراهيم الدسوقى ، وخليفة سيدى أحمد الرفاعى ، وخليفة سيدى عبد القادر الجيلانى ، وكان معه المؤذنون الدواخل والوعاظ ، وكان له نظام عظيم ، فانخرم ذلك النظام ، وانتكست تلك الأعلام ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ·

ذكر التقاء الجمعين

ولما التقى الجمعان فى مرج دابق(★★) ، وكان فى أول الجيش أمير كبير سودون العجمى ، وأركماس أمير سلاح ، واخشيباى أمير مجلس ، وكان أمير أخور سيدى محمد بن السلطان الغورى ، أقام فى حلب بأمر والده ، وكذلك دواداره جانم(★★★) الأشرفى ، ومن كان فى مقدمة العسكر سودون الدوادارى رأس نوبة النواب ، وانس باى

(★) الجلبان الجنود المجلوبة بالشراء ·

(★★) مرج دابق مكان مشهور فى محافظة حلب بسوريا · والمرج هو الموضع الذى ترعى فيه الدواب ·

(★★★) فى الأصل حاتم ·

حاجب الحجاب ، وقانصوه ابن السلطان جركس ، وكان من الأبطال ، وتنمر الزردكاش ، وجانبلاط أبو ترسين ، وتانى بك الخازندار ، وأزبك المكحل ، وبيبرس ابن عم السلطان .

وباتوا تلك الليلة على غير حرب ، ولكن لم يهنأ لأحد منهم نوم من مكر بعضهم لبعض .

وكان ابتداء الحرب يوم الأحد المبارك الثالث والعشرين من رجب سنة ٩٢١(★) .

فلما اتضح النهار ركبوا كالبحر الزاخر ، فاذا صفوف العثمانية قد بانت صفا بعد صف خارجا من الوصف ، والأعلام الملونة من اليسار والميمنة ، وهم سائرون كالبحر السيال والمحيط الميال ، وقد رتبوا الصف من كل طرف ، فاذا طير من الطرف الكبير الذى فيه السلطان سليم مدفع كبير (★★) كالبرق الخاطف والرعد القاصف تزلزلت منه تلك الصحراء ، وطلع دخان كالجبال الزرقاء .

فكان أول من بادر العثمانية بالحرب من طائفة الجراكسة أصلان بن بداق ، نائب حمص ، أخذ قنطاريته (★★★) بيده ، وأطلق عنان جواده ، وصار يطعن فى الفرسان يمينا وشمالا .

فلما رأى الأمراء فعل أصلان بن بداق فى حملته أخذتهم الحمية ، فحمل الأمير سيباى نائب الشام ، ثم حمل

(★) ٢٣ رجب سنة ٩٢١ هـ = ٤ اغسطس سنة ١٥١٥ م .

(★★) فى الأصل : هدفا كبيرا .

(★★★) القنطارية آلة من آلات الحرب .

أمير كبير سودون العجمى ومماليكه خلفه نحو الألف ملبسين، ثم حمل الأمير جانبلاط أبو ترسين ، ثم الأمير علان دوادار تانى ، ثم حمل قانصوه ابن السلطان جركس ، ثم حمل كرتباى الوالى ، وكان فارس المنايا والموت الزؤام ، فلله دره من شجاع ، كان فريد عصره ! ٠

ثم حمل تنمر الزردكاش ، وبخشباى أمير مجلس ، والأمير أنس باى حاجب الحجاب ، والأمير قنصوه كرت ، والأمير تانى بك الخازندار ، والأمير تانى بك النجمى ، والأمير بيبرس ابن عم السلطان الغورى ، والأمير قانصوه أبو سنة ، والامير الفاجر ، والأمير خاير بك المعمار ، والأمير جان بردى نائب بيروت ، والأمير جانبردى الغزالى ، وخاير بك نائب حلب ، وكلاهما كان رأس المتعصبين على الغورى ، والأمير تمراز نائب طرابلس ٠

وحملوا جملتهم حملة واحدة ، وصادموا الروم ، ومالوا فى القتال ، والروم الآخرون لاقوهم كالأسد الدخال٠

قال الشيخ أحمد بن زنبل المحلى : ولم نر فى التواريخ القديمة والحديثة وقعة مثل هذه الوقعة ، ولا اجتمع فيها مثل هذين العسكرين ولا أكثر عددا ٠

قال : ولم يقاتل فى هذا اليوم من الجراكسة أكثر من ألفى فارس ٠ وهم الأمراء الذين قدمنا ذكرهم وأتباعهم ، وأما جلبان الغورى الذين هم مشترواته ، فلم يتحركوا من مواضعهم ، ولم يهزوا رمحا ، ولا جبذوا سيفا ٠

وسبب ذلك أن الله تعالى لما أراد ازالة دولتهم أوقع فيهم الخلف لأمر يقضيه وحكم يمضيه ٠

وعلى ما قيل ، ان السلطان الغورى أمر بأن أول مرة يخرج للحرب القرانصة (★) لكونهم أعرف بالحرب من الجلبان ، وكان قصده أن ينقطع القرانصة ليكتفى شرهم ، ويصفو له الوقت (★★) فانه كان يحسب حسابهم خوفا من مكرهم ، فأمر بتقديمهم للحرب ، وأخر جلبانه · فعلموا مكره لما رأوه واقفا هو وجلبانه ، لم يتحرك منهم أحد من موضعه ، فتغيرت نياتهم عليه ، وقالوا له : نحن نقاتل بأنفسنا مع النار ، وأنت واقف تنظر الينا كالعين الشامتة ، ما تأمر أحدا من مماليكك يخرج للميدان ·

فكان العسكر كله مختلفا فى بعضه ، مفسود النية ، ليس لهم رأى يرجعون اليه ، ولا تدبير يقفون عليه ، بل كل من تكلم كلاما يقول الآخر بضده ، فمن ذلك انخرط نظامهم ·

وأما الأمراء الذين تقدم ذكرهم نحو الألفين ، هم ومن يلوذ بهم ، اعتمدوا على الله تعالى فى حملاتهم ، وأصفوا نياتهم ، وصدموا الروم ، وضرب الروم بالمدافع والبندقيات حتى صار النهار كالليل الحالك من كثرة الدخان والغبار من حوافر الخيل ، لأنهم كانوا يقاتلون على قلب رجل واحد ونيات متفقة ، ليس لأحد منهم فى قلبه غل ولا مكر ولا حسد لأحد ، وهذا أحسن ما يكون لمن يريد النصر ·

ولقد أجاد القائل : اذا أراد الله بقوم خيرا وفق بينهم ، واذا أراد بقوم شرا فتنهم ، وأوقع الخلف بينهم ·

(★) القرانصة ، الجند القرانيص وهم قديمو الهجرة الموصلون بالديوان ، أصحاب الأرزاق الكبيرة المتعينون الى الامرة · ويكونون فى منزلة أمراء الخمسوات ، وكانت عدتهم مائة نفس ويسمون أيضا الوغاد ·

(★★) فى الأصل : يصفى ·

ومن أعجب ما يكون من العجب ، أن هؤلاء القوم القرنيين من الألفى فارس المتقدم ذكرهم من الجراكسة يقاتلون قتال الموت فى نحو مائة وخمسين ألفا من الروم والترك ما بين الوف مشـاة ، ومثلهم خيالة من عسـكر الروم ، ثم حطـوا عليهم حطة واحدة ٠

فبينما هم كذلك الا والسلطان سليم رمح حصانه من قلب الصف الكبير حتى وصل الى الصف الوسـطانى ، وفى يده سيف عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، وصـاح عـلى عسكره : هكذا تعاركون قدامى مع عدوى ؟! وعيط عـلى الباشات ٠

فلما نظر الروم الى ذلك ردوا على الجراكسـة كالبحـر اذا سال بعرض الوادى ، فتراجع الجميع ، وأطلقوا المدافع والبندقيات ، وحملوا على الجراكسة والعربان والمشاة مثـل القطر فى الثرى ، وصار النهار عليهم مثل القيامة الكبرى ، وكان يجىء كل مدفع على نحو خمسين أو ستين او مائة نفس فصارت تلك الصحراء كالمجزرة من الدماء ٠

ومازال الروم والسلطان سليم سائرين حتى جاءوا الى صف الغورى ، فرجع خاير بك والغـزالى مع من انهزم من الجراكسة حتى وطاق الغورى ، ونادوا بأعلى أصـواتهم : « الفرار ، الفرار ، فان السلطان سليما أحاط بكم ، وقتـل الغورى ، والكسرة علينا » ٠ وانثنى طالبا حلب ٠

فتبعه الجلبان وتشتت العساكر ، وظنوا أن السلطان قتل كما قال خاير بك ، وانما فعل ذلك بغضا ومكيدة مع الغورى ٠ والسـاطان الغـورى واقف مكانه وحوله بعض

الجلبان القريبين منه ، وأما البعاد عنه فانهم ظنوا أنه قتل فانهزموا مع خاير بك قاصدين حلب ٠

فلما علم الغورى بما جرى لعسكره من التشتت صار ينادى عليهم بأعلى صوته : يا أغوات ، الشجاعة ، صبر ساعة ٠ فلم يلتفت اليه أحد منهم ، وكان أمر الله قدرا مقدورا ، وكل ذلك بغضا منهم لسلطانهم ، فانه كان يريد أن يقطع القرانصة شيئا فشيئا ، ثم يستقل هو بجلبانه ، ويصفو له الوقت والسلطنة ٠

ولقد قال أهل المعرفة : من طلب جله فاته كله ، ولا تعاند تغلب ولو أنك السلطان (٢٦) ٠

فتقدم الأمير سودون العجمى أمير كبير ، وقال له : يا مولانا السلطان أين جلبانك ؟ أين خاصيتك ؟ هكذا عملت بنا ولا زلت قائما فى حظ نفسك حتى أهلكت نفسك وأهلكتنا معك ، ولكن القيامة تجمع بيننا وبينك ، وسنقف بين يدى مولانا ، سبحانه وتعالى ، يحكم بيننا بالعدل ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ٠

ثم التفت عن يمينه فوجد الأمير سيباى والأمير آقباى الطويل ، والأمير علان ، والأمير أصلان بن بداق ، ومن يشبه هؤلاء من القرانصة الأعيان ، وهم واقفون متجهزون ، فان جيشهم انكسر قهرا ، وما عسى أن تقاتل مائة نفس فى مائة وثمانين ألف نفس ، ولكنهم مع قلتهم أوقفوا هذا الجيش العظيم ، ولم يقدر أحد منهم أن يتقدم ٠

ثم عيت هذه الطائفة القليلة من الضرب والقتل ٠ والكثرة تغلب الشجاعة ٠

---

(٢٦) تغلب ، بضم التاء وتسكين الغين ٠

ومازال الغورى حتى بقى وحده وخلفه حامل السنجق، أمير اللواء ، وكان رجلا كبير السن من مماليك اينال الأجرود . فمن شدة ما حصل للغورى فانه انكسر قهرا ، ووقع على الأرض مغشيا عليه (★) .

ذكر
قطع رأس السلطان الغورى

قال .. فلما وقع السلطان الغورى على الأرض رمى حامل السنجق الرمح ، وأخذ القماش المطرز ، وكان يساوى ثلاثة آلاف ذهب ، فقال الأمير علان لأقباى الطويل : ما ترى فى أمر السلطان ؟

قال له : قل ما عندك ..

قال : ان نحن تركناه ورحنا وخليناه ، يأتى العدو فيقتلونه ويأخذون رأسه ، يطوفون بها جميع بلاد الروم .

قال : فما الرأى ؟

قال : الرأى نقطع رأسه ونرمى بها فى هذا الجب ، والجثة بلا رأس لا يعرفها أحد .

قال : نعم الرأى ! .

فأمر الأمير علان عبدا من عبيده ، فقطع رأس السلطان الغورى ، ورمى بها فى جب هناك .

(★) وكان هذا يوم الأحد الثانى من رمضان سنة ٩٢٢ الموافق أول بابة كما ذكر ابن اياس (٣٠ سبتمبر ١٥١٦) وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوما .

ثم ولى الأمير علان الى ناحية حلب ، وأما الأمير أقباى الطويل ، فانه طلب ناحية العجم ، وأقام بها الى أن مات .

وأما الأمراء الذين التهوا بالقتال مع الروم فانهم فاض عليهم بحر المنايا وزاد ، وابتلوا بعساكر ملأت السهل والواد ، واجتمع عليهم ذلك الجمع الكثير ، وخاضت خيولهم فى بطون القتلى ، فقاتلوا قتال من قطع من الدنيا أباسه (؟) (٢٧) .

فقصدهم الرماة بالبندق ، فوقع الأمير سيباى والأمير سودون العجمى ، وأما الأمير قانصوه ابن السلطان جركس فانه مازال يضرب بالسيف حتى خرق عسكر الروم ، وطلع من ذلك الجانب على حمية .

فلما خلص شم الهواء وردت اليه روحه بعد أن كان أيس من الحياة ، وألف حسنة لرجل خرج من بين الألوف ، ولكن اذا جاء أمر الله قضى بالحق ، ولا راد لله فيما قضى ، فوقع فى نهر هناك ينبت فيه العرقسوس ، فالتفت عليه قوائم الفرس ، فغرق .

وكان عسكر الروم تنظر اليه على بعد ، فلما رأوه فى هذه الحالة طمعوا فيه وأحاطوا به فقبضوه وعروه من الملبس ، فقطعوه بسيوفهم .

وأما الأمراء فغالبهم تشتت فى البلاد ، وغالبهم قتل ، وانهزمت تلك الجموع ، فتمكن عسكر السلطان سليم من أوطاق الغورى ، وأخذوا كل ما فيه ، وكان شيئا يفوق الوصف من الذهب والفضة ، والقناطير المقنطرة ، ومن

---

(٢٧) السياق : من قطع من الدنيا أمله .

البرق والملبوس والتحف التى جمعتها الملوك السالفة ذهبت كلها ، ونهبت فى يوم واحد ٠

وذلك بالنسبة لما أبقاه السلطان فى قلعة حلب ، وما اودعته الأمراء والأجناد عند أهل حلب ، وهو شيء لا ينحصر ، قليل جدا ٠ ومما نقل أن السلطان الغورى لما خرج لملاقاة العثامنة أخذ معه مائة قنطار ذهبا دنانير ، ومائتى قنطار فضة أنصافا ، وكان قصده أن يجعل ذلك نفقة للعسكر ، ونوى أنه لا يزال ذاهبا حتى يصل أسلامبول ، ويأخذها من يد السلطان سليم ٠

وسبب ذلك أن السلطان سليما أرسل له كتابا على سبيل النصيحة ، وغالبه تهديد كالسم فى الدسم ، ومن جملة ما فيه أنه قال : « ان لم ترجع عما أنت فيه من الظلم والعناء على المسلمين والا جئتك بعسكر من الروم ، وأخرب مصرك عليك » ٠

فكان هذا الكلام من جملة السبب المحرك للغورى على خروجه لحرب السلطان سليم ٠

فأرسل فى الجواب : أنا لا أحوجك للمجيء الينا ، ولكن تأهب للقاء الأبطال ، وتنظر كيف تفعل الرجال ٠

وصدق فى قوله ، لأنه أفحم قلوب عسكره ، وأهلك غالب الأمراء من القرانصة ، فكرهته العساكر كلها ، وما خرجوا معه الا وكل منهم يتمنى ألا يرجع الى مصر ، وكان هذا من سوء تدبيره ، وكل ذلك حتى يجرى القضاء والقدر ٠

قال الراوى : وبات السلطان سليم فى مرج دابق ، ثم أصبح وأمر أن تعد القتلى من الفريقين ٠

فوجدوا الذى قتل من الجراكسة ألف نفس ، وأكثرهم من المدافع والبندقيات ، والذى قتل من عسكر الروم أربعة آلاف . ثم وجد فى القتلى رجل عظيم من الجراكسة ، وعليه من الملابس الفاخرة ما يناسب الملوك ، وعليه من الهيبة والوقار ما لا يوصف ، ووجهه يتلألأ نورا ، وقد جاء مضرب زان أخذ فخذه ، فجىء ببعض من يعرف الجراكسة ، فوجده سودون العجمى أمير كبير .

فأمر به السلطان ، فغسل ، وصلى عليه ، وأمر بدفنه ، فكان ترابه فى زاوية هناك ، تسمى زاوية الشيخ أبى النور القارىء . وأما ما كان من آمر الجراكسة فانه لما وقعت عليهم الكرة نهب بعضهم بعضا ، وصار كل انسان منهم يأخذ ما قدر عليه ، وكل من كان له عدو وقدر عليه قتله ، ولكل شىء آفة من جنسه .

وانظر الى قوله تعالى : « ولا تنازعوا ، فتفشلوا ، وتذهب ريحكم .. الآية » (٢٨) .

وقوله تعالى : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها .. الآية » (٢٩) .

وقوله تعالى : « واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال .. الآية » (٣٠) .

ثم ذهب غالب العسكر قاصدين الى حلب ، فمنعهم أهل حلب ، لشدة ما قاسوا منهم حين مجيئهم مع الغورى ، فتشتت شملهم ، وذهبت حميتهم ، وانكسرت شوكتهم بعد تلك القوة والمنعة العظيمة والبأس الشديد .

---

(٢٨) سورة الأنفال ، آية ٤٦ .
(٢٩) سورة الاسراء ، آية ١٦ .
(٣٠) سورة الرعد ، آية ١١ .

وكان سبب سعادة أهل حلب من هذه الوقعة فانهم كانوا أودع عندهم الجراكسة جميع أموالهم وخرجوا على جرائد الخيل فطمعت فيهم أهل حلب ، وصدوهم عن الدخول لأجل ذلك .

وأما خاير بك فانه دخل حلب ، وأخذ سيدى محمد بن الغورى ، وكان أبقاه أبوه على خزانته وأمواله بقلعة حلب ، فأخبره أن شهوار نازل على جيلان (★) بعشرين ألف فارس ، وهو قاصد أخذك ، وأخذ حلب .

فقال سيدى محمد : فما الرأى يا أمير خاير بك ؟

قال : الرأى أن ننادى فى العسكر بالرحيل الى مصر ، ويجتمع اليك ما شئت من المعسكر ، وتكون ملك مصر موضع أبيك ، وأنا مساعد لك فى ذلك .

فصدقه فى ذلك .

ونادى فى حلب بالرحيل الى مصر ، ومن له رغبة فى المسير الى مصر فليتبعنا .

فخرجت الناس على وجوههم ، وتركوا أثقالهم وأموالهم ، واختاروا سلامة الروح ، وكانت مكيدة .

وخرجوا من حلب كالهاربين .

(★) جيلان قوم من أبناء فارس انتقلوا من نواحى اسطخر فنزلوا بطرف من البحرين على الخليج العربى .

وفعل ذلك خاير بك حتى يأخذ حلب للسلطان سليم من غير حرب ٠

وكان الأمر كذلك ٠

فانه أرسل الى السلطان يخبره بما فعل ، وأنك تسير فى هذا الوقت الى حلب ، فانها خالية من العسكر المصرى ، وأما عسكر حلب فمن أطاعنا أبقيناه ٠

فجاء السلطان سليم بموكبه ، ودخل حلب من غير حرب ، وأطاعته الرعايا والعساكر ، فملكها ، وأخذ الأموال التى وجدها ، ونهب الغالب ٠

وتلاشى أمر ابن الغورى ، وما دخل مصر الا فى أسوأ الأحوال ، واذا أراد الله بأمر بلغه ٠

قال الراوى : فلما خرج ابن الغورى من حلب ، قصد دمشق الشام ، فخرجت عليه العربان ، فنهبت أثقاله وأثقال من معه ومن قدروا عليه ، ولولا الأمير آبرك رأس الجلبان والأمير قنبردى الغزالى ، والا كانوا نهبوا جميع العسكر ٠

فان العسكر ماتت قلوبهم وألقى الله تعالى فى قلوبهم الرعب ، فما دخلوا دمشق الا فى أسوأ الأحوال ، فضاقت عليهم دمشق ، وغليت الأسعار ، فأقاموا بها ثمانية عشر يوما ٠

وأراد الأمير قنبردى الغزالى أن يتسلطن ، فقال الأمير أبرك : أولى ما تكون السلطنة أن تكون لابن السلطان ٠ فأجابه الجلبان ، جملة واحدة وبعض من القرانصة : نعم ٠

فلما سمع ذلك الأمير قنبردى الغزالى أيس من السلطنة ، فشرع فى الملاحاة عليهم ، وفى تعكيس أمرهم ، وكلما دبروا آمرا تحصل منه منفعة يسخطهم فيه .

فقام الأمير علان وقال : تخت (٣١) السلطنة بمصر أم الشام ؟

قالوا : بمصر .

قال : فاذهبوا الى مصر ، واجتمعوا بمن بها من الأمراء ، واتفقوا على انسان تختارونه ، وسلطنوه ، فان السلطنة لا تصلح لأحد الا لأشجعنا وأعقلنا . وخصوصا نحن فى أضيق الأحوال ، وعدونا فى طلبنا ، كيف نسلطن علينا ولدا صغيرا ؟ وان كان هو ابن السلطان ، ليس فيه كفاءة وقدرة على السلطنة على هذا الوجه وهذا الحال .

فاستصوبوا رأيه ..

وما قصده الا أن تكون السلطنة له ، فانه كان من الفرسان المجنورة المشهورة ، وكل انسان ما يريد الحظ الأوفر الا لنفسه . فاقتضى رأيهم بالتوجه الى مصر ، وابن الغورى معهم كآحاد الناس ، لا يلتفتون اليه .

وأما القرانصة الرءوس فكل منهم يتمنى آن يكون هو السلطان ، ولا يكون الا ما يريد مولانا سبحانه وتعالى .

ثم خرج العسكر من الشام قاصدين مصر .

---

(٣١) أى حاضرة السلطنة أو عاصمتها .

فقالوا للغزالى : من يحفظ الشام ؟

قال : الأمير ناصر الدين بن الحنش ٠

فأرسل خلفه ، وخلع عليه خلعة تليق بمقامه ، فانه كان من أعيان شيوخ العربان بتلك الديار ٠

وقال له : البلاد بلادك ، تسلم حفظها حتى ننظر الأمر كيف يكون ٠

ثم ذهب الأمير قنبردى الغزالى مع العسكر الى مصر ، وهو كامن لهم الغدر ، لكونهم لم يسلطنوه ، وأضمر على معاكستهم ، ومال بقلبه الى رأى خاير بك فى تحريض السلطان سليم على أخذ مصر ٠

فانه كان قصده الرجوع من حلب الى شاه اسماعيل ، وما قصده آخذ مصر ولكن أطمعه فى آخذ مصر خاير بك والغزالى ٠ فمازال الأمراء والعسكر سائرين الى أن دخلوا مصر ليلا ، وهم فى أسوأ الأحوال ٠

فنزل قنبردى الغزالى فى بيته ، وابن الغورى فى بيت أبيه الذى بناه له فى البندقانيين (★) وهو الذى قدمه الحمزاوى ، وجعله خانا للتجار ، وبقية البيت باقية الى

(★) البندقانيين ، ذكر المقريزى أن البندقانيين كان خطا من أعمر أخطاط القاهرة وأنه كان قديما أحد اصطبلات الخلفاء الفاطميين فلما زالت الدولة الفاطمية إختط وصارت فيه مساكن وسوق تعرف بسوق البندقانيين ، ومن جملته عدة حوانيت لعمل قسى البندق ، ومكانه حاليا بين أجزاء سور الغورية بالقاهرة ٠

الآن ، وهى القاعة العظيمة وما حولها ، وبابها من ناحية سور الغورية (★) ، فسبحان من يغير ولا يتغير ! ٠

وكان الأمير أنس باى حاجب الحجاب فى رأس حدرة البقر عن يمينك وأنت متوجه الى الصليبة (★★) ، وهو يعرف الآن ببيت حمزة الذى مات فى اليمن ٠

وتنمر الزردكاش فى البيت الذى فى ازائه ٠

وبيت الأمير تانى بك النجمى فى حدرة الصليبة عن يسارك وأنت قاصد قلعة الكبش (★★★) ٠

وبيت الأمير أزبك المكحل فى رأس المدابغ (★★★★) عن يسارك ، الذى كان فيه المرحوم عثمان بيك قائم مقام ٠

وبيت قانصوه الفاجر أسفل منه من ناحية باب زويلة (★★★★★) ٠

(★) الغورية مكان معروف بالقاهرة بين باب زويلة وشارع الأزهر ، مشهور بالسوق ٠

(★★) الصليبة مكان بالقاهرة معروف بالقرب من مسجد أحمد بن طولون ٠

(★★★) قلعة الكبش ، الجزء المرتفع القائم شرق مسجد أحمد بن طولون حتى البغالة وهو معروف بمناظره التاريخية الجميلة ، وقد عرف بالكبش من اسم الجبل المبنية فوقه البيوت ٠ وكان بهذا المكان دار الامارة زمن عمال مصر من قبل الخلفاء الأمويين والعباسيين وفى أيامه وفى أيام الفاطميين جعلوا فوقه قصورا سميت بمناظر الكبش ، وقد وصفها المقريزى ٠

(★★★★) المدابغ الجزء الواقع فى جنوب مصر القديمة ، مشهور الآن بمصانع دبغ الجلود ٠

(★★★★★) باب زويلة واحد من أبواب القاهرة القديمة ، وقد بناه أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ٤٨٥ هـ نسبة الى قبيلة زويلة التى جاءت من القيروان مع جوهر ، وقد كانت مئذنتا هذا الباب عظيمتين جدا واكبر مما هما عليه الآن ، وقد هدم اعلاهما الملك المؤيد لما بنى الجامع داخل باب زويلة ٠ وقال المقريزى كان باب زويلة عندما وضع القائد جوهر بابين بجوار المسجد المعروف باسم بسام بن نوح ــ انظر الخطط التوفيقية ، الصحيفة ٥٠ الجزء الثانى ٠

وبيت بخشباى تجاهه ٠

وبيت أبرك رأس الجلبان فى رأس الصليبة من ناحية الكبش ٠

وبيت الأمير طومانباى دوادار كبير على بركة الفيل(★) ٠

وبيت الأمير علاء على بركة الناصرية ، بجوار مدرسة أمير أخور ٠

وبيت قانصوه كرت بالقرب من قناطر السباع ، وأنت قاصد مصر القديمة بجوار مدرسة لاجين (★★) ٠

وبيت ابن السلطان جركس بقرب سيدى عماد الدين ٠

وبيت تقطباى نائب القلعة بقرب حمام بشتك(★★★) الذى فى رأس سويقة العزة من داخل الدرب ، وهو الذى كان ساكنا فيه قايد أغا ناظر الدشيشة ٠

(★) بركة الفيل ، مكان معروف بقسم السيدة زينب بالقاهرة ، من جامع أحمد بن طولون حتى شارع الخليج « بورسعيد » ، وكانت هذه الأرض كلها بساتين ليس بها بناء ، ويشرف على البركة الناظر من أعلى جبل يشكر ، ويرى الناظر منها باب زويلة وباب مصر ومدينة مصر وقلعة الروضة وجزيرة الروضة ومجرى النيل ٠ وكانت بركة الفيل من أجمل متنزهات مصر ٠

(★★) مدرسة لاجين : أنشأها لاجين الفقارى حاكم الغربية ٠ وكان مكانها فى أول شارع محمد على من عند ميدان العتبة ٠ وكان بالقرب من المدرسة سويقة تعرف بسويقة لاجين ٠

(★★★) حمام بشتك ، وقد اندثرت معالمه ، ومكانه بالقرب من مسجد مصطفى باشا فاضل الموجود بدرب الجماميز على قرب من ميدان السيدة زينب بالقاهرة ٠

وبيت أركماس أمير مجلس فى الأزبكية (★) فى بيت يزبك •

وتانى بك الخازندار فى بيت الأمير ماماى الذى هو الآن بيت قاضى العسكر •

وسودون الدوادار فى بيت جانبلاط بالقرب من الخرنفش (★★) ، مقابل مدرسة الباسطية •

وبيت قانصوه أبو سنة فى رأس سويقة (★★★) العزة من ظاهر الدرب •

وبيت خوش كلدى فى التبانة بجوار سويقة البقلى •

واقباى الطويل فى بيت ترابيه •

(★) الأزبكية ، وتنسب الى الأمير ازبك وكان أصله من معاتيق الظاهر جقمق ، وقد صاهره مرتين فى ابنتيه ، وتولى عدة وظائف منها حجوبية الحجاب ورأس نوبة كبير وقد أنشأ عمارة الأزبكية سنة احدى وثمانين ، وكانت الأزبكية بستانا كبيرا غربى الخليج يمتد من أولاد عنان الى قنطرة باب الخرق فى مساحة تبلغ نحو ستين فدانا ، ولما ضاقت مصر بالسكان صارت أرض البستان تحكر شيئا فشيئا ، الى أن كان زمن السلطان قايتباى ، فدخل بال الأتابكى ازبك أن يبنى فيها مناخا يحوى القاعات الجليلة والدور والمقاعد ، وأن يبنى بها مسجدا كبيرا فى غاية الحسن ، ثم أنشأ حول المسجد البناء الكربوع والحمامات والقياسر وما يحتاج اليه من الطواحين والأفران ، ثم سكن ازبك فى تلك القصور حتى مات •

(★★) الخرنفش مكان معروف بالقاهرة ، أوله من عند سبيل القصرين وينتهى عند حارة الشعرانى بقسم الجمالية ، وعلى جانبيه عطف وحارات ، منها حارة برجوان ، خادم الخليفة العزيز بالله ، أبو الفتوح برجوان ، وقد بنى برجوان فى هذا الجزء دارا للضيافة سكنها أمير الجيوش بدر الجمالى حتى قدم مصر وتولى الوزارة بها • وبرجوان هذا هو الذى تكفل بالحاكم بأمر الله بن عبد العزيز لما تولى الخلافة صغيرا وقد لازم الحاكم الى أن قتله •

(★★★) سويقة العزة ، كذا فى الأصل ، وقد ذكرها على مبارك فى الخطط التوفيقية سويقة العزى ، ومكانها بين شارع سوق السلاح وشارع الدرب الأحمر ، وقد عرفت هذه السويقة باسم عز الدين ايبك العزى نقيب الجيش أيام الملك الأشرف خليل بن قلاوون • وهذه السويقة كانت من جملة المقابر التى خارج القاهرة فيما بين الباب الحديد وبركة الفيل وبين الجبل الذى عليه الآن القلعة •

وبيت الأمير قانصوه رجله فى الرميلة (★) ٠

وبيت جانبلاط أبو ترسين فى سويقة صفية ٠

وبيت كرتباى الوالى فى رأس سـويقة العزة ، وأنت قاصد باب زويلة ٠

وكانت مصر بهذه الأمراء كالعروس المجلية ، وكل أمير من هؤلاء كالملك المنفرد بنفسه ، وكل من فى حارته عايش فى رزقه وفى حمايته ٠

فسبحان من لا يحول ولا يزول ، ولا تراه العيون ٠

وبيت قانصوه أصقله بباب الخلق (★★) بالحـدرة ، وأنت قاصد سويقة صفية ، وهو مشهور الى الآن، وكان يأمر السياس بأن يصقلوا جلد الحصان حتى يصير يلمع كالمصقول من الثياب ، فلهذا سمى « أصقله » ٠٠

وكان بيت الأمير سـودون العجمى فى رأس سـويقة السباعين (★★★) على يسار القاصد للسويقة المذكورة ٠

فرحم الله تعالى تلك الأرواح ٠

(★) الرميلة مكانها الأن ميدان صلاح الدين بالقلعة فى القاهرة المعروف بالمنشية ٠

(★★) باب الخلق كذا فى الأصل ، وقد ذكر فى جميع كتب التاريخ القديمة باب الخرق ومكانه الميدان المعروف بميدان أحمد ماهر بالقاهرة (انظر ص ٥٠ الجزء الثالث من الخطط التوفيقية لعلى مبـارك) ٠

(★★★) سويقة السباعين ، مكانها كان ممتدا من درب الخليفة الى شارع الناصرية ، وكان يفصلها عن القاهرة أرض مزارع ، وكان المار من بوابة الناصرية الى جهة الشيخ ريحان يجدها عن يساره ، وقد ذكرها المقريزى فى ترجمة حكر الست مسكر حيث قال ، ان هذا الحكر بسويقة السباعين ، وكان هذا الخط من منشأة المهرانى الى المقس بساتين ثم حكرت ٠

ذكـــر

اجتماع العسكر بالعسكر المقيم بمصر

ونرجع الى اجتماع العسكر بالعسكر المقيم بمصر ، وحكاية ما وقع لهم ، وكيف كسروا قهرا باختلافهم فى بعضهم ، وملاحاتهم على سلطانهم ، فانهم تسببوا فى هلاك سلطانهم وهلاك أنفسهم ، وكل ذلك ثمرة العناد ، كما قال القائل : « ولا تعاند تغلب ولو أنك سلطان » .

ثم اجتمع الأمراء والأعيان فى ثانى يوم بقلعة الجبل ، فاقتضى رأيهم جميعا سلطنة طومانباى (★) ، وبايعوه على السلطنة فى يوم الأحد خامس عشر من شهر رمضان سنة تسعمائة واثنتين وعشرين .

وكان رحمه الله غليظ الجثة ، كبير البطن ، متوسط الطول ، كبير اللحية والوجه ، ورزق من الأولاد الذكور ثلاثة ، ولم يعش له منهم سوى سيدى محمد .

وقد أخبر ولده هذا عن والده أن الغورى عاش من العمر ستا وسبعين سنة ، وقيل ستا وثمانين سنة .

(★) ذكر ابن اياس أن طومانباى أصله من كتابية الأشرف قايتباى ، وقد اشتراه الملك الأشرف قانصوه الغورى وكان يلوذ به بقرابة ، فلما اشتراه قدمه الى الأشرف قايتباى ، ولهذا يدعى طومانباى عن قانصوه فصار من جملة مماليكه الكتابية ، واستمر على ذلك حتى تسلطن الملك الناصر محمد بن قايتباى ، فخرج له خيلا وقماشا وصار من فرج الملك الناصر ومعاتيقه ، ثم بقد خاصكيا ، واستمر على ذلك حتى تسلطن قريبه قانصوه الغورى فانعم عليه بأمرية عشرة ، واستمر على ذلك الى سنة عشرة وتسعمائة ، فلما توفى ابن السلطان المقر الناصرى محمد أنعم عليه السلطان بأمرية طبلخاناة وجعله شادا لشربخاناة عوضا عن ولده بحكم وفاته ، واستمر على ذلك الى سنة ثلاث عشرة وتسعمائة فلما توفى الأمير أزدمر بن على الكبير خلع عليه السلطان وقرره فى الدوادارية الكبرى عوضا عن الأمير أزدمر الى أن خرج السلطان الى التجريدة بسبب ابن عثمان ، فجعله نائب الغيبة عوضا عن نفسه حتى يحضر من السفر ، فسار فى الناس فى غيبة السلطان أحسن سياسة وكانت الناس عنه راضية (انظر بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن اياس . ج ٥ ، ص ١٠٣) .

ولما بايعوا طومانباى على السلطنة أراد أن يقبض على سيدى محمد بن الغورى ويأخذ ما معه من المال ٠

فقام الأمير أبرك رأس الجلبان وقام معه من بقى من الجلبان ، وقال : لا سبيل الى أذى ابن آستاذنا بوجه من الوجوه ، حتى تذهب أرواحنا ٠ يهلك آستاذنا بينكم ، ويغلب قهرا ، وتريدون أن تهلكوا ولده الآخر ، فلا كان ذلك أبدا الا ان هلكنا جميعا ٠

فقالت القرانصة ـ وكان المتكلم منهم الأمير علان والأمير كرتباى الوالى ، فانهم كانوا غرض طومانباى لما يعلمون من دينه وصلاحه وشجاعته وفروسيته ، وليس الخبر كالعيان ـ للجلبان : ما حصل لابن أستاذنا فى عرضنا وفى ذمتنا ، وأنتم تعلمون أن طومانباى رجل صوفى ، فقير من الدنيا وليس معه ما يقدم بنظام السلطنة ، وقصدنا نأخذ من ابن سلطانكم قدر ستين ألفا يدفعها لطومانباى ، يستعين بها على لقاء العدو والقادمين علينا ، وأما ابن أستاذكم فانه ولد صغير ليس فيه كفاية لذلك ٠

فاستحسن الجلبان هذا الكلام ، وخلوا ما كانوا عزموا عليه من القيام على طومانباى ٠

هذا ما كان من أمر الجراكسة ٠

وأما السلطان سليم فانه أقام بحلب نحو العشرين يوما ، وكان مع الغورى خلفاء المشايخ ، مثل خليفة سيدى أحمد البدوى ، وسيدى عبد القادر الجيلانى ، وسيدى ابراهيم الدسوقى وأمثالهم ٠

فلما وقعت الكسرة على الغورى بقيت المشايخ المذكورون بحلب • فلما سمعوا بأن السلطان سليما قادم الى حلب خافوا من سطوته ، فأخذوا فى الذهاب نحو الشام (٣٢) •

فلما رآهم على بعد مع الرايات والأعلام قال : ما هؤلاء ؟

قالوا له : هـؤلاء خلفـاء المشـايخ كانوا جاءوا مع الغورى ، فلما كسر خرجوا يريدون الذهاب الى مصر •

فأمر باحضارهم •

فلما مثلوا بين يديه أمر برمى رقابهم واحـدا بعـد واحد ، ولم يرحم منهم كبيرا لكبره ، ولا صـغيرا لصغره ، فقتلهم عن آخرهم ، فرحمهم الله أجمعين ، وكانوا يزيدون على ألف رجل ، قدر الله عليهم ذلك •

ثم أمر بالتوجه الى الشام (٣٣) •

وكان المشير له بذلك خاير بك •

ولما قدم على الشام (دمشق) أمر باحضار عـلى نائب القلعة ، فشنقه لأجل عدم تقدمه على استقباله ، وشنق غالب جماعته •

وكان السلطان سليم ليس له اقدام عـلى قتل النفس ، لا يفكر فى قتل أحد ، وكان الأمير خاير بك والأمير ناصر الدين بن الحسن شيخ بلاد الدوار هم المساعدون للسـلطان سليم على مراده ليصير لهم عنده يد ، وتصير لهم مزية عـلى سائر أهل البلاد ، ومن كان لهم عنده غرض يبقون عليه •

---

(٣٢) المقصود هنا دمشق •

(٣٣) اى دمشق •

قال الراوى : ثم قوى عزم السلطان سليم على المجىء الى أرض مصر وما حرضه على مصر الا خاير بك ، فانه قصد الرجوع الى بلاده بعد أخذ حلب والشام(٣٤) كما فعل قبله السلطان تيمور بهادر خان ، فانه كان أخذ حلب وبر الشام بجملته وأخرب الشام وحلب مرة واحدة ، وأفسد العباد والبلاد وهتك حرمات الله ، فأخذه الله أخذة رابية ٠

وكان قصده أخذ مصر من يد سلطانها فراح بن قرقوف، فخشى آن يتحول ، فعمل السكة والخطبة فى مصر والحرمين باسمه ، فعاد على عقبه ٠

وكذلك السلطان سليم لما أخذ بر حلب والشام قصد الرجوع الى بلاده ، فأغواه خاير بك وقنبردى الغزالى وناصر الدين بن الحنش على التوجه الى مصر ، وضمن له خاير بك أخذ مصر ، وذلك مكر منه ٠ فانه علم أنه ان رجع السلطان سليم الى أرض الروم لم تبق الجراكسة على خاير بك ، ولو ذهب الى تخوم الأرض ، فما وسعه (٣٥) الا أنه التزم للسلطان سليم بأخذ مصر ان شاء السلطان ٠

فقال له السلطان سليم : وأنى لى بأخذ مصر ، وجميع العسكر اجتمعوا بها ، وقد أخذوا أهبتهم ، وسلطنوا عليهم طومانباى ، وهو مشهور عندهم بالشجاعة والفروسية ، ولابد لهم من أمر يريدونه ، ونخشى التجوين (٣٦) فى بلادهم ، وبعد المسافة بيننا وبين بلادنا ٠

---

(٣٤) المقصود دمشق ٠
(٣٥) فى الاصل (فما ساعه) ٠
(٣٦) المقصود التوغل ٠

فقال خاير بك : ان العسكر الذين رجعوا من بعد الكسرة انقطعوا ، وانقطعت قلوبهم ، لا سيما والخلف (بضم الخاء) واقع بينهم ، فانهم جميعهم مختلفون ، وكل من الأمراء والأعيان قصده هلاك الآخر ، فحيثما كان ذلك فلا تخش من شيء ، وانت منصور بنصر الله لك ، وقرأ قوله تعالى : « ان ينصركم الله فلا غالب لكم » .

فطابت نفس السلطان سليم على التوجه الى مصر ، وأخذها ، ولو فني نصف عسكره .

ذكـــــر

كتابة مرسوم الى السلطان طومانباى

قال : ثم أمر بكتابة مرسوم الى السلطان طومانباى ، ملخصه :

« انى أريد أن تكون السكة والخطبة باسمى ، وأنت نائب عنى ، وأبقيك على ما أنت عليه » .

فلما وصل المرسوم الى طومانباى قرأه ، وفهم معناه ، وطابت نفسه على ذلك ، لكونه فيه حقن لدماء المسلمين . فقدر الله تعالى أن الأمير علان طالع الديوان ، واذا قد لاحت منه التفاتة ، فرأى أولاقية (★) السلطان سليم واقفين تحت الديوان ، والناس ينظرون اليهم ، وقد أشيع الخبر بأن

(★) الاولاقية هم الرسل .

السلطان سليما أرسل ، يطلب أن تكون السكة والخطبة باسمه (★) ٠

فلما رآهم الأمير علان لم يتمالك من نفسه الا أن جذب سيفه وضرب أعناق الأولاقية بيده ، وكانوا ثلاثة أنفار ٠

وطلع الى السلطان طومانباى وهو مملوء من الغيظ وقال له : أصحيح ما قيل ؟

قال : نعم ٠

قال : فما الذى عولت عليه ؟

قال : أوافقه على ما أراد ، وأكون سببا فى حقن دماء المسلمين ، وبقاء كل واحد فى وطنه ، فانى علمت من كلامه أنى اذا لم أجبه يحصل فساد عظيم ، وعلى كل فهو قادم علينا ولا محالة ، وعلمت أن العسكر كلهم مختلفون ، وليس فيهم أحد مع أحد ، وما أظن الا أن الله تعالى أراد زوال ملك آل جركس من هذه الديار ، فما رأيك أنت ؟

قال : رأيى أن نقاتل عن بلادنا وحريمنا وأرزاقنا ، أو نقتل عن آخرنا ٠

قال : ولكم صبر على القتال ؟

قال : هذا أسهل ما يكون ، فانى قاتلتهم فى مرج دابق ، وعرفت حالهم ، فانه ليس عندهم معرفة بالفروسية

(★) السكة ضرب النقود ، والمقصود بالخطبة الدعاء باسمه فى خطبة الجمعة ٠

ولا ركوب الخيل ، وانما غاية ما عندهم الرماة بالبندق والمشاة ، فنحن اذا صادمناهم ندكس عليهم دكسة واحدة ، ندعكهم تحت أرجل الخيل ، ولعل الله تعالى يمكننا منهم ومن سلطانهم ، فنأخذه أسيرا ، ونجعله مثلا ليوم القيامة .

فلما رأى طومانباى عزم الأمير علان على الحرب وانتشر الأمر ، فمنهم من أجاب الى ذلك ، واختار الحرب والطعن والضرب ، ومنهم من اختار الصلح .

فقام عليهم الأمير علان والأمير كرتباى الدالى (٣٧) ، وشنعوا عليهم بالكلام ، وذموهم ، فما ساعهم الا أنهم اتفقوا على الحرب والدفع عن الحريم والأولاد .

وأما السلطان سليم فلما رجع له الخبر بأن أولاقيته قتلوا بمصر أرسل خاير بك .

فلما حضر أمره بالجلوس ، فجلس ، وكان السلطان يحب خاير بك لأنه لا يأتيه الا على مراده ، فان السلطان سليما كانت همته عالية ويحب أن يكون رأس الملوك ، وهو من كان خادما للحرمين الشريفين .

فقال السلطان سليم لخاير بك : ما الرأى عندك ؟

قال : نركب الى مصر ، نأخذها ، ونقطع هذه الطائفة الجراكسة من أرض مصر جملة واحدة ، وأنا ضامن لك هذا الأمر بعناية الله تعالى .

فالتفت السلطان الى يونس باشا ، وقال له : ما تقول ؟

---

(٣٧) الدالى هو الجندى المرتزق ـ الذى يحارب بالأجر لمن يدفع .

فقال : أقول ان السلطان يأخذ من غزة الى الشام(٣٨)، ويترك لهم مصر ، فاننا ان مشينا عليهم وتجونا فى أرضهم وبلادهم ما نأمن على أنفسنا ان حصل لنا كسرة ، لا سيما وعندهم من العربان ما لا يحصى عددا والعرب تركن اليهم أكثر منا ، لأنهم معتادون عليهم ، ومنهم من هو مصاهرهم ، وتندم حيث لا ينفعنا الندم .

فتألم السلطان لهذا الكلام من يونس باشا ، وحقره فى قلبه ، ولكنه أسرها له فى نفسه حتى قتله .

وسيأتى ذكر ذلك فى موضعه ان شاء الله تعالى .

ذكر
خروج السلطان سليم الى مصر

قال : ثم ان السلطان سليما أمر بالرحيل بعد ثلاثة أيام الى أرض مصر .

وأما طومانباى فانه لما رأى الأمراء من الجراكسة معولين على الحرب جمعهم ، وضرب المشورة على من يكون باشا على العسكر ، فاتفق رأيهم على أن يكون قنبردى الغزالى ، وكان ذلك أول عكسهم ، لكونه ملاحيا عليهم فى الباطن .

وكان جملة العسكر الذين خرجوا معه فى هذه التجريدة عشرة آلاف عسكرى ، وعشرة متقدمين من

---

(٣٨) أى دمشق .

الألوف (٣٩) ، وثلاثة من الأمراء والأربعينات ، وثلاثة من الأمراء العشرات (★) ٠

ومن الأمراء المتقدمين من الألوف العشرة المذكورين قنبردى الغزالى نائب اسكندرية ، وقانصوه آبو سنة ، وقانصوه كرت ، وتقطباى نائب القلعة ٠

ومن الأمراء الأربعينات برسباى الشهبى ، وقرقماس ، والأمير مسد ، وجانبردى ، والأمير قايتباى نائب الكرك ٠

ومن العشرات الأمير خوش كلدى وقانصوه استدار صحبه ، والأمير جانم دوادار ، وسيدى محمد بن الغورى ، وأخوه جان بك ، وقرقاس الشريفى ٠

ولم يسافر فى هذه السنة الحج ، لأن السلطان كان مشغولا بالحرب ٠

ثم خرج العسكر فى أول شوال سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة) (★★) فلما وصلوا خان يونس (★★★)

---

(٣٩) الصياغة الصحيحة : من مقدمى الألوف (وهى رتبة عسكرية) ٠

(★) كان عدة الامراء مقدمى الالوف اربعة وعشرين اميرا ، يقوم بخدمة كل واحد مائة مملوك وارباب وظائف ، وهو مقدم على الالف جندى فلاجل ذلك يسمى أمير مائة مقدما على الالف ، ومن مظاهر حياته أن تدق على بابه ثمانية أحمال طبلخاناه وطبلان رصل وزمران وأربعة انفرة مرتين ، وفى الامراء مقدمى الالوف من هو صاحب وظيفة ومن ليس له وظيفة ٠ وأما أمراء الاربعينات فقد كانوا أربعين اميرا ، كل واحد منهم يقوم بخدمته أربعون مملوكا وتدق على بابه ثلاثة أحمال طبلخاناه ونفيران ٠ وأما أمراء العشرينات فكانت عدتهم عشرين أميرا يقوم بخدمة كل واحد منهم عشرون مملوكا ٠ وأمراء العشروات كانوا خمسين أميرا يقوم بخدمة كل واحد منهم عشرة مماليك ٠٠

(★★) أول شوال سنة ٩٢٢ / ٢٨ اكتوبر ١٥١٦ وفى هذا اليوم استولى الاسبانيون على جميع بلاد أسبانيا ٠

(★★★) خان يونس ، بلد بفلسطين ، كان أول محط لنزول الوافدين على مصر من طريق الشام ، وبالقرب منه قبر الشيخ زوين ، وكان من أعراب البوادى الصالحين ، ولأهل خان يونس فيه اعتقاد عظيم ٠

واذا بعسكر السلطان سليم قد أشرف ، فوقف كل من العسكرين ، وأرسل كل منهما فارسا يكشف الخبر ٠

فلما اجتمع الفارسان سأل بعضهما بعضا ٠

فكل منهما أجاب عن قومه ٠

ثم افترقا ورجعا ، وأخبرا بالأمر ٠

فلما تحقق كل من الفريقين الخبر تهيأوا للقتال وترتبوا ترتيب الحرب ، ودكست الجراكسة بالخيل العربية دكسة تهد الجبال، فلاقتهم اليكنجرية برش بندق، خلت(٤٠) الراقد أكثر من الواقف ٠ فدكس الغزالى ، وجاءته الحمية ، وأفحش فى القتل ، فتكاثروا عليه وجذبوه بالكلاليب (٤١) وأخذوه أسيرا ٠

فتعصب له الزعر (★) من الغلمان ، وخلصوه من قلب العدو بعد أن قتلوا من اليكنجرية مقتلة عظيمة ، وخلصوه ٠

وكانت الكسرة على الجراكسة ٠

= وكلمة « خان » لقب متعدد المعانى اختصار « قاغان » أو « خاقان » ، وقد استعملت مرادفة لكلمة ملك أو شاه ، كما تضاف الى أسماء بعض الأماكن مثل خان الخليلى فى القاهرة ، وفى هذه الحال الأخيرة يكون معناها مكانا أو موضعا أو سوقا ، وغالبا ما تطلق عند اضافتها لمكان على الوكالات والفنادق المعدة لاستقبال التجار ودوابهم ... الخ وقد تعنى أماكن العبث واللهو ٠

(٤٠) أى جعلت ٠

(٤١) المشابك ٠

(★) الزعر ، أو الزعارة وهم الرعاع والمقصود العامة وسواد الناس ٠ وهى قريبة المعنى من الحرافيش ، ولا تبعد كثيرا عن الشلاق أو الشلق ٠

وأما جند العسكر الروم فانه كان فرهاد باشا تقدم على عسكر السلطان بقدر بريد (★) ، وكان المساعد له شيخ العرب المسمى باب البربق على الجراكسة ، ولا ضرهم الا البندق • فانه يأخذ الرجل على حين غفلة ، لا يعرف من أين جاءه ، فقاتل الله أول من صنعها ، وقاتل من يرمى بها على من يشهد لله بالوحدانية ، ولرسوله ﷺ بالرسالة •

ونرجع الى سياقة الحديث •

فأما السلطان سليم فلازال سائرا على الراحة حتى دخل قطيا (★★) ، فلم يجد بها أحدا من العسكر مطلقا ، فأقام بها ثلاثة أيام •

فرد عليه أحمد بن بقر (٤٢) شيخ بنى وائل ، ومعه أولاده ، عبد الدايم ، وبيبرس ، والجذامى ، وخاطر •

وكان خاطر أصغرهم •

فخلع عليه وعلى أولاد السلطان سليم خلعا •

وكان أحمد بن بقر (بقار) صاحب طبل خانة (★★★) فى مصر ، وأقره على ما هو عليه من بلاده وأرزاقه ، وكذلك مشايخ العربان •

(★) البريد مسافة تقدر باثنى عشر ميلا •

(★★) قطيا أو قطية مدينة كانت فى شبه جزيرة سيناء تتخذها الجيوش نقطة ارتكاز وتموين •

(٤٢) بقار (بتشديد مع فتح القاف) •

(★★★) طبل خانة ، وتكتب متصلة طبلخاناة هى دار بها من الكوسات التى تدق على باب السلطان أربعون حملا ، وأربع طبل كبيرة ، وأربعة زمور ، وعشرون نفيرا ، ولها رئيس وبها عدة خدام • والمقصود أنه كان ذا شأن •

ثم ان السلطان سليما أمر باحضار خاير بك ووزرائه، وقال : ما تقولون فى حيلة يكون بها تفريق شمل الجراكسة؟

قالوا : وما هى ؟

قال : ائتونى بفلان الكاتب ·

وكان هذا الرجل يكتب بالسبعة أقلام ، ويحاكى جميع الخطوط · فحضر ·

فقال له السلطان : أريد منك أن تكتب كتبا تحاكى فيها خطوطا مختلفة على لسان أمراء مصر ، وابن الغورى ، بانهم معى فى الباطن ، ويحرضونى على المجىء الى مصر ، ويكونون معى ، ويساعدونى على طومانباى ، وعلان ، وكرتباى الوالى ·

فكتب الكاتب على لسان الأمراء المذكورين ، وربط الكتب المذكورة ، وأوصلها لرجل من جماعة خاير بك ، وأمره بالذهاب الى أوطاق طومانباى ، وأن يرميها بالقرب من مجلس السلطان ، ويقف لينظر ما يقع بينهم من الخلف(٤٣) ، ثم يرجع ليخبر السلطان سليما · ففعل ذلك ·

فرأى المكاتيب بعض مماليك طومانباى فأخذها ، وأوصلها الى أستاذه ·

فأخذها ، وقرأها ·

وجمع الأمراء ، وأخبرهم بذلك ·

---

(٤٣) بضم الخاء وتسكين اللام . أى الاختلاف ·

فأنكروا كلهم ذلك ، وحلفوا الأيمان المعظمة أن هذا لم يصدر منهم . فتحير طومانباى فى أمره .

وافتتن العسكر ، وكادوا أن يقتل بعضهم بعضا .

فقال لهم طومانباى : ربما تكون هذه مكيدة من الأعادى ، كادونا بها ليفتنونا ، ولكن الله تعالى يقابل كلا منا بما يستحق ، ولكن كونوا على أهبتكم للقاء عدوكم .

فلما كان يوم الثلاثاء آخر شهر ذى الحجة الحرام جاءت الأخبار بأن السلطان سليما دخل الخانقاه (★) .

ونادى السلطان طومانباى فى عسكره : كل من جاء برأس رومى له ما يريد من كل شيء .

فصارت فرسان الجراكسة تشن الغارة على عسكر السلطان سليم ، وكل من استطرفوا (٤٤) به أخذوا رأسه ، وجاءوا بها الى طومانباى ، فصار يجزل عطاياهم .

فساء ذلك قنبردى الغزالى .

فلما دخل الليل دخل خيمته ، وكتب كتابا ، وختمه ، وذكر فيه جميع ما فعله طومانباى ، وأنه أخرج المدافع الكبار التى أودعوها فى الجبل هناك ، وجعل آلات الحرب

(★) الخانقاه كلمة فارسية معناها بيت العبادة ، وأول خانقاه بمصر أنشئت فى زمن صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة تسع وخمسين وستمائة برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ، وقد وقف عليها عدة أملاك يصرف عليها من ريعها .. ثم ضعف حال الخانقاه واستبدل بها التكايا مجال اقامة الدراويش . وقد كانوا كلهم من الأعاجم .

(٤٤) استطرفوا به أى وجدوه متطرفا أى بعيدا عن مجموعته أو كتيبته .

فى الريدانية ، وقد أشرت عليهم بدفنها فى الرمل ، لئلا ينظرها أحد من الجواسيس فيخبركم بذلك ".

فقبلوا منى ذلك بعد جهد عظيم منى ، خشيت على عسكر السلطان من هذا البلاء العظيم ، والصواب أن السلطان يدور ويأتى من جانب الجبل فيصيرون اذا رموا لا يفيد رميهم شيئا .

وأرسل الكتاب الى خاير بك .

فأوصله الى السلطان سليم .

فسر بذلك ، وأجزل عطاء القاصد به .

ورد الجواب .

ورجع فى جوف الليل الى سيده الغزالى ، ولكل شىء آفة من جنسه .

ففى صبيحة ذلك اليوم ، آمر السلطان سليم بالرحيل الى ملاقاة طومانباى .

وأما السلطان طومانباى فانه اتفق مع الأمير علان والأمير كرتباى الوالى ، أن يتفرق بعضهم عن بعض، ويحمى بعضهم بعضا ، وقد علموا أن الغزالى ملاحى عليهم ، وتحققوا ذلك ، وقصدوا قتله ولكنهم خشوا ان قتلوه أن يفتتن العسكر ، ولكن توكلوا على الله ، وأخلصوا نياتهم .

واتفق آنهم يقصدون سنجق السلطان سليم فلا يرجعون الا أن يقتلوه أو يقتلوا .

فلما أصبح الصباح ما طلعت الشمس الا وعسكر السلطان سليم منسكب ناحية الجبل كالجراد المنتشر من وراء ظهر عسكر طومانباى ٠

فارتجوا لما رأوا ذلك ، وأيقن طومانباى بأن عسكره ملاح عليه ، وأن اشارتهم عليه بدفن المدافع مكيدة منهم له ، ولم ير له حيلة يحتال بها ٠

فلم يسعه الا التسليم لله تعالى فيما حل به ، لم يرم شيئا من تلك المدافع مطلقا ، الا أن رجلا واحدا ، وكان آخر من رمى مدفعا ، يسمى مجنونه ، رماه ، وهرب ٠

ففتح فى عسكر السلطان سليم زقاقا ٠

فارتج العسكر الرومى ، وظنوا أن خاير بك والغزالى مكروا بهم ٠

فأرسل السلطان سليم خلف خاير بك ، وكان قريبا منه ، فقال :

ــ ما هذا الذى ذكرته فى ردم مدافعهم بالرمل ٠ فما هذا الحال ؟

ورأى منه الغضب ٠

فقال خاير بك : مهلا على ٠

وأرسل جاسوسا ، يكشف الأمر ٠

فغاب ، ورجع مسرعا ٠

وقال : رأيت المدافع كلها مردومة بالرمل ، وانما هذا رجل أخرس لم يردم مدفعه بالرمل ، وأبقاه مكشوفا ، وقال ، انه ضامن لذلك ، فرمى به ، وهرب ٠

فاطمأن السلطان سليم ٠

وأما السلطان طومانباى ، فلم ينظر الى شىء ، وانما قصد سنجق السلطان سليم هو والأمير علاء وكرتباى الوالى٠

فما زالوا فى مشوارهم وهم يطعنون بالقنطاريات حتى غاصوا فى جميع عسكر الروم بجملتها ، فلله درهم من فرسان ، لكونهم لقوا هذا الجيش الظليم بنفوسهم !

وليس الخبر كالعيان ٠

فمازالوا يضربون ويطعنون حتى وصلوا سنجق السلطان ٠

فظن السلطان طومانباى أن الذى تحت السنجق السلطان سليم ٠

فقال له يا سليم : أنت غير صالح ٠

وجذبه من على سرجه بيده اليسرى ، ورفعه بأعلى رأسه ، وخبطه على الأرض ، فطبق أضلاعه بين جنبيه ٠

وضربه الأمير علان من على يساره فأزال رأسه ٠

وكان معه محمود بن رمضان صاحب أضنة (٥٤) ٠

---

(٤٥) وتكتب أيضا أطنه (بالطاء) وأدنه Adana وتقع جنوب الأناضول شمال غرب خليج اسكندرونه ـ محمد فريد ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٨٢ ٠ تعليق احسان عباس ٠

وكذلك فعل الأمير كرتباى الوالى بالأمير على بن شهوار .

فلما فعلوا ذلك قوى قلبهم ، واشتفى غليلهم ، وبقيت الروم باهتة بأعينهم كأنهم قطيع غنم بلا راع . فأعقب الفرحة ترحة ، وظهر أن الذى قتله طومانباى انما هو الوزير الذى يسمى سنان باشا .

وسبب ذلك أن السلطان سليما وخاير بك وفرهاد باشا ويونس باشا التفوا من طرف العسكر ومر عليهم طومانباى عند رجوعه وصحبته علان وكرتباى وهم ينظرون اليهم ، فلم يقدر واحد منهم أن يتعرض له ، ولا يقربه ، مع أنهم لو علموا أنهم هم ما برحوا حتى أخذوهم ، ولكن الحى ما له قاتل .

فرجع طومانباى من حملته تلك فلم ير أحدا من عسكره ، فاذا به منكسر والعدو فى اثره ، فكشف عنه هو والأميران المذكوران ، وردوا الروم عنهم .

واذا ببندقية جاءت للأمير علان فى قصبة رجله ، فكسرتها ودخلت فى جنب الحصان ، فقتلته لوقته ، فوقع من ساعته ، الا أن الأمير علان حمل نفسه ، وهم عن الفرس قبل أن تصل الأرض ، وجاءوا له بجنيب (★) فركبه ، وقد أيس من الحياة .

فرد السلطان طومانباى ، ولوى عنان فرسه الى قناطر بنى وائل .

(★) الجنيب هو الفرس الذى يسير دون راكب الى جنب فرس آخر مركوب - فاذا نشر المركوب تحول الراكب الى المجنوب .

فلما عاين طومانباى ذلك آيس من الحرب ، ولم يبق معه أحد الا كرتباى الوالى فقصد نحو القلعة وطلعوا من خلفها . فمازالوا حتى نزلوا بركة الحبش ، وتمادوا الى طرا (★) .

وأما الأمير علان فانه مازال سائرا حتى وصل المنيل (★★) وعدى لبر المنوفية ، وذهب الى فلاحة ابن بغداد الأمير حسام الدين ، فلاقاه أحسن ملتقى ، ورحب به ، وأرسل فجاء له بالمجبر ، وبقى عنده نحو اليومين ، فرأى من عينه الغدر ، وانه يريد أن يقبض عليه ، ويرسله الى عدوه .

فلما تحقق ذلك تأسف على نفسه ، وأمر بأن يشد له الحصان لأجل أن يشم الهواء ..

فظنوا أنه لم يفطن بهم ، فركبوه .

فلما ركب جواده طلب سيفه وترسه وقنطاريته .

فلم يقدر أحد أن يتعرض له ولا يقربه ، مع أنه لو علم أنهم كذا ما كان يقرب اليهم .

ولما ركب على حصانه التفت الى الأمير حسام الدين وقال له : ستنظرون أرواحكم بعدنا يا خونة ، الله يخون الخائن . ولوى عنان جواده ، فلم يتبعه أحد ، وكلما لاقته سرية عرب يقول لهم : أنا علان .

(★) طرا هى بلدة طرة الواقعة على خط سكة حديد حلوان جنوبى القاهرة ، وقد أصبح لها الآن شان عظيم حيث يوجد بها مصنع لاستخراج الأسمنت من محاجر جبل المقطم الذى يشرف عليها من الشرق .

(★★) المنيل ، ويعنى به الجزء المعروف الآن بالمنيل والجزء المعروف بالروضة .

فلم يقدر أحد أن يقربه ٠

فمازال حتى عدى بر الجيزة ، وقصد نحو الصعيد ، فمازال حتى دخل بلدا فى اقليم البهنسا (★) يقال لها نويرة ٠

فنزل عن فرسه ، واستقبل القبلة ، فمات ، رحمة الله عليه ٠

فصلى عليه أهل البلد ودفنوه فى زاوية هناك ٠

وأما السلطان طومانباى ، فانه لما رجع من الحرب لم يجد أحدا من عسكره الا وقد ولى منهزما من كثرة البندق والضرب بالزانات ، فلم يستطع أحد أن يقف أمام ذلك ٠

فطلع من وراء القلعة ، وقصد ناحية طرا والعدوية ، وتبعه بعض العسكر يقفون أثره ، سرية بعد سرية الى أن سار معه سبعة آلاف فارس ، الأعيان منهم ، الأمير قانصوه كرت ، وقانصوه رجله ، وقانصوه الفاجر ، وأنس باى صاحب الحجاب، وبخشباى أمير مجلس ، وشار بك الأعور ، والأمير قانصوه العادلى كاشف المنوفية ، وآزبك المكحل ، وثانى بك النجمى ، والباقى مماليكهم وأتباعهم ٠

وأما الأمير جانبلاط فانه قد تجون(٤٦) فى قلب العدو، وما بقى يقدر على الهرب ، فلما آيس من نفسه صار يقاتل

(★) البهنسا ، بلد من أعمال مركز مغاغة بمحافظة المنيا على الشاطىء الغربى من بحر يوسف ، وهى من البلاد القديمة ذات الشهرة العظيمة فى تاريخ الفتوح الاسلامية وكانت قاعدة اقليم ، لها اربعة ابواب الى الجهات الأربع ٠

(٤٦) اى توغل ٠

الى وراء ! فمازال كذلك حتى وصل الى قبة الهواء ، فبطل جواده ، فنزل عنه ، وصار يقاتل راجلا ـ يعنى ماشيا ٠

فلما رأته الروم ترجل طمعوا فيه ، وقالوا : هذا رجل ونحن رجال ٠

فانطبقوا عليه كالجراد ، فصادفته ضربة زان فوقع الى الأرض ، ووقعوا عليه بالسيوف حتى صار لا يعلم له رأس من رجل ، وكذلك الأمير قانصوه رجله فى الرملية ٠ وما بقى من عسكر الجراكسة ، منهم من قتل بالبندق ، ومنهم من هرب ، ومنهم من تبع السلطان طومانباى ، وباتت مصر ليس فيها جركسى الا ان كان مخفيا ٠

فعند ذلك دخل خاير بك على السلطان سليم ، وأخبره بما وقع ، وانه أمر بارسال صوباشى (★) ، فملك القلعة وليس فيها أحد غيره ، والرأى لما يراه مولانا السلطان ٠

فشكره السلطان على ما فعله من تمليكه ملك مصر الذى ماتت بحسرته الملوك ٠

فقال السلطان : صف لى مصر كأنى أنظر اليها ٠

فوصفها له من أولها الى آخرها ٠

فاختار النزول على شاطىء النيل فى الجزيرة الوسطانية ٠

(★) سوباشى ، وظيفة عسكرية فى الجيش التركى ، وكان راتب النفر منها ثلاثين دينارا شهريا بينما راتب الانكشارية خمسة عشر دينارا ، والكمولية عشرة ٠

وانما طلع الى القلعة ساعة ، وجلس على المصطبة التى تجاه الديوان ، ثم نزل على الفور خيفة على نفسه من الغدر من أحد من الأعادى ، وبات فى الجزيرة ·

ثم انه شرع فى ارسال العسكر الى طـومانباى ، فلـم يجدوا بمصر جركسيا ، وباتت مصر ليس فيها منهم أحد ·

وأما طومانباى فانه سار بمماليكه الى طرا والعدوية ، وتبعته العساكر الجراكسة حتى بقى معه سبعة آلاف خيال ، فاقتضى رأيهم بالرجوع الى مصر ، وأن يحاربوا عدوهم حتى يفنوا عن آخرهم ·

فرجع طومانباى ونزل فى الشيخونية (★) ، وتفرقت العساكر فى الحارات ، فقتلوا من الروم نحو العشرة آلاف أو أكثر فى ليلة واحدة ثم أصبحوا ، فجاءتهم عساكر الروم من جهة الكبش ، ومن جهـة حدرة الحنة (★★) ، فاقتتلوا مرات عديدة ، وظهرت الجراكسة على الأروام ، وقتلوا منهم نحـو خمسـة عشر ألفا فى ثلاثة أيام ، وفى كل مرة يرجع الروم منهزمين ·

(★) الشيخونية تطلق على المنطقة الموجودة بشارع الصليبة حول مسجد شيخون الى ما تحت القلعة ، وكانت هذه الجهة من جملة قطائع ابن طولون وكانت مسـاكن فاشتراها شيخون سيف الدين الناصرى رأس نوبة الأمراء فى سنة ست وخمسين وسبعمائة ، وقد ذكر ابن اياس فى حوادث سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة أن السلطان طومانباى كان ينزل بجامع شيخون أمام محاربته للسلطان سليم ، فلما علم بذلك أرسل عساكره فانتشرت فى الصليبة وأحرقت الجامع فاحترق سقف الأيوان الكبير والقبة التى كانت به ، وأحضروا خطيب الجامع الشرقى يحيى بن العداس بين يدى السلطان فهم بضرب عنقه ، ثم تشفع فيه ، وخلص من القتل ·

(★★) حدرة الحنة ، كذا فى الأصل · وقد جاء ذكره فى خطط المقريزى حدرة الحناء ، وهو شارع يبتدىء من آخر شارع الصليبة الى مسجد الجاولى بأول شارع مارسينا بقسم السيدة زينب حاليا · وهو بوسطه شارع قلعة الكبش ·

فعند ذلك اقتضى رأى السلطان سليم أن يركب هو نفسه ويأتى من جانب القرافة (★) ، ويلقى طومانباى فى الرملية ، فاما له واما عليه ، ونوى ان وقعت الكسرة عليه يرجع سائرا الى بلاد الروم .

فلما فعل ذلك وجاء الى الرملية أطبق الجو من ضرب البندق والضرب بالزانات .

فلما سمع الجراكسة ذلك بعدوا ، بعد أن كانوا غالبين مستبشرين بالنصر ، وهرب غالب عسكرهم ، وقالوا : من يقابل هذه النار المهلكة .

وأما طومانباى فانه لم يهرب، وحطم عليهم حطمة(٤٧) الأسد الغضبان ، وقتل فيهم قتلا حتى كل ساعده ، ولكن ماذا يفعل الواحد فى مائتى ألف وأكثر .

ثم رجع ، فلم ير خلفه أحدا من عسكره ، فمازال طالبا نحو الشيخونية ، فلم ير أحدا .

وكان قد تواعد مع عسكره أنهم ان حصل لهم هزيمة يكون موعدهم الجيزة .

فتوجه اليها هو وبقية مماليكه وبعض العساكر حتى صاروا نحو الألفين .

وأما السلطان سليم فانه رجع منصورا الى الجزيرة الوسطانية وأرسل الى خاير بك ، فقال له :

ـ ما الرأى عندك ؟

(★) القرافة : المقابر الموجودة حول مسجد الامام الشافعى بالقاهرة .
(٤٧) المقصود حط عليهم حطة .

قال له : ما بقى لهم بعد هذه الصدمة رأس تقام أبدا، قد هرب غالب العسكر ولم يتبعوا طومانباى ، فالرأى عندك تنادى لهم بالأمان ، وبعد ثلاثة أيام كل من وجد عنده جركسى مخبى شنق على باب داره ، وكل من كان عنده واحد منهم ، وأخبر السلطان به وقبض عليه فعليه الأمان هو ومن يلوذ به ٠

فبقيت أولاد مصر كل من كان عنده جركسى يأتى الى خاير بك ويخبره بما عنده فيرسل له جماعة يقبضون عليه ، ويأتى به الى أوطاق السلطان سليم ، فيضربون عنقه ويرمونه فى البحر ٠

فمن جملة من كان مختبئا الأمير كرتباى الوالى ، فانه جاءته بندقية فى فخذه فأضرته ، فما ساعه الا وهرب فاختفى عند رجل من أصحابه من المباشرين يسمى ، يحيى بن بكر ، فلما سمع بالنداء قال فى نفسه ، أحسن ما يكون وأفعل أن أذهب الى أوطاق السلطان سليم، وأخبره بأن كرتباى الوالى مخبى عنده ، وأن يرسل له منديل الأمان وأقابله به ٠ وأكتفى شره ، وتصير لى يد عند السلطان ٠

فجاء الى أوطاق السلطان سليم واجتمع به مع خاير بك، ففرح السلطان بذلك ، وأوعده بأن يعطى له أى منصب شاء ، وأرسل معه منديل الأمان والمصحف وكتب له كتابا ، ان جاءه وقابله لا يفعل فيه شيئا وعليه الأمان ، ولا يرى منه الا ما يسره ٠

فرجع ابن بكر الى كرتباى الوالى وبشره بالفرج ، وانه اجتمع مع السلطان سليم وأعطاه منديل الأمان ، وها هو ،

وحسن له عبارة فى المقابلة ، وأنه يصير آمنا على نفسه وماله وعياله .

فدخلت رأسه الجراب(٤٨) وأجاب الى المقابلة ، وقام من ساعته وركب معه الى أوطاق السلطان سليم .

فلما رآه خاير بك فرح به فرحا يورث ترحا وقال له :

ـ يا أمير كرتباى ، أين عقلك ، تتبع هذا المجنون المخاطر بنفسه ؟ يشير الى طومانباى ـ فسوف ترى كيف نأتى به ذليلا حقيرا ، ولكن حيث جئت طائعا مختارا فما بقى عليك خوف بعد اليوم .

ثم دخل خاير بك على السلطان ، وأخبره بمجىء كرتباى الوالى .

فخرج السلطان الى ظاهر الخيمة ، وجلس على كرسى نصب له ، ونظر الى كرتباى الوالى ، وقال له :

ـ أنت كرتباى ؟

قال : نعم .

قال : أين فروسيتك ؟ وأين شجاعتك ؟

قال : باقية على حالها .

قال : أتذكر ما فعلته مع عسكرى .

قال : اعرفه ولا نسيت منه شيئا .

قال : ما فعلت بعلى بن شهوار ؟

---

(٤٨) تعبير يقابل العبارة العامية (وقع فى الخية) ، أى انطلت عليه الحيلة .

قال : « قتلته مع جملة من قتلتهم من عسكرك » بعد أن عرف من عين السلطان الغدر وأنه يقتله ، ولا بقى له منه خلاص ، فترك الأدب وتكلم كلام من أيس من الحياة وجعل عينه في عين السلطان ، ورفع يده اليمنى فى وجه السلطان ، وقال له :

ـ اسمع كلامى ، وأصغ اليه حتى تعلم أنت وغيرك أن منا فرسان المنايا والموت الأحمر ، ولو يلى واحد منا بعسكرك بنفسه وحده ، واذا لم تصدق فجرب ، فأمر عسكرك أن يتركوا ضرب البندق فقط ، وهأنت معك مائتا ألف من جميع الأجناس ، وقف مكانك ، وصف عسكرك ، ويخرج لك منا ثلاثة أنفار ، أنا عبد الله ، والفارس الكرار السلطان طومانباى ، والأمير علان ، وانظر بعينك كيف تفعل هذه الثلاثة ، تبقى تعرف روحك ، ان كنت ملكا ، أو يصلح لك أن تكون ملكا ، فان الملك لا يصلح الا لمن يكون من الأبطال المجنورة كما كان عليه السلف الصالح ، رضى الله عنهم ، فانظر فى التواريخ ، ما كان من الامام عمر بن الخطاب ـ رضى الله تعالى عنه وخذل باغضيه ـ من الشجاعة ، وكذلك الامام على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه وكرم الله وجهه ـ وأما أنت فقد لفقت لك عساكر من أطراف الدنيا من نصارى ومن أروام ، ومن غيرهما ، وجئت بهذه الحيلة التى تحيلت بها الافرنج ، لما أن عجزوا عن ملاقاة العساكر الاسلامية .

وهذه هى البندق التى لو رمت بها امرأة لمنعت بها كذا وكذا انسانا ، ونحن لو اخترنا الرمى بها ما سبقتنا اليه ، ولكن نحن قوم لا نترك سنة نبينا محمد ، ويا ويلك كيف

ترمى بالنار من يشهد لله بالوحدانية ولمحمد ﷺ بالرسالة .

وقد جاء بهذه البندقية رجل مغربى للسلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى - رحمه الله تعالى وقتل قاتله - وأخبره أن هذه البندقية ظهرت من بلاد البندق ، وقد استعملها جميع عساكر الروم والعرب ، وهى هذه .

فأمره أن يعلمها لبعض مماليكه .

ففعل .

وجىء بهم ، فرموا بحضرته ، فساءه ذلك .

وقال للمغربى : نحن لا نترك سنة نبينا ونتبع سنة النصارى ، وقد قال مولانا سبحانه وتعالى : « ان ينصركم الله فلا غالب لكم » (٤٩) .

فرجع ذلك المغربى وهو يقول : من عاش ينظر هذا الملك وهو يؤخذ بهذه البندقية .

وقد كان كذلك، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

فقال له السلطان سليم : حيث كانت فيكم الشجاعة والشجعان والفرسان وأنتم على الكتاب والسنة كما زعمت فبأى سبب غلبناكم ، ومن أرضكم أخرجناكم ، واستعبدنا أولادكم ، وأفنينا جموعكم ؟ .. وهأنت حضرت أسيرا بين يدينا ؟

---

(٤٩) لم يستخدم المماليك البندقية لصعوبة استخدامها من فوق ظهر حصان ، وكانت الفروسية هى محور المهارة المملوكية ، فالمسالة اذن فى طبيعة الاجتماع المملوكى ولا علاقة لها بسنة الرسول ﷺ . انظر الدراسة الثانية .

فقال الأمير كرتباى : والله ما أخذتم أرضنا بقوتكم ولا بفروسيتكم ، وانما ذلك أمر قضاه الله تعالى وقدره فى الأزل ، وقد جعل الله لكل شىء بداية ، ولكل بداية نهاية ، ولكل دولة مدة معلومة وقسمة مقسومة ، وقد جرت عادة الله سبحانه فى خلقه بذلك ، أين الأئمة المجتهدون ، أين الملوك والسلاطين ؟ وانت أيضا لابد أن تموت ، ويحترم هذا النظام • وما أظنك الا من الذين قال الله تعالى فى حقهم : « ••• سنستدرجهم من حيث لا يعلمون • وأملى لهم ، ان كيدى متين » (٥٠) •

كيف بك اذا وقفت بين يدى الله رب العالمين ؟

فانفحم منه السلطان ، ولكنه أظهر الحلم وفؤاده يتوقد من شدة الغيظ لما أغلظ عليه كرتباى ، وأقام عليه الحجج المسكتة التى ليس لها جواب •

ثم قال له : وأما قولك انك أخذتنى أسيرا فانه كلام باطل ، وانما جاءنى رسولك بكتابك مختوما بختمك ، وها هو ، فظننت أنك تقف على قولك ، فما رأيت من ذلك شيئا ، وما ورد من هذا المعنى : « المؤمنون عند أقوالهم » وأيضا « المؤمن ان قال صدق ، وان قيل صدق » وقال مولانا عز من قائل : « وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها » (٥١) •

فازداد السلطان سليم غيظا ، ولكنه أظهر الحلم •

---

(٥٠) سورة القلم ، الايتان ٤٤ ، ٤٥ •
(٥١) سورة النحل ، الآية ٩١ •

وأما خاير بك فقد طأطأ رأسه ، وصار العرق يقطر من وجهه .

وبقية الوزراء واقفين حولهم ينظرون ويسمعون الكلام ولا يقدرون على شيء .

ومما ورد فى الحديث الشريف أن أربع خصال من كن فيه فهو منافق : من اذا اؤتمن غدر ، وان عومل نكر ، واذا خوصم فجر ، واذا قوطع هجر (٥٢) وأنت تزعم أنك تريد أن تكون خادما للحرمين الشريفين، وأنك من أهل العدل والانصاف ، فما رأينا شيئا من ذلك ، وانما رأيناك من أهل الجور والاعتساف ، يا ويحك ، كيف تنادى للناس بالأمان، واذا جاءوك تخوفهم ، ولكن كفاك أن اسمك سليم خان ، والله قد رأينا فى التواريخ ، أن الملوك التى كانت قبلنا من الأتراك والاكراد ــ رحمهم الله تعالى ــ كان النصارى اذا قالوا لهم قولا وحلفوا لهم عليه ، أو قالوا للنصارى قولا وعاهدوهم عليه لا يخلفوهم فيه وهم نصارى ، فكيف بمن يدعى أنه من الملوك العادلة ، ويريد أن يكون خادما للحرمين الشريفين ، وهو لا يصدق فى قوله ، والكذب شيمة المنافقين، فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، فلا يغرنك ما أنت فيه ، وما أصبحت دولتك فيه من الاقبال ، فانه لابد لكل اقبال من ادبار ، ولكل جمع من تفريق ، ولكل أجل من انصرام ، ولكل توفيق من اختلاف ، ولكل فرح من ترح ، وقد كنا أقوى منكم وأشد بأسا ، وأعظم مراسا .

وانظر كيف فعلت بنا هذه الدنيا الغدارة المكارة ، وبعد ما حصل لنا ذلك آنا بينكم واحد بمفردى ، اؤمر

---

(٥٢) أورد الحديث بالمعنى وليس بنصه .

عسكرك أن يضربوا على يزك (٥٣) ، ويسيروا الى مائة بمائة ، أو مائتين بمائتين ، أو ألف بألف ، وانظر ما أصنع فيهم ٠

كل ذلك والسلطان سليم ساكت يسمع قول كرتباى ، وجراءته فى هذا الكلام ، واستحضاره هذه الأجوبة مع أنه متحقق الهلاك ولا محالة ٠

ثم قال : بأى سبب تذمنا فى قولك وتزدرينا وتسبنا ، والله لا يهمنا كثرة جموعكم ولا رميكم ببندقكم وأحجاركم ، وانما كان السبب لزوالنا خلف حصل بينا ٠

فنظر السلطان الى خاير بك ، وأشار اليه بأن يقرب منه حتى يشاوره فى أمر كرتباى الوالى ٠

فلما وقف قدام الكرسى قال له : ما تقول فى هذا الرجل وجوابه وقوة قلبه ، ان قتل مثل هذا لا يليق ، وأفتخر بمثل هذا فى عسكرى ، وأجعله سنجقا (★) ٠

فاصفر لون خاير بك وقال : يا مولاى ، ان أبقيت عليه وجعلته وزيرا لا يبقى عليك هذا المعاند الباطل والكلب الجاهل ، ويفسد جميع عسكرك ٠

وما قال ذلك خاير بك الا بغضا فيه وفى آبناء جنسه ٠

---

(٥٣) اليزك ـ بفتح الزاى هو رئيس العسس ، ولكن المعنى لايستقيم بذلك ٠

(★) السنجق أو الصنجق والسنجاق مفرد الصناجق ، كلمة تركية معناها العلم أو اللواء ، أو تطلق على القسم من الولاية الكبيرة ، ولا يزال مرادفها فى العربية ـ وهو اللواء ـ يطلق على المعنى نفسه فى بعض البلاد العربية ٠ والصنجق أيضا هو الحاكم على هذا الجزء من الولاية ، وقد تكون الصنجقية مجرد رتبة دون أن يكون حاملها حاكما للصنجقية ، وكان على الصناجق « مال ميرى » يؤدونه للحكومة نظير وظائفهم ٠

فقال له السلطان : فما الرأى ؟

قال : اضرب عنقه بلا تأخير ·

وتأخر خاير بك ، ووقف مكانه ولونه مصفر متغير ·

فعرف الأمير كرتباى أنه حسن له قتله ·

فقال الأمير كرتباى للسلطان : ان هذا قائدك الى جهنم، اصنع ما شئت ، من لم يمت بالسيف مات بغيره ·

فعند ذلك نظر السلطان اليه نظرة الغضب ، وقال له :

ـ انى أردت أن أعتقك وأفرج عنك ، وأجعلك أميرا من أمرائى ، فرأيتك قليل الأدب ، جرىء اللسان ، والذى يدخل على مجالس السلاطين بلا قيمة يخرج بلا قيمة ·

فقال له كرتباى الوالى : معاذ الله أن أكون من أمرائك ومن أتباعك ، وأنت بهذه الصفة ·

فنادى السلطان بأعلى صوته وقد احمر وجهه من شدة الغيظ ، وقال : أين الجلاد ؟

فتقدم نحوه مائة وخمسون جلادا ·

قال : اضربوا عنق هذا الملعون الجركسى ·

فقال كرتباى : قطع رأسى وحدى لا يفيدك منه شىء ، فان ورائى أبطالا وشجعانا ، وكفى بالسلطان طومانباى ـ نصره الله ·

فلما سمع السلطان بذلك أمر بالسياف أن يضرب عنقه .

فقال له والسيف فوق رأسه : اذا قطعت رأسى خذها وهى بدمها بيدك واجعلها فى ... امرأتك (★) يا خائن، يخونك الله .

فضربه السياف ، فطير رأسه قدامه ، وذهب الى حاله .

وأما السلطان طومانباى ، فانه لما وقعت الكسرة على الجراكسة كان وعدهم قبل ذلك وقالوا : ان جاءت الكسرة علينا يكون ميعادنا بر الجيزة . فلما كان كذلك عدى الى بر الجيزة وتبعه بعض الجراكسة حتى صار معه ألفا خيال ، فيهم كل فارس يقوم بألف فارس ، الا أن الكثرة غلبت الشجاعة ، والنار لا يقابلها أحد ، ولولا النار التى مع السلطان سليم ما غلبهم فى الحرب ولا مرة ، ولكن اذا أراد الله بأمر بلغه ، ولله فى هذه ارادة .

فذهب السلطان طومانباى الى نحو الصعيد ، وقصد هوارة (٥٤) ، وطلب منهم النصرة ، وأن يرفع عنهم الخراج ثلاث سنوات . فأبوا .

وقالوا : قد بلغنا أن الروم تقاتل بالنار ، ومن يطيق النار ؟

(★) مكانه فى الأصل اللفظ العامى لعضو التناسل عند المرأة ، والحديث بهذا العضو ، وغير ذلك من الأعضاء من أهم خصائص الاجتماع الملوكى ـ طبيعة الحديث فى مجتمع العزاب العبيد .

(٥٤) قبيلة هوارة أى الهواوير العربية .

فانثنى راجعا وتبعه من العربان نحو سبعة آلاف فارس محبة فيه ، فانه كان ، رحمة الله عليه ، محبوب الصورة لكل أحد ، ولكن اذا تم الأمر ترقب زواله اذا قيل تم ٠

فلم يزل قادما حتى وصل الى قرب أطفيح (★) فرأى قلوعا بكثرة وهى مقلعة ٠

فلما عاينها وقف ، وقال : ما أظن الا أن السلطان سليما جاءنا أو أرسل لنا جيشا ٠

قال : فلما عاينوا بعضهم بعضا دخلت المراكب البر ، وطلع منهم من الرماة نحو خمسة آلاف رام بالبندق والضربزانات ، ومن المدافع خمسون ٠

وكان القيم على ذلك رجلا يسمى جانم السيفى كاشف الفيوم ، فانه جاء مع السلطان طومانباى بعد كسرة الريدانية ، واجتمعوا عند طرا والعدوية ، واتفق رأيهم بأن يكبسوا على السلطان سليم بالجزيرة الوسطانية التى بين بولاق وقصر ابن العينى ٠

فلما علم ذلك جانم قال فى نفسه : أحق أن أفعل ، أن أذهب الى السلطان سليم خان وأخبره بذلك ، وآخذ لى منه الأمان ، وأكون من حزبه فان دولتنا قد ولت ٠

فخرج ليلا من عسكر السلطان طومانباى هو وأمير آخر يسمى أبو حمزة ، ومعهم مماليكهم نحو المائتين ٠

(★) اطفيح بلد من أعمال مركز الصف محافظة الجيزة ، وكانت من البلاد المهمة ذات التاريخ ٠

فلما أصبحوا علموا أن جانما السيفى قد خرج ليلا ، فاستقصوا خبره .

فقال بعض الأجناد للسلطان طومانباى : قد سمعناه وهو يقول ، ان الذى يريد السلامة لنفسه يتبع السلطان سليما ، فان اسمه سليم ، ومن تبعه سلم ، ومن عصاه ندم .

فتكدر السلطان طومانباى ، وقال : سيندم حيث لا ينفعه الندم ، وهل يرتجى من العدو خير ؟ ولكن لا دافع لله فيما قضى . فلما اجتمع جانم السيفى والسلطان سليم وأخبره أنه جاء راغبا فى طاعته وأن طومانباى قد عول على كبسه فى الليلة القابلة أخذوا أهبتهم، واستيقظوا لأنفسهم.

فجاءت الأخبار لطومانباى بأن جانما السيفى دخل فى طاعة السلطان سليم ، وأخبره أنك تريد أن تكبس عليه ، فأخذوا أهبتهم ، وعبوا النار من كل جهة ، فان فعلت شيئا من ذلك أهلكت نفسك وأهلكت من معك .

فأعرض عن ذلك ، واقتضى رأيه أن ينزل فى الشيخونية ، ويحاربهم ، كما تقدم .

ثم انكسر وذهب الى الجزيرة .

فلما علم السلطان طومانباى أن هذه المراكب ما جاء بها الا جانم السيفى (غضب) .

فانه لما اجتمع بالسلطان سليم وعرف صدقه وأمانته كان السلطان كلما يجلس فى ديوانه يرسل خلف خاير بك

وجانم هذا ، ويأمرهم بالجلوس بحضرته ، ويستشيرهم بما فيه الصواب ، ويظهر لهم أنه ان تمكن على ملك مصر يعطى خاير بك باشويته ، الى أن يموت ، اقطاعا ، ويعطى لجانم الفيوم اقطاعا .

ثم قال لهم : قصدى أرسل لطومانباى جيشا لعل أن أظفر به .

فقالوا له : حبا وكرامة ، قل ما شئت فانا لأمرك طائعون ، ولرأيك سامعون .

فقال : من يكون باشا على العسكر ؟

فقال جانم السيفى : أنا أكفيك ذلك ان شاء الله ، وأرجوا ألا أرجع برأس طومانباى ، أو أقبض عليه قبضا باليد ، وآتى لكم به أسيرا .

فشكره السلطان على ذلك .

فأرسل معه خمسة عشر ألف راكب ، وخمسة آلاف رامى بندق ، وخمسين ضربزانات ، وخلع عليه خلعة ، وخرج خرجة أطبقت الجو حين أقلع ، ورمت الرماة طلقا أظلم الدنيا .

وأيقنت الناس أن طومانباى لا طاقة له بهذا الجيش ، وخصوصا جانم السيفى مقدم عليهم .

وكان جانم هذا من الأبطال المشهورة والشجعان المجنورة .

فلما عاين عسكر طومانباى آمر بدخول المراكب الى البر ، وسيبوا طلقا تزلزلت الأرض منه ، وأرسل الى طومانباى يقول له : فى غد الحرب بيننا وبينك ·

فقال طومانباى : حبا وكرامة ·

ذكــــر
التقاء طومانباى مع جانم السيفى

قال : فلما أصبح النهار تصافوا للحرب ·

فأما العرب التى كانت تجمعت مع طومانباى فانهم لما رأوا هذه النيران قال بعضهم لبعض :

ـ ومن يطيق هــذا الأمر المهلك ؟ لا يقــاتل هــؤلاء الا مجنون أو فارغ من الحياة ، ولكن نحن نرتفع عن هؤلاء الى بعد · فكل من رأينا الكسرة عليه نهبناه ·

هذا ما كان من آمر العرب ·

وأما السلطان طومانباى فانه ثبت للحرب ، ولم يتأخر من مكانه ·

فكان آول من خرج فى حومة الميدان جانم السيفى ، ونادى بأعلى صوته : لا يبرز لى الا الأمير طومانباى ·

ولعب آندابا فى الميدان حتى آدهش الناظرين ·

وقوى قلب الروم حين رأوا منه ذلك ·

وقالوا : ما يقاوم طومانباى فى الفروسية الا هذا البهلوان ، وصاروا يشكرونه ..

فلما سمع منهم ذلك زاد فى لعب الأنداب حتى تعجب الحاضرون من الروم .

ثم بعد ذلك وقف فى حومة الميدان ، وقال للجراكسة :

ـ أين فرسانكم ، أين شجعانكم ؟

فخرج من بينهم فارس كأنه الباشق(★) اذا انقض على الصيد وقال له :

ـ غرتك نفسك يا جانم ، وخنت أبناء جنسك ، فسود الله وجهك يا خائن .

فقال له : بطل الكلام ، وابرز للضرب بالحسام .

فقال : اصبر حتى أريك لعب الأنداب .

وكان ذلك الفارس هو الأمير دولتباى كاشف الجيزة .

فلعب فى الميدان أندابا فاق عليه .

فتعجب الروم .

ثم التحم الاثنان فوقع بينهما من الحرب ما حير النظار من أول النهار الى الظهر .

(★) الباشق : هو الصقر .

فلما أيس جانم من خصمه رمى الرمح وسحب السيف ، وضرب دولتباى على خوذته (★) فقطعها ، وجرحه جرحا غير بالغ . فلما ساح دمه عيطت الروم بأجمعها ، آفرم ، آفرم .

فقوى قلب جانم ، وضرب خصمه ضربة أزالت رمحه .

فبقى الرمح فى يد دولتباى من غير حربة .

فألقت الركيز (★★) وحذفه على جانم فدخل الركيز فى جنبه شبك بين أضلاعه ، فوقع عن جواده ، فنزل دولتباى ليقطع رأسه ، فاندنعت عليه الروم بجملتها ، فلم يتمكن من عدوه ، فما ساعه الى أن تركه ، وانثنى على جواده .

والتطم الجيشان ، فلله در ألفين تقاتل فى عشرين ألفا ، وتكسرهم حتى أوقفوهم فى مراكبهم ! .

وكان النهار قد ولى ، فنزل عسكر الروم الى المراكب، وعدوا الى ذلك البر الغربى .

وأما السلطان طومانباى فانه بات فى البر الغربى .

فلما جن الليل جلس طومانباى ، ودعا الأمير شار بك الأعور وبقية الأمراء ، وضربوا المشورة ، فاقتضى الرأى أن يقتسموا الى فرقتين ، فرقة مع الأمير شار بك ، وفرقة مع

(★) الخوذة : غطاء معدنى للرأس ويلبس فى القتال .

(★★) الركيز : الجزء الأسفل من السيف .

السلطان طومانباى ، وأن يذهب الأمير شار بك الى بعد ، ويقف السلطان طومانباى فى موضع المعركة ، فان عدى الأروام وجاءوا لنا أخذناهم مواسطة ٠

فاتفقوا على ذلك ٠

وأما العسكر الرومى ، لما أصبحوا قالوا لجانم :

ـ ما الرأى عندك ؟

قال : نذهب للحرب ، اما بنا واما بهم ، ولا نرجع عنهم ، ولعلنا نظفر بهم ٠

فلما رأوا جانما مصمما على الحرب قالوا له :

ـ أنت مجروح ، وليس لك قدرة على الحرب ٠

فقال لهم : أنا واحد وأنتم ألوف لا تحتاجون الى واحد ٠

وكان المخاطب له أغاة اليكنجرية ٠

فلما سمعوا منه ذلك قالوا : صدق فى قوله ٠

فعدوا الى البر الغربى وطلعوا الى موضع المعركة ٠

فرآهم الجراكسة ، فبادروهم بالقتال والحرب ، والتطموا معهم ٠

فبينما هم فى قوة الحرب ، اذا هم بالأمير شار بك الأعور قد دهمهم من خلفهم بعد أن أخذ المراكب التى على الساحل بجملتها ، فما انفلت منه غير مركبين .

وأرسل الجميع مع عشرين جنديا الى أوطاق السلطان طومانباى ، وانطبقت على الروم الفرقتان من الجراكسة ، وهم كل فرقة منهم نحو الثمانية آلاف والروم نحو العشرين الفا غير العربان ، فما مضى غير ساعة حتى انكسرت الروم وقصدت المراكب ، فلم تجدها ، فانقطعت قلوبهم ، وتبعتهم الجراكسة ، فأفنوهم ، وما نجا منهم سوى جانم وأبى حمزة وأغاة اليكنجرية المسمى باياس أغا ، فانهم لما انهزموا قصدوا المراكب فلم يجدوها فأطلقوا عنان خيلهم على شاطىء النيل، فتبعهم قانصوه ، لكن كان بينه وبينهم مسافة رأى العين، فلم يدركهم ، فنجوا بأنفسهم فقط ، وجميع ما كان معهم من الضربزانات والبندقيات وآلات الحرب وغيرها كله بجملته غنمته الجراكسة .

وأما جانم ورفقته ، فانهم مازالوا رامحين على شاطىء النيل حتى لحقوا بالمركبين اللذين انفلتا من الأمير شار بك، فما صدقوا أن ينزلوا فيهما ، وارتخوا فى التيار .

فلما رآهم قانصوه العادلى قد طلعوا فى المركبين آيس منهم ، ورجع متأسفا لكونه لم يبلغهم .

وكان السلطان طومانباى افتقد من قتل من عسكره فوجدهم ألفين وثلاثمائة غير العربان ، وكلهم من البندق .

فلما رجع جانم وأبو حمزة والأغا منهزمين وقتل غالب عسكرهم ، وعلم السلطان سليم بذلك كاد أن ينفلق قلبه

من شدة ما حصل له من القهر والغم ، وأرسل خلف خاير بك ، وقال له :

ـ قد غررت بنا وأدخلتنا فى بلاد هؤلاء ، ولا أحد يسهل عليه ترك بلاده ، ولو أن طومانباى أعطانى الخطبة والسكة باسمى لرجعت منهم الى الشام ، وما كنت دست هذه الأرض برجلى ، ولا كنت مائلا على دماء رقابهم ولا على مالهم وأولادهم ، من حين دخلنا أنا كنت أحسب أنهم زمرة قليلة ، وشرذمة ذليلة ، وانه جمع على رأسه جماعة من بقية سيوفنا وحصل منه ضرر على عسكرنا ، نحن من الدوحة المباركة العثمانية ، لا نرحم كبيرا لكبره ، ولا صغيرا لصغره ، سيوفنا لامعة على رءوس أعدائنا ، فمن طلب حربنا ندم ، ومن قصد أماننا سلم ، وأنا الذى هدمت الدولتين فى ركبتين ، والسلاطين تفتخر بعبوديتنا ، والرمال تعد ولا تعد كثرة عساكرنا ، من تقرب الينا شبرا تقربنا اليه ذراعا ، ومن تقرب الينا ذراعا تقربنا اليه باعا ، وان الحرب دأبنا ، والجهاد صنعتنا ، نحن من الشجرة الطيبة التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، ويوم الحرب تمطر من سماء غضبنا حجارة ورصاصا من السماء على أعدائنا ، والذين هم كأصحاب الفيل نرميهم بحجارة من سجيل ، فيصيح كل مدفع من مدافعنا صيحة الرعد وفيه البرق والسحاب الثقيل ، وان هذا المتغلب الجاهل وفرعون الباطل ما هو أكبر من سلطان العجم ولا من الغورى ، فانهم لم يقدروا أن يقفوا أمامى يومين كاملين ، فكيف يلم العرب والجراكسة ويعارك مع عسكرى ، ويعمل عليهم حيل اليهود ، وعندى عسكر لا يقف عليه سلاطين العالم ، واذا عاز لى مثله الى عسكر بفرد حكمى يجيبونه عسكر من دار سلطنتى أولهم يكون فى مصر وآخرهم

يكون فى القسطنطينية ، وما مراد هذا الكافر الفاجر هو وغيره ، والغورى ، وقايتباى كانوا مماليك لنا ، أى شىء كان لهم نسبه بالسلطنة ، لا تليق السلطنة الا لنا ، لأن أجدادنا سلطان ابن سلطان ابن سلطان الى سيدنا نوح عليه السلام ، وشغلنا الجهاد والقتال للكفار والروافض (٥٥) وأهل الطغيان والعدوان .

فقال له خاير بك : يا مولانا ، السلطان طومانباى رجل عاقل ، وأنا أعرف أنه ليس له رغبة أن يكون ملكا ولا له على السلطنة استحقاق ، وانما عبدكم الغورى أوصى جميع أمرائه أنه اذا أصابه شىء لا يسلطنون عليهم الا طومانباى لما يعلم من عقله ودينه وفروسيته وشجاعته ، فانه فريد عصره وبعده شار بك الأعور ، والأمير علان الذى قد مات ، وجاءنى خبره ، أنه جاءته ضربزانة فى فخذه كسرته ، وكرتباى الوالى الذى قطعت رأسه .

فقال له السلطان سليم : أنت أغررتنى وطمعتنى فى أخذ هذا الاقليم ، فانظر كيف تصنع ودبر نفسك ، كيف تعرف ، والا فهيا برأسك .

واغتاظ السلطان سليم من خاير بك غيظا عظيما .

فخرج من عنده ، وهو أعمى أصم ، لا يعلم كيف يصنع .

فلقيه يونس باشا الوزير الأعظم ، فقال له :

ـ ما خبرك ؟

---

(٥٥) يشير الى هزيمته لاسماعيل الصفوى فى تشالديران (جلديران) سنة ١٥١٥ ، والروافض لفظ يطلق على الشيعة .

فأخبره بما قال له السلطان سليم ·

فقال الوزير : والله صدق السلطان فى قوله ، والله لو سمع قولى لأشرت عليه بأن ينادى فى عسكره بالرحيل ، ونرجع الى بلادنا وأوطاننا ، وما نعرف كيف صارت أحوال بلادنا من هجوم الكفرة والرفضة ، فانك لأجل غرضك وكراهيتك لأبناء جنسك ، جونتنا بين هؤلاء الملاعين ، وأبعدتنا عن بلادنا ·

فخاف خاير بك على نفسه ، وحسب حساب يونس باشا أن يكرهه ، وربما يتكلم مع السلطان سليم فى حق خاير بك ويقتله · فانثنى خاير بك راجعا الى خيمة السلطان ، واستأذن فأذن له فى الدخول ·

فقال له السلطان : ما الذى دبرته من الرأى ؟

قال : فليعلم مولانا السلطان أنى ما جئتك الا راغبا فى طاعتك ، ومحبة لك ، وآثرتك على جميع أبناء جنسى ، وقد اطلعت على بعض الملاحم فرأيت الرموز تدل على أنك ستملك هذا الاقليم · وتصير سلطان الحرمين ، ولكن يا مولانا السلطان ، أريد منك فرد شىء · وهو أنك لا تقبل فى حقى كلام أحد الا بما يقتضيه رأيك السديد ، فان اقتضى رأيك أن تقتلنى فافعل ، فقد حللتك دمى ·

فتبسم فى وجهه السلطان ، وقال له :

ـ لولا تحققى محبتك ما أطعتك وجئت معك الى هنا ، ولكن كن بنا فى تدبير ما فيه الصلاح ·

فقال : والله يا مولانا السلطان لا أبقى ممكنا فى نصرتك ولو بروحى الا فعلته ٠

فشكره السلطان على ذلك ، وأمر له بخلعة عظيمة ٠

فلما رجع من عند السلطان وهو لابس الخلعة ورآه يونس باشا وهو قادم عليه علم أن خاير بك دخل على عقل السلطان ، ومشى معه على مراده ٠

فقام له وبجله ظاهرا ، مع الكراهة له باطنا ٠

فقال له : ما الذى اقتضى رأى الأمير ؟

قال : ما يكون الا خيرا ، وأرجو من الله تعالى أن يمكننا من طومانباى ونأتى به أسيرا بين يدى السلطان ٠

فقال له يونس باشا : ان شاء الله تعالى يسعد دولة سلطاننا ٠

فلما رجع جانم وأبو حمزة واياس أغا الى أوطاق السلطان سليم تكدر السلطان وندم على ارسال جانم ٠

ثم انه عمل ديوانا ٠

فلما حضرته الوزراء والأمراء قال : أين خاير بك ؟

فجاء ووقف بين يدى السلطان ، فقال له :

ــ ما تقول ؟

قال : الأمر أمرك ، ونحن بين يديك مهما أمرتنا به فعلناه ، ولو كان فيه هلاك أرواحنا ٠

قال السلطان : ان قلبى حس من الأول أن جانما ليس هو كفؤا لطومانباى ، ولكن أنا أريد أن أرسل له كتابا بالأمان مع قاصد عاقل يرد الجواب ، فلعل الله أن يهديه ونبقيه على بلاده ، وأخبره أنى رضيت منه بالاسم فقط ، بأن أصير سلطان الحرمين وتصير لى مزية على ملوك الأرض ويجعل الخطبة والسكة باسمى ، وأعطى له مصر الى أن يموت ٠

فقال خاير بك : يفعل مولانا السلطان ما يقتضيه رأيه فى ارسال الأولاقى ، ولكن أنا أعرف أنه معاند وجاهل لا يوافق على شىء من ذلك ، وربما يقتل القاصد ٠

فقال السلطان : اذا لم يوافق والا أنا ألقاه بنفسى والله يؤيد بنصره من يشاء ٠

فعند ذلك أرسل قاصداً يسمى مصطفى ، وكان عارفا عاقلا ، طلق اللسان أديبا ، وأرسل معه أيضا خمسمائة نفس ، لأن الطريق كانت مخيفة من العربان ٠

فلما وصل الى أوطاق السلطان طومانباى وكان بالقرب من ناحية منية ابن خصيم (★) ترجل عن فرسه ، ونزل هو وجميع من معه فاستأذن فى الاجتماع على السلطان ، فأذن له ، فأوصل المكاتيب للسلطان طومانباى فقرأها وأعطاها للأمير شار بك ٠

(★) كذا فى الأصل ، والصواب منية ابن خصيب وهى قرية مشهورة شمال مدينة أسيوط وهى منسوبة الى الخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر من قبل هرون الرشيد ٠ راجع كتاب الخطط التوفيقية لعلى مبارك ٠

فانه قد أرسل لكل أمير كتابا بخصوصه ، يخبرهم بأنه لا حاجة له ببلادهم ، وأنه ما يريد الا الاسم فقط ، وان كل من قابله خلع عليه ، وأعطاه مرسوما بالأمان ، وأنتم على ما أنتم عليه وأنتم فى أمان الله تعالى . والله يخون الخائن . وأوثق كلامه بأيمان وأقسام .

فقال السلطان طومانباى : ما تقولون يا أغوات ؟

فقال الأمير شار بك : أما رأيى فقتل هؤلاء الطائفة التى ساقتها الأقدار الالهية الينا ، لنكتفى من شرهم ، وأما أنت ان مالت نفسك الى طاعة عدوك فاعلم أن ما بينك وبين الهلاك الا أن تصل اليه ، وتقف بين يديه ، فتصير الأمانة خيانة ، والعزة اهانة ، وتكون كالذى ألقى بنفسه الى التهلكة وطلب منها السلامة ، وندم حيث لا تفيد الندامة ، وأما أنا فلا أدخل تحت أمان العدو فى عمرى ولا مرة واحدة .

وذلك لأنى أعرف أن ما آخر كل حياة الا الممات ، وقد جعل الله تعالى لكل شىء ميقاتا ، فان دخلت تحت طاعته لا يزيد فى عمرى ، لعلمى أنه الموت لا مفر منه ، وأن كل حى لابد له من الموت .

فاقتضى رأيهم ان يقبضوا على القاصد الذى جاءهم ومن معه ، وأن يضربوا رقاب الأولاقية .

فهرب الذين جاءوا معه الى السلطان سليم .

ثم أمر السلطان طومانباى بالمسير الى جهته ، فلم يزالوا سائرين حتى أشرفوا على بركة الحبش ، فرأوا بها أوطاق

السلطان سليم ، وهم من ذلك البر على بعد ، فوقفوا ينظرون ويتأملون ويضربون الرأى كيف يصنعون ، وعلموا أن السلطان سليما انما خرج الى بركة الحبش مريدا للحرب ويريد أن يعدى الى بر الجيزة .

فبينما هم واقفون ، اذا بكردوس من الخيل قادم اليهم ، واذا به الأمير رزمك الناشف ، فقدم على السلطان طومانباى وقبل يديه ، واعتذر له بأنه كان معذورا بسبب جراحة أصابته يوم الريدانية ، وأخبره قانبردى الغزالى كان رأس الملاحين عليهم حين أخرجوا المدافع ، وأمرهم بردمهم تحت الرمل ، وكان هذا غاية المعاكسة لهم .

فقال السلطان طومانباى ، والله انى عرفت أنه ملاحى علينا من أول مرة لما أرسلته بالجيش ، فقتل أكثره ، وانهزم ، فعلمت أنه بالقصد منه .

وأما السلطان سليم ، فانه لما جاءه جانم وأبو حمزة منهزمين وأخبراه بما جرى لهم ، وأن السلطان طومانباى قادم بجموعه التى جمعها فارتاب السلطان سليم ، فعند ذلك أمر يونس باشا بأن يرسل ويأتى بالأمراء المسوكين عندهم ، فانهم كانوا قد نادوا لهم بالأمان .

وكان ذلك مكيدة من خاير بك .

فبقوا كل من يأتيهم بالأمان يحبسونه ويوعدهم خاير بك بأنه اذا تم الأمر للسلطان سليم يطلقهم ويبقيهم على مراتبهم ومناصبهم التى كانوا عليها ، وباطنه بخلاف ذلك .

فلما جاءت الأخبار للسلطان سليم بأن السلطان طومانباى قتل القاصد الذى أرسله السلطان سليم وجميع من معه اغتاظ لذلك غيظا كبيرا وأرسل أحضر الأمراء المحبوسين بقلعة الجبل من الجراكسة ، وأمر بضرب أعناقهم أجمعين ، وكانوا نحو الستين أميرا ، منهم ما هو أمير مائة مقدم ألف ، ومنهم من هو آمير اربعين ، ومنهم من هو أمير عشرة ٠

فلما حضروا بين يديه سألهم عن صاحبهم ، فأخبروه ٠

فقال لهم السلطان سليم : لم تركتم ملككم وجئتم الى عدوكم ؟

قالوا : آثرنا خدمتك على طاعته ، واخترنا أن نكون من أجنادك ٠

فقال : لو كان فيكم خير كان لطومانباى ٠

فعند ذلك أمر بضرب أعناقهم بين يديه ، وهو ينظر اليهم ٠

فأول من ضرب عنقه تقطباى نائب القلعة ، ثم أنس باى حاجب الحجاب ثم تنمر الزردكاش ، ثم أركماس أمير سلاح ، ثم الأمير أزبك المكحل صاحب البيت الذى كان فيه المرحوم الأمير عثمان قائم مقام ، ثم الأمير قانصوه الفاجر ، ثم الأمير مغلباى الزردكاش ، ثم الأمير قاينك رأس نوبة ، ثم الأمير ماماى المحتسب وهو صاحب بيت قاضى العسكر ، ثم الأمير يشبك ملوخية ، ثم جانبلاط الأبج ، وكان قد عمله السلطان طومانباى نائب القلعة ، ثم الأمير خاير بك

الخازندار ، ثم خاير بك المعمار ، ثم بقيـة الأمراء الذين كانوا جاءوا له بالأمان حتى صار الموضع كالمجزرة ·

ثم أمر السـلطان سـليم بالتعدية الى البر الغربى ، فكانت كل تعدية يكون فيها نحو الألفين أو أكثر من الروم ·

وأما السلطان طومانباى ، فانه كان واقفا يترقب نحو ربوة عالية ، وأقام واحدا ينظر له الخبر ·

فلما أخبره بأن الروم وصلت الى البر قال فى نفسه ، أحسن ما يكون أن أقطعهم أولا بأول ·

فعند ذلك رمح عليهم رمحة واحدة ، فما شعروا الا وهو كابس عليهم وأوقع القتل فيهم ، فما وصلت التعدية الثانية الا وقد أفنى غالب الأولى ·

فارتج عسكر السلطان سليم وتشتت أمرهم ، فمنهم من قتل ومنهم من انقلبت بهم المراكب بما فيها ، فحصل للسلطان كرب عظيم ، وندم على فعله ذلك ، وقال :

ـ لو أشار على أحد بذلك لقتلته أشد قتلة ، ولكن يهون الله تعالى ·

فعند ذلك أمر ألا يعدى أحد ، وأن يضعوا ضربزانات على شاطىء النيل ويرموا بهـا عـلى الذى فى ذلك البر من الجراكسة ·

فرموا عليهم طلقا أودت به الدنيا ·

فبينما هم في تلك الحالة واذا هم بغبار قد طار من خلف أظهرهم ، وصيحات وعيطات وخيل قد ملأت الوادى فوقفوا ينظرون ما هذا الأمر ٠

فلما قربوا منهم واذا بهم عرب غزالة (٥٦) ، يتقدمهم حماد بن خبير وأخوه سلام ، وكان سلام هذا بطلا لا يطاق ، فبادروا السلطان طومانباى بالسب والشتم والكف عن محاربة السلطان سليم ، وقالوا له ، ان لم ترجع عن محاربة السلطان سليم والا كنا كلنا عليك ، ونأخذك مواسطة ، ولكن ارجع الى حيث شئت ، واخرج من أرض مصر ، فانكم قد قتلتم منا خلقا كثيرا فى أيام ولايتكم ، وما منا من أحد الا وله أحد قد قتلتموه ، اما أخوه ، واما أبوه ، واما قريبه ٠ وقد أزال الله تعالى دولتكم وجاء بهذا الملك العادل٠

فقال لهم طومانباى : ستنظرون أرواحكم بعدنا ٠

وكف السلطان طومانباى ، وانثنى راجعا بعد أن خادعهم بالكلام ٠

فلم يقبلوا منه قولا واحدا ٠

فقال : لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، اعلموا يا آغوات أن دولتنا قد زالت ، وآجالنا قد مالت ، وما بقى لنا فى هذه الديار نصيب ، ولكن لنا أسوة بمن كان قبلنا ، وانظروا الى هذه الحالة ، وما النصر الا من عند الله ، وقرأ قوله تعالى : « ان ينصركم الله فلا غالب لكم ، وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ٠٠»(٥٧) فما الرأى عندكم؟

---

(٥٦) فى حاشية سابقة أن بعض المراجع تشير اليهم بعرب عزاله بالعين غير المعجمة ٠
(٥٧) آل عمران ، آية ١٦٠ ٠

قالوا له : الرأى ما تراه ، وها نحن بين يديك ، كل ما تفعله نحن موافقون لك عليه .

فقال لهم : سيروا بنا الى جهة الهرم .

فساروا .

فبينما هم سائرون واذا بكردوس (٥٨) من الخيل قدموا عليه ، فأرسل ينظر من هؤلاء ، واذا به الأمير قيت رحبى الذى كان محبوسا بالاسكندرية وقد كان حبسه السلطان الغورى ، وكتب على قيده : «مخلد» ، فلما تسلطن طومانباى وحصل له ما حصل تذكر قيت رحبى ، وكان من الفرسان المجنورة .

فقال : أحق ما يكون أن أرسل فأطلق قيت رحبى ، وأخلع عليه ليكون لنا عونا على هؤلاء الأعداء .

فكان مجيئه فى ذلك الوقت .

فقبل يد السلطان طومانباى وتلقته الأمراء ولبسوه خلعة السلطان ، وسار معهم الى جهة أهرام الجيزة ، وبكوا بكاء كثيرا ، وحكوا له ما وقع للغورى ، وما جرى لهم من أوله الى آخره .

فقال لهم : بالله المستعان ، وعليه التكلان ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، ولا تستعينوا الا بالله ، وكان من أهل الرأى والدين ، وكان قارئا كاتبا عارفا بأنداب الحرب ، ولهذا حبسه السلطان الغورى خوفا من أن يدبر عليه أمرا .

---

(٥٨) الكردوس أو الكردوسة ، وجمعها كراديس ، هى الفرقة الحربية الراكبة ، عاشور ، مرجع سابق ، ص ٤٤٢ .

ثم قال الأمير قيت رجبى : يا مولانا السلطان ، اختير عندى أن نجعل هذه الواقعة نظما ، ونكتبها على هذا الهرم ليكون لنا بها الذكر على ممر الدهور والأيام ، وكان بازاء الأهرام .

فقام السلطان والأمراء الى الهرم الغربى ، فوقفوا عنده .

قال الناقل : فأخذ وشرع السلطان طومانباى ينشد والأمير قيت رجبى يسمع ، والأمير شار بك يكتب على الهرم هذه الأبيات التى جاءت من أحسن المعلقات ، تتضمن جميع ما جرى لهم من أول الحرب الى آخره نظما حسنا .

وهى هذه الأبيات :

دموع العين فاضت من ماقى(٥٩) — وقلبى ذاب من كثر احتراق
فلا نارى طفاها دمع عينى — ولا دمعى يفيض من اختناق
وبى اسف على أسف وحزن — وهم فوق هم واشتياق
على زمن تقضى فى نعيم — بمصر ، والعلا والعز راق
وشمس السعد فى شرف المعالى — وبدر الضد فى درج المحاق
ولما أن أراد الله هذا — أتانا الروم من جهة العراق (٦٠)
وسلطان الجميع سليم شاه — عظيم الملتقى مر المذاق
وكان الماجد الغورى منا — مليكا شبه بحر فى اندفاق
وقد قاد الجيوش لنحو حرب — وكان المرج وعدا للتلاقى
وكان الحرب يوم الحد لكن — تولى جيشنا والحرب باق
وسلطان لنا أضحى قتيلا — طريحا والدما فى الانهراق
وكان الخائن الكلب الغزالى — وخاير بك المبوطن فى النفاق

(٥٩) الماقى هى مجارى الدمع ـ المعجم الوجيز .

(٦٠) ان صحت نسبة القصيدة لطومانباى ، فهذه العبارة تفيد أن السلطان سليما كان بالفعل فى طريقه الى فارس لحرب الشاه اسماعيل الصفوى ، وما توجه للشام الا نتيجة تصرفات الغورى غير المحسوبة .

هما اصل الهزيمة عن حقيق ... الى حلب كخيل فى سباق

وسار الجيش من حلب لمصر ... وزاد الكرب مع ضيق الخناق

وعند حماة خاير بك المخامر ... رجع لعدونا يبغى شقاق

وفى الشام الغزالى كاد كيدا ... وابرك عاقه كل العواق

وساروا بعدها سيرا حثيثا ... لغزة ثم مصر فى لحاق

ولما استجمعوا فى مصر قالوا ... نسلطن أيكم لعدو واق

ولو أينا أهل لهذا ... براى الفيل علان المواق

وسيرنا الشريعة عظم جيش ... عشرة الآلاف فرسان استباق

وقدمنا على الكل الغزالى ... ولم يعلم بسوء الاختلاق

فاختار الهزيمة وهو سال ... سلاح الحرب خوفا من دهاق

وجاءتنا رجال الروم مصرا ... وقد حازوا البلاد مع الآفاق

خرجنا بالجموع لنلتقيهم ... وكان الشر يوم الحرب راق

وفى خط المدافع قام قومى ... وزادوا فى الخصام وفى الخناق

وقد جاءت علينا الروم زحفا ... كبحر مالح فى الاندفاق

وزاد الرمى بالبارود حتى ... حسبت الرعد محلول الطلاق

وأطبق كل ناحية وفج ... وأشعل بالمشقة والدقاق

وقلت لكرتباى ترى الأعادى ... علينا كالسحاب على الشراق

وقلت الى الفتى علان خفنا ... فليس لنا من الأحيا بواق

فقال اليوم نصلبها بطعن ... تموت الناس والتذكار باق

وقمنا بعد ذلك قد حملنا ... كأسد لا تخاف ولا توافى

قتلنا من ملوكهم ثلاثة ... واستقيناهم كأس المرهاق

ولما قد رأوا ذا الفعل منا ... اتونا كالجبال على انطباق

فأسقيناهم كأس المنايا ... فخروا للثرى مذ كنت ساق

وبددت الفوارس فى مجالى ... بطعن فى الصدور وفى الأماقى

وعدنا عودة للأسد لما ... أتوا بالصيد من قلب الوطاق

وقد صبنا الغزالى قد تولى ... واختار الهزيمة بالنفاق

وفى علان جاءت ضرب زان ... وكان به المنية والفراق

فوا أسفا عليه وقد تولى ... وودعنى وداع الافتراق

تظل العين باكية عليه ... بدمع لا يمل كما السواقى

وجاء بركبتيه كمثل هذا ... وصار الفخذ منه كالنطاق

كذلك جانبلاط غدا طريحا ... أبو يس فى الشجعان راقى

واما قانصوه أمير قطيا (٦١) ... فلم يوقه بيوم الحرب واق
وكم قد رمت قتل سليم شاه ... فلم يبارزنى وحر الحرب باقى
واقسم لو أراه غدا قتيلا ... بسيفى لورقى سبعا طباق
ولما أن رأيت الحرب دارت ... على وقد نأى منى رفاقى
فوليت الجواد لنحو مصر ... وحسيت الفنا والله باقى
وعند طرا أتانا الجيش جمعا ... وسرنا الشرق ، يا يابئس الشراق
وعدينا لمصر لأجل حرب ... كبسنا الروم والديجور باق
قتلنا منهم جمعا غزيرا ... بضربات المهندة الرقاق
ثلاثين بان القتل فيهم ... وفيئنا والعساكر فى محاق
وقومى قد ارادوا يغدرونى ... ويرمونى أسيرا فى وثاق
وشاريك احتمى عنى بسيف ... وكان بنفسه لى خير واق
جزاه الله عنى كل خير ... وكان له رحيق المسك ساق
ورحنا قلقشنده (٦٢) ثم عدنا ... وصرت أجد من عظم اشتياقى
وجدنا جانما أمسى قتيلا ... وفوق الألف معه فى رهاق
فقلت لشار بك اذهب سليما ... واحذر من طبيعات الحماق
فان اعداءنا جمع عظيم ... كمثل البحر زايد فى تراق
فقال اليوم نصليها بطعن ... كمثل السم لا ينفعه راق
وقاتلنا الجموع وقاتلونا ... ونحن على المضرة والعناق
وبعد الظهر جاءتنا جيوش ... عداد الرمل جمعا فى انطباق
وزلزلت البلاد بهم الى أن ... حسبت الحشر قام مع التلاقى
فقلت لرفقتى خلوا وقلوا ... وولينا جميعا بافتراق
دخلت البيت نحميه لقانا ... جموع من نسانا فى زعاق
وقاموا فى ضجيج مع نحيب ... وجاءتنى خوند (٦٣) بثوب طاق
قالت لى تخلفنا على من ... وليس لنا ثرى فى الحى واق
وتهرب من ذئاب وأنت ليث ... طويل الشاب والمخلاب باق
وفيك السابقات لكل خير ... وفيك اللاحقات مع البواقى
فخلصنا من الأورام ياذا ... فأنا فى مضيق وانفلاق

---

(٦١) فى سيناء .
(٦٢) مركز طوخ ــ محافظة القليوبية الآن .
(٦٣) لقب يفيد الاحترام للنساء والرجال على سواء ؛ لكن السياق هنا يفيد أنه يخاطب امراة .

فقـــلت لهـــم ورب البيت انى صـبوح الضرب بالبيض الرقـاق
أحـب الى من شرب المـــلاهى على كاس وابـريق وســـاق
وشرب دما الفـــوارس كل يـوم مدامى واصطباحى واعتبـــاقى
وانى ان ذهبت الى اعتـــذار لقـد قلت جـموعى مع رفـاقى
وعنتر غاب عن عبلة سنينــــا بقيد الأسر فى أرض العـــراق
ونـام الـزير دهـرا عن كليـب وبعد ســتين جالمـــا يلاقى
وان النيـــل يعـلو بعـد نقص ويرقى الأوج من بعـــد انمحـاق
وان الليث يهـــــرب من لهيب ويرجع رجعـــة كالسـهم فاق
وانى بعـــرف أمضى ثـم آتى كرجعـــة عنتر يوم الســـباق
فعـــادت وهى نادبـة بقهـــر تضـج الضـج من ألم الفـراق
وقـالت ياطومانبـــاى المفـــدى فراقـك عنـــدنا مـر المذاق
فســـــافر فى امـــان الله انى ودعتـك للذى رفع الطبـــاق
فرجعت الجـواد ودمـع عينى كســيل سال من بحـــر الأماقى
وسافرت الصعيد فحزت جيشـــا كمـــا قالـوا راقـا فـوق راق
وجـانم قـد أتى وبـدا بحـرب فـــولى هـــاربا دون الزقـــاق
وسرت لنحـــو مصر فى جـيوش تقاد مع الحمولة والنيـــــاق
ورزمـك قد لقـــانى فى طـريق فيـــاله ماجـد طلق انطــــلاق
وصبحنا جيوش الروم صبحـــا على الجـود المضـــمرة العتاق
وزدنا القتل حتى كل ســـيفى وأشـــكل نيـــل مصر بانهراق
وقد رمنـــا نعـــدى البحر لكن غزالة قـــد أتونا فى اســـتباق
وراموا حربنـــا وبقـوا علينـا وان البغى أشـــأم الاختـــلاق
فعـــدنا عن قتـــال الروم قهـرا لقينـــــا قيت ســـيد من يلاقى
وعلقنـــا على الأهرام شـــعرا كنظم الدر فى حســـن النســـاق

قال الراوى :

فاقتضى رأى السلطان طومانباى ومن معه من الأمراء أن يدخلوا الى دهشـــور (★) وينـادى فى البـــلاد ، أن الخراج (★★) بطال ثلاث سـنين ، وأنه من أراد القتـــال

(★) دهشور قرية قديمة من أعمال مركز الجيزة .

(★★) الخراج ضريبة الأطيان والمعنى انهم معفون من الضرائب مدة ثلاث سنوات .

ونصرة السلطان طومانباى فليسرع الينا ، وله ما لنا وعليه ما علينا ·

فلما كان كذلك اجتمع لهم عالم عظيم من عرب وفلاحين وغيرهم ·

ثم اقتضى رأيهم أن الأمير شار بك يكون باشا على عشرة آلاف فارس ، راكب وماش ، الى قتال السلطان سليم فى أى محل صادفه فيه ، وان السلطان طومانباى يستمر فى دهشور حتى يأتيه الخبر من شار بك ·

هذا ما كان من أمر هؤلاء ·

وأما ما كان من أمر السلطان سليم فانه ضاق صدره وندم على دخوله مصر ، وخشى أن يطول عليه المطال ، ويدخل عليه الشتاء ، وينقطع عنه خير بلاده ، وخشى من أمر النصارى أن يدبروا أمرا فى غيبته على أخذ الممالك الاسلامية ، فاشتغل فكره ، ودخل عليه الوسواس ، فنوى أن يبطش بخاير بك ، فانه هو الذى حسن اليه التوجه فى أخذ مصر ، وخصوصا وعده السلطان أن يجعله باشا على مصر الى أن يموت ·

فبينما هو فى هذا التفكر وقد دخل عليه الوزراء وأخبروه أن بلاد الاطفيحية خرجت عن طاعة السلطان سليم ، وقامت العربان كلها على ساق لنصرة السلطان طومانباى ، فازداد غما على غمه ·

فاقتضى الرأى أن يرسلوا تجريدة تمهد العربان وتأمرهم بطاعة السلطان سليم ، وأنه ما قصده الا عمارة

البلاد ، وأنه لا يحصل منه أذية لأحد من العرب ولا من الفلاحين ، وان كل من عاند أو خالف ليس له جواب الا السيف .

فقال السلطان : من يكون سردارا (٦٤) على التجريدة ؟

فقال : كل من اختاره السلطان .

فقال : يكون قانبردى الغزالى ، فانه يعرف بأمر هذه البلاد وبقتال العربان .

فلما حضر أمره السلطان بذلك .

فأجاب بالسمع والطاعة ، وقال ، أمر العربان هذا أسهل ما يكون ولا يهم مولانا السلطان بشىء من ذلك أبدا .

قال الشيخ أحمد بن زنبل الرمال : ان السبب فى وصول الغزالى الى طاعة السلطان سليم هو أنه لما عاكس السلطان طومانباى فى أمر المدافع ، وغطوها بالرمال عنادا وتكبرا منه ومن بعض الأمراء ، فلما حصل ما حصل من الهزيمة فى وقعة الريدانية وانهزم من جملة من انهزم وحسدا منه للسلطان طومانباى ، وكان قصده أن يتسلطن هو .

فلما اقتضى رأى الأمير علان والأمير شار بك الأعور والأمير كرتباى الوالى والأمير قانصوه العادلى والأمير أبرك

---

(٦٤) السردار أى القائد ، من الفارسية : سر بمعنى الرأس ودار بمعنى صاحب ؛ محمد السعيد سليمان ، مرجع سابق ، ص ١٢٧ .

رأس الجلبان وبقية الأمراء والأعيان أن يسلطنوا طومانباى لما يعلمون من فروسيته وشجاعته وديانته وانسانيته وتواضعه وزهده فى الدنيا وعدم التكبر والتجبر ، وليس يستحق السلطنة إلا هو .

فلما كان كذلك غلب الحسد قلب قانبردى الغزالى والبغض لأبناء جنسه حيث انهم لم يؤهلوه للسلطنة وقدموا عليه طومانباى ، وكان أحق بها وأهلها نسبة الى غيره .

والغزالى أخذ يعاكسهم فى كل أمر دبروه ويخطىء رأيهم فيما يفعلونه .

فعلم السلطان طومانباى والأمير علان أنه ملاح عليهما ، فأراد الأمير علان أن يبطش بقانبردى الغزالى .

فقال له السلطان طومانباى : لا تفعل .

فقال له : أما تنظر الى معاكسته لنا وعناده .

قال : اخشى أنك ان قتلته ربما تقع الفتنة فى عسكرنا وينخرم نظامنا ، ولكن اصبر الى ثانى مرة ، وما يكون الا ما يريده الله تعالى ولا يغلب الله غالب ، والله سبحانه وتعالى يعلم أننا ليس لنا رغبة فى قتل أحد ، وانما هؤلاء القوم بغوا علينا ويريدون أن يأخذوا بلادنا وأموالنا وأولادنا ، ويهتكوا حريمنا ، فوجب علينا أن ندفع عن أنفسنا وعن أموالنا وأهلنا وأولادنا ، دع كل من قدر على شيء أن يفعله ، والله يفعل ما يشاء .

فقال الأمير علان والأمير شار بك : والله مادام هـذا الخبيث الولد الزنا(٦٥) بيننا لا يقام لنا نظام أبدا ، ومادام خاير بك مع عدونا لا يرد الخصم عنا أبدا ·

فقال السلطان طومانباى : والله ثم والله ، ليس لى رغبة فى سلطنتى وانما أنا واحد منكم ، ولولا أنكم اخترتمونى وألزمتمونى بذلك ما طاوعتكم فى شىء من ذلك ، ولكن لله التدبير ·

فلما انهزم قانبردى الغزالى تبعه اثنا عشر أميرا ، فصادف منهم الأمير سودون الدواداری ضرب زان ، أخذ فخذه فسار معهم الى قليوب (★) ، وهو بلا فخذ ، فتصفى دمه ، فمات هناك ودفن بها ، فجاء بعد ذلك على باى وأخرجه من قبره وحمله الى مصر ، ودفنه فى تربته · وسار الأمير قانبردى الغزالى ومعه أحد عشر أميرا ، وكان من جملتهم رزمك الناشف الى أن وصلوا الى الأمير أحمد بن بقر (٦٦)، فخرج الى لقائهم ورحب بهم ، وأقام بخدمتهم ·

وما زالوا عنده والأخبار ترد عليهم ·

وشاع ذكر طومانباى وما ظهر منه من الفروسية وما فعله فى عسكر السلطان سليم ، ومن قتل منهم ، وكذلك

---

(٦٥) طبيعة الاجتماع المملوكى (العبيد البيض) يتسم باستخدام الفاظ تشير دائما الى الأم وتتهمها ربما بما ليس فيها ·

(٦٦) بقار ·

(★) قليوب حديثة بمحافظة القليوبية شمالى القاهرة ، وكانت قليوب على الشاطىء الشرقى للبحر السردوسى ، وقد ذكر ابن اياس أن قليوب كانت محلا للقاء من يأتى من القسطنطينية من طرف الملك ، وتعد له فيها المدات الحافلة ·

الأمير شار بك الأعور ، والأمير قانصوه العادلى وغيرهما من الأعيان الذين تبعوا السلطان طومانباى . فحصل عندهم الغيرة من ذلك .

فان الجراكسة كانوا قوما نفوسهم شامخة ، وأعطاهم الله الشجاعة والفروسية ، وكانت هى فخرتهم ، فكان كل منهم تحدثه نفسه انما يكون السلطان الا هو ، فلهذا أخذوا عن دابرهم ، فان أخذ الملك ليس كان عندهم الا بالشجاعة ، والملك ليس بقوة ، وانما هو آمر الهى يعطيه الله لمن يشاء الله من عباده .

ولما ترادفت الأخبار بما فعله طومانباى، صاروا يتعجبون من ذلك ، فان طومانباى ما كان مشهورا عندهم الا بالدين والصلاح ، وكان الذى ينظره بهذه السكينة والوقار لا يشك فى صلاحه ، وكان محبوب الصورة عند كل أحد .

فلما صارت منه هذه الشجاعة والفروسية صاروا يتعجبون ، فقال لهم الأمير رزمك الناشف :

ـ أنا سمعت قول القائل : الشجاعة صبر ساعة .

فقالوا له : صدقت يا أمير ، لكن من يصبر على ملاقاة هذه النيران وضرب الزانات والبندقيات ؟ ولو كانوا مثلنا يقاتلون على ظهور الخيل كان الواحد منا يقاتل منهم مائة ومائتين ، لأنهم ليس عندهم معرفة فى ركوب الخيل ، ولا الجولان فى الميدان .

فقال الأمير رزمك : الحى ما له قاتل .

وقال فى نفسه : ما ثمرة بقائنا فى هذا المحل وسلطاننا يقاتل بنفسه والله ليس هذا من المروءة ·

ونوى على الذهاب الى السلطان طومانباى ·

وبات ، ما أصبح ·

ففتش عليه الغزالى ، فلم يجده ، فعلم أنه سار الى السلطان طومانباى ، فخشى أنه ان قام يوما آخر رجعت بقية الأمراء الى طومانباى ، وتخبره بمحل الغزالى الذى هو فيه ·

فقال فى نفسه ، وتكلم مع الأمراء الذين معه ، وقال لهم :

ـ يا أغوات ، اعلموا أن دولتنا قد ولت ، وما بقيت هذه البلاد الا لهذا الملك ، والأولى والأحسن أن نذهب اليه ونأخذ له أمانا ، فاذا صرنا فى أمانه أمنا على أنفسنا وأموالنا وحريمنا ، وأيضا ليس هو مقيما فى هذا الاقليم ، فانه حيث تمكن من البلاد بأخذها وقتل طومانباى ، وأقام خاير بك نائبا عنه ، ذهب الى بلاده ، فاذا ذهب عنا بقيت البلاد فى أيدينا نتصرف فيها كيف نشاء ·

قالوا له : ومن أين لنا أنه يعطينا الأمان ؟

قال لهم : أنا أضمن لكم ذلك ، فان بينى وبين خاير بك اتفاقا باطنا لا يعلم به أحد الا أنا وهو ·

فعند ذلك أطاعوه وذهبوا معه الى أن وصلوا الى كيمان الريش ، وأرسل أعلم خاير بك بقدومه ·

ففرح خاير بك بذلك فرحا شديدا ، وذهب الى حضرة السلطان سليم وأخبره بذلك .

ففرح السلطان أيضا فرحا عظيما ، وأرسل له خاير بك والوزراء وأعيان دولته، فتلقوه ، ودخل من باب القنطرة(★) فى موكب عظيم ، وخلع عليه خلعة عظيمة من أعظم خلع الملوك ، وقابل السلطان سليما ، ورحب به وآمنه ، وأمن جميع الأمراء الذين كانوا معه ، وصار معززا مكرما عند السلطان سليم وعند عسكره .

ونرجع الى سياق الحديث :

قال : فلما أخبروا السلطان سليما أن العربان قامت على ساق ، وعصوا وخرجوا عن طاعة السلطان ، اقتضى رأى السلطان فى ارسال تجريدة ، فأرسل الغزالى باشا على العسكر ، وكان معه خمسمائة فارس من الجراكسة ، وخمسمائة رامى بندق من اليكنجرية الى بر الاطفيحية .

فلما وصل الى اطفيح ورأى البلاد كلها قائمة على ساق ، والعربان مجمعة ، ورأوه ، قصدوه وبادروه بالسب والشتم ، ثم وقع بينهم الحرب فكانت الكسرة على العرب .

فانه بادر برمى البندق ، فلم يثبتوا لذلك .

فولوا هاربين ، فتقفاهم ومزقهم كل ممزق وشتتهم ، وأمر بنهب نجوعهم وحريمهم وأولادهم ، وأرسل جميع ذلك الى السلطان سليم ، فأمر ببيعهم فى الرميلة .

(★) هو باب الشعرية .

فبيعت النساء والأولاد الأحرار كما يباع الرقيق ، ولكن بأبخس قيمة ، فصارت الناس كل من كان فى قلبه رحمة يشترى منهم الذى يشتريه ويعتقونهم فى الوقت ٠

ووقع على الغزالى من دعاء العامة ما لا يحصى عددا حتى دعت عليه اليهود والنصارى ٠

ولما سمعت العربان بذلك عصت جميعا ، وكذلك العسير والحوف ٠

وكان سيدى يحيى ابن الأمير آزبك صاحب بركة الأزبكية لما كانت وقعة الريدانية ، وانهزمت الجراكسة فر على ظهر فرسه الى بلاد بنى حرام ، وكان بينه وبينهم مصاهرة ، وتم مقيما عندهم والأخبار تنتقل اليه وترد عليه وقلبه مع طومانباى ولكن لا وصول له اليه ٠

فلما كان كذلك وعصت جميع العربان والبلاد رأى له طريقا الى الخروج فصار هو وبنو حرام يخرجون ويدورون فى البلاد والطرقات حتى وصلوا الى باب النصر (★) وباب الشعرية (★★) ، وكل من وجدوه روميا قتلوه ٠

فقتل من الأروام خلقا كثيرا خصوصا من الأروام الذين يسمون عجم أو علان ، فانهم كانوا يدورون ينهبون كل

(★) باب النصر أحد أبواب القاهرة الخمسة : باب النصر ، باب الفتوح ، باب القنطرة (باب الشعرية) ، باب زويلة ، باب الخليج ، ومع هذا فلم تكن القاهرة محاطة بسور حصين ، ولكن المنازل شاهقة ، وكل منها أشبه بقلعة ٠

(★★) باب الشعرية اسم ميدان معروف بالقاهرة ، وكان اسمه قديما باب القنطرة ٠

ما يجدونه من مأكل أو غيره ، فكانت الزعر والفلاوية (★)، وحسن القتل فى ذلك الزمن .

وكان سيدى يحيى ابن الأمير أزبك شجاعا عظيما ، وكان من الفرسان المخبورة حتى أجمعت الناس على أنه كان فريد عصره ووحيد دهره فى كل فن من فنون الحرب، وكان فيه محاسن تفوق عن الوصف .

فلما سمع بأن السلطان طومانباى يقاتل السلطان سليما عند المناواة (★★) ، ورحل عنها الى دهشور ، وأنه جعل الأمير شار بك الدودار الكبير مقام نفسه فى جميع أموره ، واشترط على نفسه ان آيده الله تعالى بنصره جعله ولى السلطنة من بعده لأجل ما نظر من شجاعته وقوته فى الحروب .

فعند ذلك قام سيدى يحيى ابن الأمير أزبك وعزم على التوجه الى السلطان طومانباى وعدى من بر الشرق الى بر الغرب وتم سائرا وكل من تلقاه من العربان يترحب به ويفرح به ، ويلتم اليه (٦٧) ، فانه كان مشهورا ومخبورا عندهم بالفروسية ، فلا زال سائرا حتى وصل الى دهشور ، واجتمع بالسلطان طومانباى ، ففرح به السلطان وسأله عن حاله ، فأخبره بما فعله هو وبنو حرام من قتل الأروام ، فشكره السلطان على ذلك وأمره أن يكون مع الأمير شار بك من أصحاب المراتب .

(★) الفلاوية ، ويطلق عليهم بعض المؤرخين الفلاتية ، وهم أوباش الناس .
(★★) المناوات ، قرية من قرى محافظة الجيزة .
(٦٧) لعلها (يلثم يديه) .

قال الراوى : هذا ما كان من أمر هؤلاء ، وأما ما كان من أمر السلطان سليم فانه لما نظر الى هـذه الأمور المفزعة والأحوال المضطربة خاف على نفسه وضاق صدره من أجل ذلك وتحير فى أمره ، فقال لأرباب دولته :

ـ ماذا تقولون فى هذه الطائفة القليلة ؟ كلما أقول ان أمورهم هانت فما أراها الا تزيد فى كل يوم ، وقد حصل لنا منهم غاية الضرر ·

فقال يونس باشا : والله كان رجوعنا من الشام هـو الصواب ، الا أن خاير بك لما انه وعدته بأن يكون ملك مصر مادام حيا صار يدبر فى تحصيل مراده ، ولا قدرة له عـلى ذلك ، فهو يحسن لمولانا السلطان العبـارة ، ويسـهل لك الأمور ، ويظهر لك أن ما قصده الا أن تكون البلاد بلادك ، والحال أنه فى باطن الأمر انما يستعين بك على بلوغ مراده ، وهو هلاك أبناء جنسه ، واستقلاله هـو بالبـلاد والملك ، وترجع أنت ومن معك ان سلمنا ، ويستقل هـو بالبـلاد لنفسه ، وقد طمعت آماله بأنك لا تأخذ منه مالا أبدا ، فهو مجتهد فى ذلك غاية الاجتهاد ·

فحصل عند السلطان سليم تغير عظيم على خاير بك حتى أيقنوا أجمعين بأنه لا يبقى عليه أبدا ·

وكان يونس باشا الذى هـو الـوزير الأعظم يكره خاير بك فى الباطن لما رآى منه من قلة الخير فى حق أبنـاء جنسه ، وكان ليونس باشا من الأخلاق الحميدة والأوصاف الجميلة ما يفوق الوصف، وكان يعرف أن خاير بك ما قصده الا بلوغ مراده ، ولكنه دخل فى عقل السلطان سليم وصار يصغى لقوله ·

وصار السلطان مستحيرا ان هو قتل خاير بك وهــو ستجون فى مصر قامت عليه جميع البلاد من الشرق والغرب٠

فقال السلطان سليم لأرباب دولته : انا نحن قد أخذنا أرض هؤلاء القــوم ، وسبينا حريمهم وقتلنــا آكابرهم ، فماذا نريد بعد هذا ؟ وكفى ما جرى ، وصار الأحسن فيما أرى أن نجعل بيننا وبينهم صلحا ونترك لهم بلادهم ٠

فأشاروا عليه بارسال خوشقدم ٠

فقال لهم : حبا وكرامة ، ولكن اذا لم يوافقوا عــلى ذلك ، والا كنت أنا أول من يقاتلهم ٠

ثم خرج من عند السلطان سليم ٠

فطلبه يونس باشا ، ووصــاه بألا يغلظ عليهــم فى الكلام ، فان الكلام اللين تقبله النفوس ٠

فلما وصل خوشقدم الى دهشور رأى جيشــا عظيمــا وخيلا كثيرة ٠

فلما وصل اليه فاذا به بالأمير شار بك ومعــه هــذه العساكر ، وهو قاصد قتال السلطان سليم ٠

فلما اجتمع به ووقعت العين فى العين قال خوشقدم :

ـ يا معاشر الأمراء والسادات ، انى أريد الأمير شار بك وأتكلم معه أنا وهو فيما يكون فيه الصلاح لنا ولكم ٠

فتقــدم الأمير شــار بك وعن يمينه الأمير آبرك رأس الجلبان ، وعن يساره قانصوه العادلى والأمير قلج ، وحركوا

خيولهم ، وقد خرجوا عن قومهم حتى التقوا بالأمير خوشقدم ، وصار بينهم قدر رمحين .

فكان البادى بالسلام الأمير شار بك .

فرد عليه خوشقدم السلام .

فقال الأمير شار بك : ما معك أيها الأمير ؟ وفى أى شىء جئت ؟

فقال : جئت فى الصلح بينكم وبين هذا الملك الذى هو سليم شاه الذى هو أعظم ملوك الأرض ، ولست أرى لكم أن تعادوه ، والرأى عندى أن تدخلوا تحت طاعته أحسن من أن تصيروا فى قبضته وتذوقوا بين يديه العذاب ، ويقطع منكم الرقاب ، لأنه أرحم عليكم وأنتم أرحم على أرواحكم وأرقابكم وأولادكم ونسائكم وعيالكم ، فكفوا شره عنكم .

فقال الأمير شاربك : أما أنت فأمرك أمر عجيب .

فقال : لماذا ؟

قال : لأنك كنت تقول قبل هذا الملك ، الذى يقول انه أعظم ملوك الأرض ، ان جاء من الروم الى أرضنا أول من يقاتله أنا ، وأكون فداء لأبناء جنسى جميعا ، فلما ذهبنا الى شرق أطفيح ، ورجعنا الى حرب عدونا وضربنا الرأى أن نكبس عليهم ليلا فهربت أنت منا ورجعت الى عدونا الذى كنت تقول انك أول من يقاتله ، وأخبرته بما دبرنا ، وأطلعته على ما أضمرناه ، فلا أدرى أفعلت ذلك من جبن فى قلبك أو خلل فى عقلك ، وأعجب من هذا أنك جئت اليوم تزعم أنك تريد الصلح فلا ندرى أخصم أنت أم حكم ؟

فقال له خوشقدم : صحيح أنى فعلت ذلك ، وما فعلته (ليس) جبنا من الحرب ولا خوفا من الطعن والضرب ، وانما فعلت ذلك لما انى رأيتك صرت دوادارا كبيرا، وتعاليت علينا هذا العلو الزائد كرهنا أن نكون تحت أمرك ، وأن ننقاد لقولك وفعلك ٠

فقال له الأمير شار بك ـ من حسن عقله وحلاوة لسانه وطول روحه وأدبه فى جوابه :

ـ والله يا أمير خوشقدم لو أخذت أنت هذه الوظيفة التى حسدتنى عليها لكنت أول من يخدمك فيها ، ويقوم بحوائجك ٠

فقال له خوشقدم بعد أن خجل منه واستحيا (٦٨) :

ـ والله اننا كنا حسدناك عليها ، ولكن لما سمعنا عنك ما لم نصدقه من الشجاعة والفروسية ، ورأينا ذلك عيانا قلنا والله انه أحق بها وأهلها ، ولولا أن السلطان طومانباى يعلم منه أنه يستحق ذلك ما أعطاه له ، ولكن هذا قلج ، من أين حتى يكون فى مرتبة كرتباى الوالى ٠

فلما سمع الأمير قلج منه هذا الكلام ما ساعه عقله أن يسكت عن الجواب ٠

فقال له : والله لو علم الله فيك خيرا أعطاك أعلى منا ولكن الله تعالى علم أنك رجل خائن خارج عن حدك مارق عن أبناء جنسك ٠

---

(٦٨) الصحيح واستحيى ٠

فلما سمع خوشقدم ذلك الكلام انحرف مزاجه ، وكان عنده طيشان عقل ، وخرجت منه الحدة ، فثلث قنطاريته وطعن الأمير قلج طعنة بقوة عزمه يريد بها هلاكه ، فأخلى عنها بمعرفته ، فراحت فى البطال ، ومن شدة الطعنة كاد أن يسقط خوشقدم عن جواده ·

فلما عاين ذلك الأمير شاربك خرج منه الحدة ، وكان فى يده طبر جناح (★) ، مكتوب على ظهره بالذهب ، هذا دليل لنهب الأرواح ، فضرب به خوشقدم على قنطاريته ، فأبراها كما تبرى القلم ·

فلما سقطت قنطاريته من يده جذب سيفه وقصد الأمير شاربك ، فضربه ضربة ثانية بالطبر على خوذته فقطعها وجرح رأسه جرحا عظيما ·

فلما رأى الدم على وجهه ولى هاربا ·

فلما رأوه أتباعه (٦٩) ولى هاربا والدم يقطر من لحيته ولوا وتبعوه منهزمين ·

فتبعهم شاربك قدر ميل ، ورجع عنهم ، فما سلم منهم الا القليل ·

فلما وصلوا الى أوطاق السلطان سليم وشاع الخبر بأن خوشقدم منهزم ، وولى مجروحا ، ووصل الخبر الى السلطان سليم اغتاظ غيظا عظيما ·

(★) طبر جناح آلة من آلات الحرب ·

(٦٩) المقصود فلما رآه أتباعه ، لكن استخدام الفعل فى صيغة الجمع متبوعا بفاعل جمع ، صيغة صحيحة لغويا رغم ندرتها ·

فأمر باحضار خاير بك ، فقال له : انى أريد الرجوع الى دار سلطنتى ، لأن الأعادى فى حوالى مملكتى ، وقد قرب الشتاء واشتد الغلاء ، وأترك هذا الخراب لأهله ٠

فلما سمع خاير بك ذلك عسر عليه هذا الأمر وقال :

ـ يا مولانا السلطان ، ان فعلت هذا سقطت من أعين الملوك ، ويقولون هرب من الجراكسة ، ولكن الصبر عاقبته الفرج ، ومن تأنى نال ما تمنى ٠

فعند ذلك أمر باحضار من كان مع خوشقدم من الأروام وقال :

ـ لا تأتونى بجركسى أبدا ، ولا ترونى أحدا منهم ، وكل من يجيب أسارى يجيبهم قدام الخيمة ويقوم المشاعلية(★) يقطعون رؤوسهم ، وكل من يجيب رأسا يؤديه الى الوزير الأعظم ٠

فلما وقف كبيرهم بين يدى السلطان قال له :

ـ ما اجتمعت بطومانباى ؟

فقال : لا والله ما اجتمعنا به ، وانما وجدنا شار بك وهو سائر الى جهتنا وقاصدنا ٠

فقال السلطان : فى كم فارس يكون ؟

(★) المشاعلية هم المكلفون بتنفيذ احكام الوالى ٠ وكان عملهم فى الأصل السير أمام الوالى بالمشاعل ٠

قال : معه ألفا فارس من مدرع ولابس وفى الحديد غاطس ، وهو أمامهم يقول فى نفسه ، انه يقدر أن يفتح بهم الأرض شرقا وغربا ٠

فقال له السلطان : أنت نظرت شار بك الأعور ٠

قال : نعم وقربت منه حتى نظرت فى وجهه ٠

فقال له السلطان : صف لى صفته ، فانهم وصفوه عندى مرارا كثيرة ٠

فقال : ليس هو طويلا ولا قصيرا ، وانما هو شرطة الناس ، وليس هو سمينا ولا رقيقا الا آن قوائمه كقوائم البعير ، أعرض ما فيه صدره وأكتافه وذراعاه ، حنطى اللون ، عربى الوجه ، وليس هو أعور كما يقولون وكما يسمونه بالأعور ، ولا به حول ، وانما اذا مال بعينه الى حاجب يكون أحد بياضها أزيد من سوادها ٠

فلما سمع منه السلطان هذا الكلام قال له : صدقت ٠

ثم قال له : وهل طال الكلام بينكما حتى تمكنت أنت من النظر اليه ؟

فقال : نعم ، حتى انى سألت من جماعة خوشقدم عنه ، فقالوا اننا رأيناه بأعيننا وهو يمسك الفحل الجاموس من قرنه ويجذبه فيقلعه من مكانه ، ويلوى قرونه بيديه ، فيقلبه على جنبه ، والناس ينظرون اليه ٠

فقال له : صدقت ، انى سمعت عنه ذلك ، ولكن اذا نزل القضاء عمى البصر ، فلا تفيد الشجاعة ، فسوف ترى أنى

سأقبض عليه ، وأقطع رأسه وأنت تنظر اليه ، فان دولتهم قد انعكس طالعها ٠

ثم ان السلطان ألقى كليته الى الحرب وأمر أن تمسك جميع المراكب ، ويجعلوها صفا واحدا من بر مصر (٧٠) الى بر الجيزة وأن تربط فى بعضها باحكام واتقان ٠

وأمر أن تعدى العساكر على المراكب ٠

ففعلوا كما أمر ٠

وأخذ معه نحو أربعين ألف خيال ومثلهم مشاة غير أتباعهم ، ولكنهم نقاوة النقاوة من شجعان عسكره ، وطلب قتال الأمير طومانباى ٠

وترك فى مصر الوزير يونس باشا وبقية العساكر وأوصاهم بحفظ البلد ، وأخذ معه خاير بك نائب حلب ، وأوصى الوزير الذى هو يونس باشا أنه اذا جاءه الغزالى يرسله اليه ٠

فأمر الوزير من وقته وساعته بكتابة مرسوم الى قانبردى الغزالى يأمره بأن يعدى من الشرق الى بر الصعيد ، وان السلطان سليما يريد قتال السلطان طومانباى ، وهو مجد له فى الطلب ، وأنت اذا وصلت اليك تلك المكاتبة تكون على أهبة حتى تجتمع بالسلطان سليم وتكون أنت وهو على طومانباى حينما يكون وحيث ذهب ٠

---

(٧٠) المقصود القاهرة ٠

ذكـــر
تعدية السلطان سليم الى بر الجيزة

قال : فلما عدى السلطان سليم الى بر الجيزة ومعه سيدى محمد ابن المرحوم السلطان الغورى ، وكان سيدى محمد قد قابل السلطان سليما فى أول دخوله مصر على يد أخى جلبى وقاضى العسكر محمد أفندى بحكم وعهد كتبه له السلطان سليم ، وحلف له أيضا أنه لا يضره بوجه من الوجوه أبدا ٠

ولما قابله كرمه السلطان غاية الاكرام ، وخلع عليه خلعة تليق بالملوك وزاد فى اكرامه حتى اطمأن اليه ، وصار يأخذه معه فى كل بلد ومحل يذهب اليه ٠

ولما عدى السلطان سليم الى بر الجيزة كما تقدم ، صار يسير بهم على الراحة لأجل ما معهم ، من المدافع والضربزانات والأحجار والأثقال ٠

قال الراوى : هذا ما كان من أمر السلطان سليم وسيره بالعساكر ٠

وأما ما كان من أمر شار بك ، فانه سار بمن معه حتى وصل الى بر الجيزة وعن يمينه الأمير قانصوه العادلى وسيدى يحيى ابن الأمير أزبك والأمير دولتباى كاشف الجيزة والأمير بارديك ، وعن يساره الأمير أبرك رأس الجلبان والأمير تنمر الزردكاش نائب الاسكندرية والأمير دولتباى الكبير كاشف الصعيد ، والأمير قلج صديق الأمير شار بك، وهم سائرون ٠

فقال الأمير شار بك : والله يا اخوانى أظن ، والله أعلم أن فى هذا اليوم تقع لنا مضايقة من قبل عدونا ، فان قلبى قد جربته ما حدثنى بشىء الا وقد صادف الصحة ، ولـكن قال العارفون ، من ثبت نبت ، والشجاعة صبر ساعة .

فبينما هم فى هذا الكلام الا وقد ظهر على بعد جيش عظيم والسناجق والأعلام .

فقال لهم الأمير شار بك : رأيتم ما قلت لـكم ؟ ولـكن تأهبوا وقفوا مكانكم .

وأما السلطـان سليم فانه لما عاينهم عرفهم ، فانه قد جاء له بدوى من عرب الفيوم ، وأخبره بأن شار بك الأعور قادم عليك ومعه ألفان من خيار عسكر طومانباى ، كل واحد فى نفسه يقول ، انه يلقاك بمفرده .

فعند ذلك أمر السلطان سليم الرماة أن يبدءوا بالرمى .

ولما تقارب الجمعان ، حمل الأمير شار بك عليهم حملة واحدة ، وركس عليهم .

فلما عاينوا ذلك رموا عليهم طلقا من البندق والمدافع والمكفيات والسبقيات (★) حتى أودت الدنيا وتزلزلت تلك الصحارى ، ولا بقى أحد ينظر أحدا ، فهلك من هلك ، وهرب من هرب ، وثبت من ثبته الله ، ولـكن الأمراء الذين تقـدم ذكرهم لم يهلك منهم أحد ، ولم يهرب منهم أحد ، بل توكلوا

(★) المكفيات والسبقيات ، آلتان من آلات الحرب وقد استعملهما الروم فى حروبهم مع المماليك ، وما كان للمماليك عهد بهما من قبل .

على مولاهم وأسلموا أمرهم اليه ، وحطوا أيديهم فى الروم ، وقاتلوا قتال من يأس (٧١) من الحياة ٠

وقاتل الأمير شار بك قتال الجبابرة ، فما مضى من النهار قدر نصفه الا وقد تقهقرت الروم الى ورائهم ، ورأوا من الأمير شار بك ما لا يرونه من أحد غيره ٠

فعند ذلك أمر السلطان سليم عسكره أن يتفرقوا(٧٢) عليه من كل جانب فصار كل من قرب منه هلك لوقته ، فلم يقدر واحد منهم أن يضربه ضربة لا بسيف ولا بعود ، وصار يصرخ فيهم ، ويقول : خلوا عن الحرب يا علوج(٧٣) الروم وارجعوا الى شوربتكم وبوظتكم ٠ ثم كلمهم بكلام فاحش ، ذكره الحاج فارس ، وهو غلامه الذى كان من وراء ظهره بالجنيب (٧٤) ٠

قال : وقد استقل الروم حتى عجزوا عنه بجملتهم وآيسوا منه ولم يبق أحد منهم بقربه ، فانه كل من قاربه

---

(٧١) الصحيح : يئس ٠

(٧٢) المقصود : يتحلقوا ٠

(٧٣) العلوج ، والمفرد علج ، كلمة تطلق على من تحول للاسلام ولم يحسن اسلامه . وقد كثرت طائفة العلوج هذه فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وكان غالب العلوج من السواحل الاوربية للبحر المتوسط ، والتحقوا بالبحرية العثمانية طلبا للربح وطمعا فى الغنائم خاصة اثناء حركة الجهاد البحرى التى شاركت فيها الدولة العثمانية المسلمين المطرودين من الاندلس ، وبربر الشمال الافريقى ، وقد ابدى العلوج بسالة ـ فى بعض الأحيان ـ فى هذه الحروب ، ولما كانت الدولة العثمانية دولة حربية فى الأساس ، فقد وصل فيها العلوج لمناصب مهمة خاصة فى مصر ، ومما يذكر أن دولة المماليك (السلطنة) كانت أيضا تستخدم العلوج خاصة فى حكم بعض المناطق الساحلية ، بل لقد احتفظ بعض العلوج Iljis بدينهم ولم يدخلوا فى الاسلام الا فى وقت لاحق ، والمعنى المقصود فى العبارة أن الروم (العثمانيين) لم يحسن اسلامهم ٠ عن العلوج ومجتمعهم راجع أيضا مقدمة ترجمة كتاب ميكل ونتر : المجتمع المصرى تحت حكم العثمانيين (الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ سلسلة الألف كتاب) ٠

(٧٤) الحصان الاحتياطى ٠

هلك ، وهو ينادى ويقول : أين أنتم يا سليم ؟ يا من يريد أن يكون سيد الملوك والسلاطين ، ابرز الى الميدان ان كنت سلطان ، آه يا جبان يا ابن الجبان ، يا من يقاتل المسلمين بالنيران ·

ثم التفت عن يساره فوجد كردوسا من الروم نحو الألفين وأكثر قد أحاطوا بالأمير دولتباى كاشف الجيزة ، فمال عليهم ميلة منكرة ، فما شعر الروم الا وهو حاطم عليهم حطمة الأسد الغضبان ·

فانه لما راح السلطان الغورى بهؤلاء الأمراء والعساكر الى مرج دابق كانت عسكره من جلجولية الى لولجن ، ولم يكن أحد يقول ان هذا العسكر ينكسر أبدا ولو اجتمع عليه أهل الدنيا ، فانه كان كل واحد من هؤلاء الأمراء يقول فى نفسه ، انه مقوم بجيش وحده ، ولكن لما اختلفت كلمتهم وقامت النفوس بعضها من بعض ، ولاحوا على بعضهم ، كسروا بعضهم جبرا ، وكسروا ملكهم قهرا ·

فلما التحم الحرب مع السلطان سليم لم يصبروا غير ساعة وهى من طلوع الشمس الى وقت الغداة ، وكانت الكسرة عليهم ·

قال الراوى : وما زال الأمير شار بك كلما سمع الجاويشية يصيحون على الطوائف ويحرضونهم على الحرب فيعيدونها ، فيحمل بنفسه عليهم حتفا ، ويقول ان هؤلاء أحق بالقتل من غيرهم ، فانهم يأمرون الناس بقتل بعضهم ويحرضونهم على ذلك ، وهم لا يقاتلون شيئا ، بل يكبرون العمائم ، ويجهرون بالأصوات ·

ثم عمد الى ناحية من الجاووشية وقاتل قتالا لا يدخل تحت الحصر حتى صارت الرجال مطروحة راقا فوق راق ٠

وأما باقى الامراء من الجراكسة ، فان كل أمير منهم كسر من بين يديه من العساكر ، ولكن ما ولت الروم كل الهرب ، وانما تقهقرت مواكبهم وتنحت كتائبهم وعجزوا العجز العظيم ، وذاقوا البلاء العميم لأنهم فى طول عمرهم ما قاسوا قتالا مثل هذا اليوم ٠

وكان السلطان سليم يتأوه ويتحسر ويتقلق ويتضجر ويقول : ما كنت أظن أن أقاسى من أحد مثل ما قاسيت فى يومى هذا ، ولا كنت أقول انى بهذه العشرة آلاف فارس وراجل التى هى خيار قومى ، ويتبعها أكثر من عشرين ألفا ألقى فى هذا الأعور الذى هو فى أقل من خمسمائة فارس ما لقيت منه ، ويفنى أكثر عسكرى ٠

فقال له خاير بك : والله يا مولانا السلطان كذلك أنا أقول ، ما كنت أظن أن شار بك بهذه الصفة ، ولا كنا نعتبره بين الفرسان ، ولكن ابرز أنت بنفسك الى العسكر ، وازجرهم وأمرهم بالحملة ، لعل النصر يكون لك ٠

فعند ذلك خرج السلطان سليم على عساكره وصاح فى وجوه أكابرهم : الحرب ٠٠ الحرب ٠٠ ما هذه الفترات ؟ أين تذهبون ؟ والى أى أرض تهربون ؟

ثم انه صار يوعدهم بالترقى والعطاء الجزيل ، ويقول لهم : انظروا لهم ، فانه ما بقى منهم الا الخمسمائة فارس، انزلوا عليهم بجمعكم ، وابطشوا عليهم بقوتكم ولا تبقوا

منهم على أحد ، واقطعوهم الى أبد الأبد وأسرعوا فى الحركات .

فلما تكلم السلطان سليم بهذه الكلمات المعجزات مع أكابر دولته ، خرجوا من بين يديه وهم لا يدرون ما يصنعون وصاحوا على الطوائف المجتمعة وحمل كل صف من ناحية ، وكانت الجراكسة قد أيقنوا بالنصر والظفر ، وما دروا أن فى ذلك اليوم الموت الأحمر والبلاء المنتظر ، ولكن اذا نزل القضاء عمى البصر .

وما بقى مع الأمير شار بك الا نحو خمسمائة فارس من الألفين الذين كانوا معه ، وأما البقية فمنهم من قتل ومنهم من هرب ، ولكن لم يهرب منهم أحد من ضرب سيف ولا عود، ولكن انما هربوا من النار ومن البندق والضرابزانات ، وكذلك الذين قتلوا ، لم يقتل أحد منهم بالسيف الا القليل جدا ، وانما قتلوا بالبنادق والنار .

ولما كانوا هزموا الروم ووقفوا حول الأمير شار بك وهو بينهم كالأسد ، وكل منهم يدعو له ، ومنهم من يقبل يديه ، ومنهم من يقبل رجليه لما رأوا منه من الشجاعة التى لا تسمع الا عن عنترة بن شداد ، فصار يسأل عن الأمراء ويتفقدهم واحدا بعد واحد ، فما وجد واحدا منهم قتل ولا جرح ، ففرح بذلك .

وانما الذين قتلوا والذين هربوا كلهم مماليك وأتباع، وأما الرؤوس الأعيان مثل الأمير قانصوه العادلى والأمير يحيى بن أزبك والأمير قانصوه كرت والأمير أبرك رأس الجلبان والأمير دولتباى كاشف الجيزة والأمير دولتباى

كاشف منفلوط ، وكان صديقه قلج عن يساره ويتحدث معه حتى مر على الأمراء المذكورين جميعا ، وهو يتفقدهم هل جرح منهم أحد ، فوجدهم كلهم طيبين .

فقال لهم : الشجاعة صبر ساعة ، انظروا لما صبرتم كيف ظفرتم ، وأيدكم ربكم ، فثبتوا نفوسكم حتى يتم الأمر لكم ، ومن تعب منكم يقف فى مكانه ولا يولى دبره فيكسر قلب أصحابه ، ويطمع الأعادى فينا ، وكلما كنتم حزمة واحدة كنتم أنتم الغالبين .

فقالوا : والله يا أمير ، ليس منا أحد يهرب لا من طعن ولا من ضرب ، فان هؤلاء القوم قد عرفناهم ، ليسوا بأفرس منا ولا أشجع منا حتى نهابهم ، وانما ضرورتنا (٧٥) من هذه النار ، وهذا البندق والرصاص ، ومن هذه الضرابزانات التى لو رموها على الجبال لأزالوها .

قال لهم : لا اعتبار بشىء من هذا مطلقا ، والحى ما له قاتل ، والانسان اذا فرغ أجله مات وهو على فراشه ، وقد قال مولانا سبحانه وتعالى : « لكل أجل كتاب » فلا يزيد العمر بالهرب ، ولا بالثبات ينقص العمر ، يومك يومك ، طيبوا نفوسكم ولا تجبنوا فان الله تعالى يكره الجبان ، واعلموا انكم ما تقاتلون الا عن حريمكم وأولادكم وأموالكم وبلادكم ، فمن قتل منكم مات شهيدا ، ومن عاش منكم عاش سعيدا ، وأما هؤلاء فانهم باغون عليكم ، والباغى له مصرع .

---

(٧٥) اى ضررنا .

وبينما هم فى هذا الكلام وظنوا أن الروم قد بطلت همتهم عن الحرب واذا بهم قد أقبلوا عليهم زحفا مثل قطع الغمام ، فصاح عليهم الأمير شار بك : الحملة ، أسرعوا يا كرام غير لئام ٠

فكان هو أول من حمل بعد ما فرغ من الكلام ، ونطح الجيش بصدره كأنه الليث الضرغام ، فرمت عسكر الروم أول طلق والثانى والثالث بالبندق والضرابزانات حتى صارت البندق والأحجار نازلة كالمطر المدرار ، والجراكسة قد التحموا فى الروم حتى صار بينهم حملات ومحاربات ومصادمات ومهاجمات ومضايقات مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، وصار لهم وقع بالسيف والدبابيس على الأبدان كوقع مطارق الحداد على السندان ، أو كوقع حوافر الخيل على الحجر الصوان ٠ وجرى بينهم من الحرب ما لا تسعه الأذهان ، وكان لهم يوم مشهود لم ير مثله فى قديم الزمان٠

وكان الأمير شار بك قتاله فى هذا اليوم قتال من استقتل ، كالليث الغضنفر ان مال على جماعة طحنها أو على طائفة مزقها ، وفى يده سيف يقطع به الأعمار قطعا ، ويصدع الأكباد صدعا ، فلم يكن الا شىء قليل حتى انطفت جمرة الروم وخمدت وكلت حركاتهم وجمدت ، ورد جموعهم الأمير شار بك قهرا وزجرا بحد سيفه ٠

فتراجعت مواكب الروم بين يديه الى الهروب ، وقالوا : ان هذا البطل ما له من البشر مطيق ولا يليق لأحد أن يقاتل هذا السبع الغضنفر ٠ فلله دره من بطل الأبطال وهازم الأقيال ، حتى صار بعض أكابر الروم يدعون له كما

يدعون لأنفسهم مما رأوا من شجاعته وفروسيته ، وعلموا أنهم لا يقاومونه لا فى ركوب الخيل ولا فى ضرب السيف ولا فى رمى السهام ، وانما عمدتهم على رمى البندق والضرابزانات وآلات النار •

فقال أكابرهم ، بعضهم لبعض ، ان القتال مع هؤلاء الأبطال فى الفارغ البطال ، فتقهقرت الروم الى ورائهم ، فلا زالوا حتى وصلوا الى النيل السعيد ، وقصدوا انفضاض الحرب •

فهم فى هذه الحالة واذا بغبار قد ثار حتى سد الأقطار ، فوقفت الروم تنظر الخبر ، ووقف الأمير شاربك أيضا ، هو ومن معه من الجراكسة ينظرون وقد بقوا فئة قليلة ، ولكن كل واحد منهم مقوم بألوف ، ولولا النار التى مع الروم لكانوا أفنوهم عن آخرهم •

فلما قرب الغبار ظهر من تحته خيل تركض الأرض ركضا فقال لهم الأمير شاربك : لا يخلو هذا الجيش القادم من أن يكون السلطان طومانباى ، والا فهم عرب غزالة قد جاءوا لنا لنصرة عدونا •

قال : فما تم الأمير شاربك كلامه حتى قربت الخيل اليهم وتحققوهم واذا هم عرب غزالة يقدمهم سلام بن خبير وأخوه حماد ، وهم قاصدون الى العسكر الجراكسة ، فلما نظروا الى الأمير شاربك بادروه بالسب والشتم •

فلما عاين ذلك منهم عرف أن الأمر صعب ، فاقتضى رأيه أن يظهر لهم الهزيمة حتى يتبعوه ، فاذا تبعوه وبعدوا عن

الروم يرد عليهم ، وربما أن الروم يرمون عليهم طلقا فيكون فيه هلاكهم . وكان الأمر كذلك فانه لما أظهر لهم الأمير شاربك الهزيمة طمعوا فيه وتبعوه ، فلما بعدوا عن الروم رجع عليهم الأمير شاربك رجعة الأسد وقاتلهم قتال من يئس من الحياة ، فما ثبتوا بين يديه ولا درجة واحدة وقد ولوا منهزمين ، فانه ما بقى بقربه أحد الا قتله ، فما ساعهم (٧٦) الا الهروب .

وأما السلطان سليم فانه لما رأى العرب انهزمت على الفور آمر الرماة آن ترمى ، فقالت له الأعيان كيف ترمى على العرب وقد جاءوا لنصرتنا .

قال : ارموا ودعوا كل من فرغ عمره يموت .

فرموا عليهم طلقا ، فأصاب غالبهم .

فلما رأت العرب ما حل بهم من الروم اغتاظت قلوبهم ، وقال بعضهم لبعض ، انظروا الى هؤلاء العلوج ، نحن نقاتل عنهم وهم يرمون علينا بالنار ولا يرحمونا ، ونادوا لبعضهم، من يرد السلامة يتبع الأمير سلاما وأخاه حمادا .

فخرج سلام وتبعته العربان ، وما سلم منهم الا طويل العمر .

فما مضى غير ساعة حتى انعزلت عرب غزالة الى بعد ميل ووقفوا ينظرون ، ماذا يكون الأمر بين الفريقين .

---

(٧٦) المعنى . ما وسعهم الا الهروب .

فلما عاين الأمير شاربك ذلك حسب الحساب ، انه متى رجع الى قتال الروم تتقفاه العرب وتضايقه وتعوقه عن مراده ، فأمر الأمير قانصوه كرت أن يكون فى مائة فارس تحت السنجق بمن معه ، فأينما وجد العرب حملوا يلقاهم بالمائة فارس ، والعرب ألوف ، وقد قتل منهم نحو ألف أو أكثر .

ثم حمل الأمير شاربك والى جانبه قانصوه العادلى والأمير أبرك والأمير قلج والأمير تنمر والأمير بردبك والأمير أبو يزيد والأمير دولتباى كاشف الجيزة ، والأمير دولتباى كاشف الصعيد وسيدى يحيى ابن الأمير أزبك صاحب بركة الأزبكية ، فهم صف واحد ، كل واحد مقوم نفسه بجيش وحده ، فلله درهم من فرسان أفراد ، وأتباعهم نحو الثلاثمائة ، تحطم على ألوف مؤلفة ورماة بالبندق وبالنار على سائر آلات الحرب .

فلما رأت الروم الأمير شاربك قد رجع عليهم يريد الحرب صاروا يتعجبون منه غاية العجب ، وقالوا : لا شك أن هذا الرجل مجنون أو معه أحد من الجن يساعده ، وانما العاقل لا يلقى نفسه فى هذا الهلاك .

فأمرهم السلطان سليم بالرمى عليهم ، فرموا طلقا حتى صار البندق عليه كالمطر ، فلم يرجع عنهم ، وصار فى حملته حتى حطم عليهم وحط يده فيهم ، فما صرت تنظر الا رؤوسا طائرة وفرسانا تتساقط وعملوا فى بعضهم كما تعمل النار فى الحطب .

وكان النهار قد ولى ، وغربت الشمس ، وألح لحا عظيما السلطان سليم فى الحرب ، وأمر أجناده أن يضايقوهم ،

وكان يرجو أخذهم فى ذلك الوقت لأن غالب عسكر الأمير شاربك ، منهم من قتل ومنهم من هرب ، وما بقى معه الا الأمراء الرؤوس القرانصة وبعض مماليكه ٠

فطمعت فيهم الروم غاية الطمع وبذلوا جهدهم فى الحرب ، فلله در هؤلاء الفرسان القلائل ، كيف اصطلوا هذه الحرب بأنفسهم ، فلما عاين السلطان سليم الأمر بخلاف ما أملهُ ودخل الليل أيس من أخذهم ونادى فى عسكره بالانفصال ٠

فما كانت غير ساعة حتى رجع عسكر الروم تحت سنجقهم ٠

وصار الأمير شاربك يشتمهم ويقول لهم بلسان تركى : اذهبوا الى شوربتكم يا علوج الروم ، يا كفرة ، يا فجرة (٧٧) ٠

وعسكر الروم تشتمه وتقول له : ان شاء الله تعالى ، يا معرص نقطع رأس طومانباى ورأسك ، ونخليهم تحت أرجلنا مثل رأس الكلب و ٠٠٠ امرأتك وامرأة غيرك ، يا نصرانى يا ابن النصرانى ، يا كبشة حرامية ٠٠ يا عرصات ، يا ملاعين ، يا خنازير ، أى شىء لكم نسبة بالسلطنة أو الامارة يا كفرة ، يا مماليك ، لو كان على رأسكم دولة كنتم تعملون سياسا عند سلطاننا لأن سلطاننا خير السلاطين وسلطان الخواقين (٧٨) ، ونحن غزاة الاسلام،

---

(٧٧) الاصل فى العلج ما ذكرناه فى حاشية سابقة ، لكن المعنى انصرف فى العامية المصرية الى ما يعلمه القارىء ٠

(٧٨) جمع خاقان اى الملك ٠

وعززنا الله على الأعراب والأعجام ، كلنا مجاهدون مع الكفار والفجار ، وما نحن مثلكم أشرار أولاد كفار ، لعنة الله عليكم وعلى من اتبعكم الى يوم القيامة ·

فرجع الأمير شاربك لينظر محلا ينزل فيه هو وجماعته ·

فقال له الأمير يحيى ابن الأمير آزبك صاحب بركة الأزبكية : انزلوا على شاطىء النيل تجاه عدونا ·

فقال الأمير شاربك : هو رأى صواب ، غير أن عندى رأى أصوب منه ، وهو أن بالقرب منا بركة ماء على الطريق ، فربما أن السلطان طومانباى يرسل لنا أحدا أو يأتى هو بنفسه فلا ينظر الينا ، ولا يعرف فى أى جهة نزلنا ·

فاستصوبوا رأيه ، فما لبثوا غير ساعة الا وقد أقبل عليهم خمس فوارس من عند السلطان طومانباى ، فاجتمعوا بالأمير شاربك ، وأخبروه أن السلطان نازل على دهشور ، وهو مشغول الفكرة عليكم ، وما جاءه عنكم خبر الا عند الغروب ، فهم أن يأتى اليكم ، فرأى النهار قد ولى ، وبلغه أيضا أن عرب غزالة قد حاربوكم مساعدة لعدوكم ، فساءه ذلك وانقبض خاطره ، وبقى متحيرا فى نفسه ·

فقال الأمير شاربك : ليته قد جاءنا فى ذلك الوقت ، والله لو جاءنا وقت الحرب ، وأسعفنا بالطعن لهم والضرب لأخذناهم عن آخرهم فان الروم‌ليس لهم عزم ولا قوة الا رمى النار ، ولما بطل رمى النار ولم يبق الا السيف والعود ما عاد لهم قدرة على ذلك ، ولو أن السلطان طومانباى صح

عنه الرأى كان جاءنا على الفور ، ولكن الله أعلم أن دولتنا قد ولت وانقضت . فانى أنظر أن الرأى والصواب ننساه ولا نعرفه حتى يفوت وقته وأوانه ، والرأى الخطأ نتبعه ، فهذا دليل على الزوال ولا شك ، لكن لا دافع لله فيما قضى ، والله تعالى يعلم أننا لم نقاتل فى حظ أنفسنا وانما قتالنا عن أنفسنا وحريمنا ، وعن ديارنا وأموالنا وأولادنا ، فانه قال سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » والله تعالى يعلم أنهم باغون علينا ، وقد قال الله تعالى : « ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه ، لينصرنه الله » وقد أسلمنا أمرنا اليه تعالى ، وهو يفعل فى ملكه ما يريد ، ويحكم فى خلقه ما يشاء .

ثم قال له القاصد : ان السلطان أمرنى أن ساعة وصولى اليك لا تتأخر ساعة واحدة ، وتحصله على ضيعة وردان ، فانه ينتظركم هناك . فعند ذلك أمر الأمير شار بك بالرحيل ليلا ، وترك الحرب واختار الهروب وقال :

ــ من كان منا يتبعنا .

وقام من ساعته ، وأمر بالرحيل خوفا من سطوة سيف السلطان سليم .

فلما بلغ مناه وخجل عن دعواه قال له بعض الأمراء :

ــ فان تبعنا العدو فى هذا الليل كيف نصنع ؟

فقال لهم : وهل سمعتم أن الروم تقاتل ليلا أبدا ، وما رأيتم لما أن دخل الليل كيف بيتوا ، أين عقلكم ؟

فلما ساروا ومروا على الروم من بعيد لم يخرج اليهم أحد ·

وقال السلطان سليم ، لا أحد يتبعهم منا ، فانهم ربما فعلوا ذلك مكيدة لكم وحيلة عليكم ·

وفرح السلطان سليم بمرورهم لجهة البحر المالح ·

فلا زال الأمير شاربك سائرا طول الليل الى أن طلع النهار وهم فى الوراق (★) ·

واذا بالسلطان طومانباى نازل هناك ·

فلما رأوه على بعد ، أمر السلطان جميع من معه من العسكر أن يذهبوا الى ملاقاة الأمير شار بك فارس الزمان ·

فلاقته العسكر أحسن ملتقى ، ودعوا له ، وفرحوا بسلامته ·

فلما قرب من السلطان أراد أن ينزل عن فرسه ، فأقسم عليه السلطان طومانباى ألا يترجل أحد منهم عن مركوبه ·

فامتثلوا قوله ، وسلموا عليه وهم على ظهور الخيل ·

وسار السلطان طومانباى والأمير شاربك عن يمينه والأمير قيت الرحبى عن يساره ، ومن ورائه الأمير أبرك رأس الجلبان ، والأمير قانصوه كرت ·

(★) الوراق قرية من قرى محافظة الجيزة قسم امبابة ، والمراد منها وراق الحضر المقابلة لشبرا الخيمة ، وبجوارها قرية أخرى تسمى وراق العرب غربى وراق الحضر واحدث منها ·

فلما وصل السلطان الى أوطاقه ترجل عن جواده ، وترجل الأمير شاربك وبقية الأمراء والأجناد ، وجلس السلطان على الأرض من غير كرسى ، وكذلك الأمير شاربك، وبقية الأمراء على قدر مراتبهم .

فقال السلطان للأمير شاربك : أخبرنا يا أمير بما وقع لك من الروم وبما فعلت فى محاربتهم .

فقال الأمير شاربك :

والله يا مولانا السلطان وقع لنا معهم حرب يشيب الأطفال فى المهد ويلين لعظمته الحجر الجلمود ، وكنا نحن الظافرين عليهم والغالبين لهم ، وقد كسرناهم حتى رميناهم البحر ، ولكن ما سلمنا من عرب غزالة ، فانهم هم الذين عاقونا عن مطلبنا وصدونا عن مقصدنا ، وصدونا عن غرضنا ، وانى والله العظيم رب زمزم والحطيم لو ثبت معى الألفان اللذان خرجت بهم من عندك ما كنت رجعت عنهم وكنت قسمتهم قسمين : قسم يقاتل الروم ، وقسم يقاتل غزالة . وما كنا بتنا الا فى مصرنا ، ولكن ما شتتهم الا هذه النار . التى يرمون بها فما يشعر الانسان الا وهو مضروب بها وما يعرف من أى جانب جاءته ، فان غالب عسكرنا لم يقتل منهم أحد بالسيف الا القليل ، ولكن هذا ما جرت به المقادير من الرب القدير ، ونسأله اللطف والتدبير ممن له الحكم واليه المصير .

ثم قال الأمير شاربك :

ـ والله يا مولانا السلطان ، لو حزمت أمرك وضبطت رأيك لكنت لما سرت أنا والألف فارس وقاتلت العدو ،

وصـبرت أنت ، وسرت وجئت بشيء يســير من خلفى ، وقاطعت على العدو من ورائهم لكنا أخذناهم بواسطة من قبل أن تأتيهم بقية العساكر وعربان غزالة ، وما كنا بتنا الا فى مصرنا ، وكان انفصـل الأمر بيننـا وبينهم ، وارتاحت قلوبنا من هذا العناء ، فان السلطان سليما كان معـه نحو عشرة آلاف ، وكانوا نقاوة عسكره ، وأتباعهم نحو العشرين ألفا ، ولكن ما كنت أنظرهم فى الميدان الا كالبهائم ليس فيهم من يسوق حصانه فى حومة الميدان الا أن يكون جركسيا منا من الذين خانوا أبناء جنسهم ، وذهبوا اليه ، فالله يخون الخـائن .

والله أعلم أن دولتنا دعائمهـ ـد مالت وأيامها قد زالت، وانى أرى أن الرأى الصواب ننساه ولا نذكره حتى يفـوت ويمضى حـكمه ، وان الرأى غـير الصواب نتبعه ولو تعلق بالسحاب ، وهذا مما يدل على الاضـطراب والانقـلاب ، فنعوذ بالله من العكس فى الأسباب التى توجب الى الذهاب من غير اياب ، ومن عظم مصيبة تتحير فيها عقول ذوى الألباب .

فقال له السلطان طومانباى : دع عنك الأفكار والغم بما فات ، واعمل الرأى فيما هو آت .

فقال الأمير قيت الرحبى : صدق السلطان فيما قال ، اضربوا لكم رأيا فيما تفعلون ، فان العربان صارت كلهـا أعداء لنا ، وعونا لعدونا ، وليس فيهم من يقـاتل معنـا ، ويكافح عنا ، لأنه ما منهم أحد ، الا من قتلنا اما أباه ، واما أخاه ، واما ابنه ، واما ابن عمه ، واما واحدا من أقاربه ، وذلك لما كانوا يعصون علينا ، فهم الآن كل واحـد منهـم

يطالبنا بثأره القديم ، وأما عدونا فانه قد جاءهم جديدا وليس بينه وبينهم شيء من العداوة ، ولا نالهم منه الا الخير ، فانه تذهب اليه أكابرهم فيعطيهم ويرضيهم ويعلق آمالهم بجزيل المطامع ، ويحلف لهم أنه لا يؤذيهم ولا يقتل منهم أحدا ، ولا يأخذ منهم خراجا ، وانما يأخذ منهم العشر ، ويحكم بينهم بالعدل، ولا سيما معه هذان الشيطانان الخبيثان خاير بك والغزالى ، وهما يراسلان شيوخ العربان ، ويقولان لهم ، هذا ملك عادل ، مسلم ابن مسلم ، وسلطان ابن سلطان ، الى سابع جد ، ويحب الخير والانصاف ويكره الظلم والاسراف ، ويميلان قلوب الناس اليه ، ويعطفونهم عليه ، ويسميانه بالملك العادل ويشكرانه لكل أحد عاقل وجاهل .

وبعد هذا فما بقى لكم من الرأى الا أن ترسلوا قاصدا لقبيلة غزالة التى هى أشد القبائل علينا ، وتوعدوهم بكل خير ، فلعل أن يميلوا الينا ويطيعونا ، فان حصل ذلك كان خيرا ، وان أبوا فالاستعانة بالله خير لنا من كل أحد ، وغاية الأمر الموت ، فانه أمر لابد منه .

وعند ذلك أمر السلطان طومانباى بكتابه الى عرب غزالة ، فأول ما بدأ فيه بشيخهم حماد بن خبير ، ويخوفهم من الله تعالى وعاقبة المكر والبغى ، وحلف لهم ان أطاعوه ودخلوا فى طاعته ليقابلنهم بأحسن مقابلة ، وان لم يقبلوا ذلك يكفوا عن قتالنا ولا يعارضوننا فى قتال عدونا فانهم كانوا يجتمعون على بعد من الحرب ويرسلون من ينظر لهم الخبر ، فلما تقع الكسرة على الروم يرمحون رمحة واحدة

على الجراكسة من خلف ظهرهم ، فيضيقون علينا من شـدة هزيمة عدونا ·

فلما ترى الجراكسة الأمر قد جاءهم من خلفهم يرجعون عليهم ، ليـكفوهم عن أنفســهم ، ويردون عليهم ، فتصـير الجراكسة فى الوسط ، فبهذه الوسيلة تغلب الجراكسة غاية الغلبة ·

فلما وصل كتاب السلطان طومانباى الى حماد بن خبير وعرف مضمونه وأعطاه لأخيه سلام ، فقرأه الآخر وعرف مضمونه قال سلام لمحمد شيخ البكارية (★) :

– أنت يا محمد ما تعرف ما جرى بيننا وبين الجراكسة وما قتلوا منا وكم يعطوننا الأمان ، ثم يغدروننا ·

فقال له محمد : انما كان يفعل ذلك السلطان الغورى ، وأما هذا الرجل طومانباى فانه رجل صـالح وفارس فالح ، وما سمعنا عنه لأحد سوءا أبدا ، وأنا ضامن لك عهدته ، فانه رجل صادق فى قوله ، وليس هو كالغورى ·

فقال له سلام وأخوه : حتى ننظر ، ان كانت العرب تطيعنـا أو لا · ثم نادى فى جميع عرب غزالة أن يجتمع الأعيان منهم ·

(★) البكارية ، طريقة صوفية ، تنسب الى الشيخ أسد الأبو بكرى ، وقد ذكره السخاوى فى كتابه تحفة الأحباب ، وقبره فى زاوية المضفر يمين شارع السيوفية ، وقد قال على مبارك فى كتابه الخطط التوفيقية ان الزاوية موجودة وان لها منبرا وخطبـة ومطهـرة ومراحيض وفيها بئر وحولها قبور ·

فاجتمعوا كلهم ، فقرأ عليهم كتاب السلطان طومانباى .

فلما سمعوا قاموا كلهم قومة واحدة ، وقالوا : لا سمع له ولا طاعة ، ولا بيننا وبينه الا السيف .

فقال محمد شيخ البكارية : يا وجوه العرب ، أما ما قلتم عن السلطان الغورى فانه كله صحيح ، وقد نظرتم كيف أخذه الله تعالى ، وأما هذا الرجل طومانباى فهل سمعتم عنه شيئا من الظلم والبغى قديما أو حديثا ؟

فقالوا : لا ، ما سمعنا عنه سوءا أبدا ، لا فى زمن الغورى ، ولا فى هذا الآن ، وانما هذه الطائفة دولتهم قد زالت وولت ، وأوقاتهم مالت وأيامها ولت ، وأعزاؤها ذلت ، لو قمنا معه ونصرناه لا يفيده ذلك بعد أن ولت دولته ، وان تركنا نصرة السلطان سليم واعتزلنا لا نسلم من عتبه علينا فيما بعد ذلك ولا نأمن على أنفسنا منه ، فانه صاحب البأس الشديد ، والأولى أن نجعل لنا عنده يدا نأمن بها على أنفسنا فيما بعد ، وبعد ذلك لا تطل فى الكلام ، واقتصر فى الجواب ، فما بقى لك معنا كلام ، والسلام .

فلما أيس منهم انثنى راجعا الى السلطان طومانباى ، وأخبره ، بذلك .

فقال لهم الأمير شاربك : الآن قد بان لكم صحة قولى .

فقالت جميع الأمراء ، والله ان رأيك فى جميع الأمور هو الصواب من يوم الريدانية ، وأنت تقول لا تدفنوا المدافع فى الرمل ، وقانبردى الغزالى يقول ، الصواب دفنها

حتى لا ينظرها أحد ، وانما كان ذلك منـه مكرا وعنادا ، فلا لقاه الله خيرا ٠

فأمنت جميع الأمراء على دعائه عليه ، وكان كذلك ، فلم يلق نصرا الى أن قتل أسوأ القتلات ٠

وسيأتى خبر قتله فيما بعد ان شاء الله تعالى ٠

فقال لهم السلطان طومانباى : يا أمراء ، يا أغوات ، الرأى عندى أن نتوكل على الله ربنا ، سبحانه وتعالى ، فان الأمر بيده ، وما يضرنا اذا متنا شهداء ، فان الله تعالى يعلم أنهم قد بغوا علينا ، وقد قال تبارك وتعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقـوا الله واعلموا أن الله مع المتقين» ٠٠ فما بقى لنا الا التسليم لله فى الأمور كلها ، ونقاتل الى أن نقتل ، والسلام ٠ وأما حريمنا وذريتنا فالذى خلقهم هو أرحم بهم منا ٠

ثم قال : يا قوم ، نحن أقمنا هاهنا يومنا ، وقد ثقل على أهل هذه القرية من جهة الأكل والعليق ، والرأى أن نرحل الى قرية أم دينار (★) ٠

ثم أمر السلطان بالرحيل ، وقام من وقته وسـاعته ، فقامت جميع الأمراء الذين بقوا معه من الأعيـان ، وعـلى رأسهم شاربك والأمير قانصوه العادلى والأمير قانصوه كرت، والأمير تنمر نائب الاسـكندرية ، والأمير دولتباى ، والأمير أبرك رأس الجلبان ، وباقى الأمراء الذين تقدم ذكرهم ٠

(★) قرية أم دينار ، قرية قديمة من قرى مركز الجيزة ، يقال ان هاجر أم اسماعيل عليه السلام من أهل هذه القرية ، وقد ذكر المقريزى أن هذا خلط بين أم دينار وأم دنين ٠

فما كانت غير ساعة حتى وصلوا الى أم دينار ، وتلقاهم أهلها أحسن ملتقى ، وباتوا تلك الليلة ·

فلما أصبح الصباح ، قدم عليهم خيال من أهــل تلك البلاد وهو يصيح بهم : الخيل قد أخذتكم ·

فما استتم كلامه حتى أظلم البر من شدة الغبار وكثرة الخيــل ·

فلما لاح لهم ذلك الغبار ركبوا وخرجــوا الى الحــرب والقتال ، فالتقوا من غير ترتيب اليمين والشمال ·

والتقى الجمعان ، فوقع بينهم من الحرب ما يعجز عنه الوصف ، فلله در الأمير شاربك وقانصوه العادلى ، وما فعلوا هذا اليوم مع هذه الجموع ! ·

وأما الأمير قيت الرحبى ، فانه تصادم مع قانبردى الغزالى فى حومة الميدان ، فاقتتلا قتالا شديدا حتى تحيرت النظار فيما وقع بينهما من الحرب ، ثم تقارب بعضهما من بعض حتى تقابضا بالأطراف ، فلم يقدر قانبردى الغزالى أن يتعتع قيت الرحبى من سرجه مــع أنه رجــل كبير السن فى عشرة التسعين ، وقد قعد فى الحبس محبوسا سنين ، ومع ذلك لم يتغير له لون ·

فعلم الغزالى من نفسه الخسة ، ودخــل عليــه الجبن ، وقال فى نفسه ، اذا كان هذا فعل هذا الشيخ الهرم ، فكيف لو وقعت مع شاربك ·

ثم انه شجع نفسه ، وأطلق الأمير قيت الرحبى ، ثم بعد عنه ، واستعدل عليه بقنطاريته من وراء ظهره ، فقلبه عن جواده ، وأراد أن ينزل ويقطع رأسه ، واذا بفارس صرخ عليه صرخة أفلجته ، وطعنه فى خاصرته طعنة قلبته عن جواده ، وانثنى ذلك الفارس راجعا الى الحرب والقتال، فالتهى الغزالى بنفسه عن الأمير قيت الرحبى •

فبادر الأمير قيت الرحبى الى حصانه فركبه ، ودكس خلف ذلك الفارس الذى كشف عنه فاذا به الأمير شار بك ، فدعا له من صميم قلبه ، وأراد أن يكون معه فى القالب ، ومازال يشق الصفوف ويفرق الألوف حتى عجز وكل وبطل جواده ، وكلت سواعده •

فلما علم من جواده العجز التفت وانثنى راجعا حتى خرج من المعركة ، فوجد خيلا أقبلت من كبد البر ، لا يحيط بها الحصر ، واذا بهم عرب غزالة •

كان رسم لهم السلطان سليم أنهم يجتمعون مع العسكر هناك ، ويقاتلون الجراكسة ، فصادفوه على هذه الصفة ، وقد بطل حصانه ، فرشقوه بالحراب ، فمنع عنه اللبس ، فصادفه منهم سهم دخل فى فؤاده ، فوقع على وجه التراب ، فنزلت عليه النهابة فعروه وأخذوا ما كان عليه ، وقتلوه •

هذا ما كان من أمر الأمير قيت الرحبى •

وأما الغزالى ، فان مماليكه سارعوا اليه لما رماه شار بك وحملوه الى وراء حتى أدخلوه فى الوطاق ، وأسقوه السكر ، ووجدوا جرحه سليما •

وأما الأمير شار بك ، فلازال يقاتل قتال الجبابرة والفراعنة حتى كل من تحته الجواد، وتضاعف عليه الجراكسة وزاد ، وطلعت عليهم العربان التى فى تلك البلاد ، وصاحت عليهم المدافع والبنادق وملأت الفؤاد ، وفى كل رمى كانت تتزلزل تلك البلاد .

فحضرت صفوف الروم كالبحر الزاخر ، وبقيت الأحجار والرصاص نازلة كالأمطار ، وصارت المدافع صائحة والحديد مع الأجساد والرءوس طائرة .

قال الراوى : كان مع السلطان سليم ثمانمائة مدفع خلى منهم مائتين فى الشام ، وجاء معه بمصر ستمائة ، منهم مائة وخمسون مدفعا كبيرا ، والبقية ضربزانات كان طول كل واحدة منها خمسة وعشرين شبرا ، وكان يسحب كل واحد من الصغار أربعة رءوس خيل ، وأما الكبار فكان كل واحد يسحبه ثلاثون أو أربعون من الخيل ، وكان كل واحد منها مكسيا بجوخ أحمر .

ولما دخل مصر كان أول المدافع فى الريدانية وآخرهم فى الخانقاه ، وكان عسكره كالنمل فى الوادى ، وكان على يمينه خيالة راكبون ، كل واحد فى يده مزراق ، وفيهم بيارق حمر ، نحو عشرين أو خمسة وعشرين ألفا ، ومثل ذلك على شماله ، كلهم خيالة بيارق صفر ، وقدامهم من اليكنجرية نحو عشرين صفا ، كل صف لا يعد ، وقدامه صفوف بالأعلام والطبل خانات والوزراء والباشوات وكل من جابوه من الجراكسة يقطعونه قدامه ، وان كان رجلا كبيرا أو أميرا تبعوه مكتوفا الى السلطان سليم ، ويقطعون رأسه

قدامه ، وهو واقف فوق الحصان ، وقدامه مكشوف ، والسعاة قدامه بطاسات من ذهب ، نحو أربعمائة ، وفرقة فى رءوسهم الريش الأبيض مشاة ، وفى أيديهم سهام يسمونها صولا ، فكلهم كانوا يقفون قدامه مربوطى الأيدى ، وهم ينظرون الى الأرض بأدب .

وفى رواية سبعة أعلام بأسماء أجداده ، مكتوب عليها أسماؤهم بالذهب ، وأربعة وعشرون علما باسم السلطان سليم ، وكان مكتوب فى بعضها ، انا فتحنا لك فتحا مبينا ، وفى بعضها ، نصر من الله وفتح قريب ، وكان معه علم أبيض أكبر من سائرها ، سألت عنه ، فقالوا ، علم الاسلام .

ونرجع الى سياق الحديث ، وهم ، أى الجراكسة فى ذلك الحرب الشديد والقتل المزيد اذ لاح لهم غبار حتى سد الأقطار ، فتنحى كل فريق عن الآخر حتى يروا ما تحت ذلك الغبار ، فما مكثوا غير ساعة حتى وصل أول الخيل وهم يتصايحون ، نحن فرسان غزالة ، ذوو الكفء والكفالة ، اليوم ترون يابنى جركس الموت الأحمر ، وتذوقون من سيوفنا الوبال الأكبر ، ويفنى جمعكم وتفرغ كثرتكم ويقطع أصلكم وفرعكم .

وكان المتكلم بهذا الكلام أميرهم وكبيرهم سلام بن خبير وأخاه حمادا وهما كبراء القوم .

فقصد سلام بن خبير الأمير قانصوه كرت ، فوقع بينهما أنداب من الحرب تحير الناظرين ، وحمل كل واحد منهما على صاحبه ، وأظهر فنونه وعجائبه .

وحملت فرسان غزالة علـى الجراكسـة حملة واحدة ، وحملت الروم من الجانب الآخر ، وأخـذوهم بواسـطة ، فلا تسأل عما قاسـوا من الحـرب والطعن والضرب فى ذلك اليـــوم ٠

فضايق سـلام بن خبير الأمير قانصوه كرت حتى رماه البحر ، وما بقى معه سوى عشرين نفرا من مماليكه ، والذين مع سلام نحو الألف أو أكثر ٠

ولما وقع الامير قانصوه كرت فى البحر ثقل على الفرس من لبس الحديد ، وقد كان الفرس قد كل من الجـرى ، فلم يقـدر أن يعـدى الى ذلك البر ، فغرق هو وفرسـه وغالب مماليكه ، وذهب تحت الماء ، وما سلم منهم الا القليل ٠

فكان رحمه الله حسن السيرة والأخلاق ، وكان اذا رآه الانسان يقول تبارك الخلاق ٠

وأما سلام بن خبير ، فانه رجع على الجراكسـة رجعـة منكرة ، وهو ينادى ، بالأخذ الثار ٠

فوجد شاربك على ما هو عليه من الحرب الشديد ، فلله دره من فارس الأعـداء ، فارس فى مائتى فارس ، يقـاتل ألوفا ، فوقعت الجراكسة فى كفة النقصان ٠

فبينما هم كذلك وفى هذه الحالة واذا بعجاج قد ارتفع الغبـار وثار من ناحيـة أرض وردان (★) ، وهم يصيحون

(★) ضيعة وردان ، ويذكرها على مبارك فى خططه انها خربة وردان ، وكانت قرية فى حدود الجيزة ، وقد تخربت من زمن الفتح ، ويقال ان محلها هو المحـل المعـروف بخمسينات وردان ، وان بها قبور جماعة من الصحابة ٠

بالنصرة لآل عثمان : اليوم يابنى جركس ، نذيقكم الهوان ويحل بكم النقصان ·

فنظروا اليهم واذا هم قانبردى الغزالى ومن معه قد جاءوهم من جهة أخرى ، فبقيت الجراكسة لا يعرفون من يقاتلون والى أين يذهبون ·

قال صاحب الحديث : ان القوم لما وصلوا ضربوا لهم ميدانا ، ثم ان الأمير قانبردى الغزالى المارق من أبناء جنسه برز الى حومة الميدان ، ونادى بأعلى صوته ، يا آل جركس ، نظرتم قوتكم وشوكتكم ، ونظرتم ما تكون دولة آل عثمان ودولتكم ، أين شجعانكم ، أين فرسانكم ، أين سلطانكم ؟ عرفتم مقداركم وندامتكم ، وأنا أحد عبيد لحضرة السلطان سليم الملك العظيم ، صاحب القوة والجيش الكاسر ، منتشر العساكر ، قاصر القياصرة ، كاسر الأكاسرة ، قاتل الفراعنة والجبابرة ، أما معكم أحد من الشجعان يبرز الى الميدان ·

فقال السلطان طومانباى للخاصكى(★)الذى بين يديه :

ـ ابرز اليه ·

فبرز من وقته ، ولما صار في الميدان قال له ذلك الفارس ، الذى هو قانبردى الغزالى :

ـ يا خاصكى ، ان روحك ضيقت عليك حتى جئت بها الى الهلاك ، استغنم السلامة ، وارجع الى أهلك ·

(★) الخاصكى واحد من الخاصكية وهم الذين يلازمون السلطان فى خلواته · ويسوقون المحمل الشريف ، ويتعينون بكوامل الكفال ، ويجهزون فى المهمات الشريفة والمتعينون بالأجرة ، والمتقربون فى المملكة ، وقد كان عدد الخاصكية فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون أربعين خاصكيا ، ثم ازدادوا على ذلك حتى صاروا فى أيام الملك الأشرف برسباى نحو ألف خاصكى ، ومنهم من كان صاحب وظيفة ، ومنهم من ليس له وظيفة ·

فقال له الخاصكى : وأنت من آين يا أنجس العرب ، حتى تبهتنى بهذا الخطاب ٠

فان قانبردى الغزالى لما جاء فى هذه المرة لبس لبس العرب ، وتكلم بكلامهم ، وتلثم حتى لا يعرف ، فما ظنه الخاصكى الا بدويا من عرب غزالة ٠

ثم إن الخاصكى قام في سرجه وطعن طعنة بالمزراق فخرج من يده كالبرق الخاطف ، فلما نظرها قانبردى الغزالى جاءت قاصدة صدره ، انحرف لها فى ظهر الجواد وخطفها من الهواء ، ثم صاح على الخاصكى : خذ حربتك فانك مقتول بها ، ثم هزها وطعنه بها ٠ فغطس عنها الخاصكى ، فصبر عليه حتى استوى على سرجه وعاجله بها قبل أن ينظرها ، فوقعت فى نحره ، فوقع على الأرض طريحا ٠

ثم ان قانبردى الغزالى جاء فى الميدان وطلب البراز ٠ كل ذلك ولم يعرفه الجراكسة وما يظنونه الا بدويا من الفرسان المجنورة ، فانهم لو عرفوه لرموا بأنفسهم عليه جميعا ، وقطعوه بسيوفهم ، فانه آول من خانهم ، وأغرى عليهم أعداءهم هو وخاير بك ، فانه لولا هذان الاثنان ما كان السلطان سليم يتجول ويدخل أرض مصر مع أنه كان لا يتنزل عليه بعد أخذه أرض مصر انه يعمل باشا من جانبه آحدا من الجراكسة ، ولا يعطى لأحد ذلك من أمراء الجراكسة لتقدم اطاعته ، فانه كان له عزم وبأس وعظمة وتكبر وتجبر ، وكان قهارا سفاكا للدماء ، ما كان يرحم فى محل السياسة ، ولا يشفق على كبير ولا على صغير ، وكانت همته اذا عاش أن يأخذ الربع المسكون من آيدى الملوك المتنوعة ، ويصير هو سلطانا على جميعهم ٠

وكان سبب مجيئه الى مصر كثرة العناد كان حصل من الأمراء ، وقتل الأولاقية ، وعدم طاعته على السكة والخطبة باسمه ، وكان محركه خاير بك ، ولكن لكل شيء آفة من جنسه ٠

فان تيمورلنك لما خرج على الملك الناصر فرج بن برقوق أخرب حلب والشام ، وأطلق فيهما النار بعد أن نهب جميع ما فيهما ، ولا قدر أن يتجول ويدخل مصر ٠ وفى الحقيقة ان السلطان سليما زاد على تيمورلنك بهذه المدافع والبنادق والضربزانات التى اذا سيبوا منها طلقا تزلزل الدنيا وترعب القلوب ، ولكن اذ أراد الله بأمر هيأ أسبابه ٠

ونرجع الى سياق الحديث ، فلازال قانبردى الغزالى تبرز اليه الفرسان ، واحدا بعد واحد حتى قتل منهم عشرة ، فهابته الفرسان وقالوا قد تعجبنا من هذا الانسان ، فما عرفنا هل هو من الانس أم من الجن ٠

فقال لهم قانبردى : يا آل جركس ، أريحوا أنفسكم ، وآبرزوا الى سلطانكم طومانباى ، اما أن يقتلنى واما أن أقتله ٠

فلما سمع السلطان كلامه تعجب منه ، وقال : ألا تنظرون الى قوة هذا الفارس واقدامه وشجاعته وكثرة كلامه ، فهل فيكم من أحد يكفينى شره ؟!

فقال قلج : أنا يا مولانا السلطان ٠

فقال : ابرز اليه ، وخذ حذرك ، فانى أراه سريع الحركات ، ولا يخلو أن يكون بطلا من الأبطال المجنورة ،

ولولا أن فرسى قد بطل لبرزت اليه ، ولا أظن أن فيكم أحدا يقاس به فى فروسيته ٠

فقال له قلج : أنا أكفيك شره بعناية الله تعالى ٠

ثم برز اليه قلج ، وكان من الأمراء الأربعينات ، وقد كان تعين له أن يصير أمير مائة مقدم ألف موضع الأمير كرتباى الوالى ، ولو كان الأمير شاربك حاضرا فى ذلك الوقت ما تركه يبرز الى هذا الفارس ، فانه كان من شدة محبته له يفديه بنفسه فى كل أمر صعب ٠

وفى الحقيقة أن الجراكسة لو عرفوا أن هذا الفارس هو قانبردى الغزالى ، ما برز اليه الا السلطان طومانباى بنفسه أو الأمير شاربك ، فانهما يرجحان عليه فى الفروسية ٠

ثم نزل اليه الأمير قلج ، وحمل عليه ، فوقع بينهم من الحرب أنداب حتى تعجب الناس من هذين الفارسين ٠

ثم ان الأمير قلج ضرب قانبردى ضربة على رأسه بالسيف قطعت الخوذة ، ونزلت الى الرفادة والساتير فجرحته جرحا خفيفا ٠

فضرب قانبردى الغزالى ضربة على يمين الأمير قلج فأبراها كما تبرى القلم ، فوقعت الى الأرض هى والسيف ٠

فانبهت الأمير قلج واندهى (٧٩) وتخيل ، فهجم عليه قانبردى وضربه ضربة أطاحت رأسه عن جسده ٠

---

(٧٩) عامية بمعنى ذهل ٠

فلما عاينت الجراكسة ذلك عسر عليهم قتل الأمير قلج، وقالوا ما يقايس هذا البطل الا الأمير شاربك أو السلطان طومانباى .

ثم ان هذا الفارس جال فى هذا الميدان يمينا وشمالا وصار يعجب بنفسه ويتمايل على ظهر فرسه ، وصار يشتم الجراكسة بالعربى ، ويقول لهم : يا لئام غير كرام ، من يقاوم السلطان سليما ، أو يقاوى سلطانه أو يثبت بين يديه يا كفار ، يا فجار . وأفحش فى كلامه حتى أفحم قلوبهم ، وكل ذلك ولم يعرفوا أنه قانبردى الغزالى .

وقال لهم : اذا كان سلطانكم يزعم أنه فارس أو يقاوم الفرسان فليبرز الى حومة الميدان ، وينظر بنفسه ان كان يرجح أو يقع فى كفة الخسران .

فقال له السلطان طومانباى : هأنت جئت الينا ، هات ما عندك من فروسيتك وشجاعتك ، ولا تبق ممكنا ، فان السلطان طومانباى قد تفرس فى القتال وصار القتال سجيته وصنعته ، فما بقى يتكلف لشىء .

ثم ان السلطان طومانباى قال له :

ـ انظر يا أخا العرب ، لا أقاتلك ولا أحاربك حتى أتكلم معك كلاما ، لعل أن يكون فيه صلاح .

فقال له : قل ما عندك .

فقال له السلطان طومانباى : أريد منك أن تخبرنى من أنت أولا ، وما الذى حملك على قتل فرسانى من غير أذية

سبقت منى اليك ، فانى والله ما أدركت نفسى ولا أعلم أنى بغيت على أحد ولا ظلمت أحدا ، ولا افتريت على أحد ، وما أمر سلطنتى هذه ، والله ثم والله لم يكن فى غرضى ولا خاطرى ، وانما الأمير علان والأمير كرتباى الوالى والأمير شاربك أبرموا على وقالوا ، لا نرضى لهذا الأمر الا أنت ، فعلمت أنه أمر ابتلانى الله به ٠

وأما هذا السلطان سليم الذى تدعى أنه ملك عادل ، وأنه لا يحب الجور ، كيف يجوز له أن يتعدى علينا ، أو يرمى علينا بالنار والمدافع ، ويقتل رجالنا ويسبى نساءنا وأولادنا ، ونحن مسلمون مؤمنون موحدون قائمون بحماية الدين ، فلما أن بغى علينا وتعدى حده وجب علينا أن نقاتل عن أنفسنا وأولادنا وحريمنا وأموالنا ، وفى ذلك اذن من الله تعالى ، كما قال سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز ، وهو أصدق القائلين : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ٠٠ » الآية (٨٠) ٠

ونحن فى الزمن الاول قدرنا عليهم مرارا وعفونا عنهم وهم الآن قدروا فما عفوا ، وملكوا فما رجعوا ، وفعلوا فينا ما لم يفعلوه فى عبدة الأصنام والصلبان ، وهم جيرانهم ومحاذون لهم ، وأما نحن فانا مسلمون موحدون ٠ فانى سألتك بالله تعالى ، وبمحمد رسوله صلى الله عليه وسلم أن تكون معنا ونكون نحن وأنت اخوانا من الآن ، أو تتركنا لا لنا ولا علينا ، ونحن نستعين بالله عليهم ، وتكفينا شرك ٠

وان اخترت الحرب والقتال فانى قاتلك الا ان عرفتنى بنفسك ، فانك قد قلت لا تريد الا أنا ، فهأنا قد جئتك

(٨٠) البقرة ، الآية ١٩٤ ٠

بنفسى ، واكشف لثامك فانى متحير فيك ، وأشكل على أمرك ، فلا أنت بدوى تعرف ولا جركسى تعرف ، وكلامك لا يشابه كلام الروم ولا كلام العرب ، وانى أقسم عليك بالله الذى خلقنى وخلقك الا ما أخبرتنى من أنت ٠

فكشف له اللثام فاذا هو قانبردى الغزالى ٠

فلما رآه السلطان طومانباى غاب عن صوابه من شدة القهر ، وقال له : « يا ابن ألف قرنان (٨١) ، ونسل أولاد الزنا ، يا خبيث يا ملعون يا ابن الملعون ، يا خائن يا ابن الخائن ، ولهذا تبعث الخوان ، فان الذى ذهبت اليه وصرت من حزبه شهرته الخيانة ، فان اسمه سليم خان ، لا كان ٠

وأنت أيضا قد عاهدتنا وخنتنا وعاكستنا ، وأغريت علينا أعداءنا ، فبالله العجب ، كيف طابت نفسك الخبيثة بذلك ؟ ولكن صدق الله العظيم « الخبيثات للخبيثين »(٨٢) ٠ الآية ٠

ثم ان السلطان طومانباى حمل عليه حملة منكرة ، فما ثبت بين يديه ، الا وقد طعنه السلطان طومانباى طعنة

---

(٨١) أى يا قواد أو معرص وهى كلمة وردت فى النص قبل ذلك ، وفى العامية المصرية يوصف القواد حتى الآن بذى القرنين أو أبو قرون أو ابو قرنين ٠٠ ومثل هذه الالفاظ تكثر كثرة مذهلة فى مجتمع المماليك (العبيد البيض) ويرجع هذا الى أن أصولهم لم تكن معروفة لديهم ، ولا لدى الشعب الذى يحكمونه ، فهم فى غالبهم قد جلبوا صغارا ، وتم تدريبهم ، وتعليمهم ، وتدبير محل اقامة لهم فى معسكرات ، وينطبق هذا أيضا على مجتمع الانكشارية (الينكجرية) ، والاختلاف فقط فى العرق لا فى طبيعة الاجتماع ، فمماليك الدولة المملوكية الأولى فى غالبهم أتراك ، ومماليك الدولة المملوكية الثانية فى غالبهم جركس ، أو شركس ، والانكشارية فى غالبهم دفشرمة وهى ضريبة الدم التى كانت تؤخذ من أطفال البلقان ٠

(٨٢) سورة النور ، ٢٦ ٠

بقنطاريته قلبته عن ظهر فرسه ، ثم وضع القنطارية على صدره وأراد أن يقتله بها ·

فقال له : انى سألتك بالله تعالى ، وتوسلت اليك برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبسر شيخك سيدى أبى السعود الجارحى أن تجعلنى عتيقك فى هذا اليوم ·

فلما سمع السلطان طومانباى ذلك القسم رق قلبه له ، وذلك من كمال ايمانه ·

فقال له : على شرط أنك تكفينا شر هذا العدو الذى جئت به الينا ، وبشرط أنك لا تسحب فى وجه أحد من آل جركس سيفا ·

فحلف له الغزالى على ذلك ، وقد شدد عليه فى الايمان·

فعند ذلك رفع السلطان القنطارية عن صدره ، وقال له : قم يا خبيث ·

فقال الغزالى وهو ينفض التراب عن رأسه ، وجاء الى رجل السلطان ، وقبلها فى الركاب ، ودعا له ، وهو يكاد أن يبكى ندما على ما فعل ·

وسار الى فرسه وركبها وقال لجماعته : ارجعوا عن القتال ، فقد حلفت له انى لا أقاتله ، وانى واف له بالايمان، ولكن أخاف اذا رجعت اليه يقتلنى ، وانى راجع من هنا الى محل آخر أقيم الحرب فيه ، وأغير الملبوس الذى رآنى لابسه ·

وأما طومانباى ، فانى لم أر الا أن دولته قد زالت لأنه لو قتلنى لاكتفى شرى ، ولكنه قدر على وعفا عنى ، الى أن وصلت السكين الى العظم .

ثم انه قصد نحو سنجق السلطان سليم ، وفي هـذه الساعة وصلت العساكر التى خلاها السلطان سليم مع الوزير يونس باشا فى مصر لمـا عدى الى بر الجيزة لقتـال الأمـير شار بك وطومانباى

وكان السبب فى قدومهم ارسال مكاتيبه الى يونس باشا فى الليلة الماضية ، يأمره يعدى الى بر انبابه بجميع من معه من العساكر .

ولما وصلت هذه العساكر فى تلك الساعة الى السلطان سليم ، اشتد ظهره وقويت نفسه .

وأما السلطان طومانباى ، فانه لما عفا عن الغزالى ورجع الى سنجقه ، لم ير تحته الا جماعة قلائل من مماليكه ، وبقية الأمراء تشتتوا فى الحرب والطعن والضرب ، ولكن الكثرة غلبت الشجاعة ، فلله درهم من فئة قليلة تقاتل هذه الجموع والعساكر التى لم يعلم لها أول من آخر ! .

فاندهشت عقولهم وتحيروا فى أمرهم .

فقال لهم الأمير شاربك والأمير قانصوه العادلى :

ـ يا آل جركس ، اثبتوا فان القتال ليس بكثرة العدد والمدد ، وانما هـو بزيادة الصبر والجلد ، واقرءوا قوله تعالى : «وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع

الصابرين ..» (٨٣) وهأنا أمامكم وفريد عصره السلطان طومانباى ـ نصره الله تعالى ـ يرد عنكم ، فدونكم والحرب ، ما دمنا فى قيد الحياة ، فلا تخافوا من أحد ، ولا يغرنكم كثرتهم ، فانى وعزة الله تعالى لولا هذه النار التى معهم لقاتلتهم بنفسى ، ولا اكترثت منهم أبدا ، فانى ما رأيت فيهم فارسا أعجبنى كره وفره ، ليس لهم بأس الا بهذه المدافع والبندقيات ، وذلك لا يفيد منهم شيئا ، لأن كل انسان جعل الله له عمرا لا يزيد بهروبه ولا بثباته ينقص ، وقال العارفون ، الشجاعة صبر ساعة .

واذا هم بغبار قد ثار من جهة الميمنة فنظروا اليه ، واذا بصياح آخر وغبار قد ظهر من جهة الميسرة ، ثم بصياح وغبار قد ظهر من خلف أظهرهم .

فتحيرت الجراكسة فى أنفسهم ، الى أين يذهبون .

وسبب ذلك أن قانبردى الغزالى لما رجع منهزما من السلطان طومانباى الى السلطان سليم وأخبره بأنه صدمهم وقتل منهم عشرة فوارس، ولكن شاربك وطومانباى وقانصوه العادلى حجبونى عن مرادى ، فاخترت الرجوع اليك بشىء أريد أن أفعله ، ففى ساعته نشيل الجراكسة .

فقال له السلطان سليم : وما هو يا أبا منصور ؟

قال : تأمر اياس باشا أغا اليكنجرية يذهب من جهة وأنا أذهب بمن معى من جهة أخرى ، وتأمر يونس باشا أن

---

(٨٣) سورة البقرة ، الآية ٢٤٩ .

يأتى من جهة بمن معه من العساكر ، وأنت بمن معك من جهة أخرى ، ونطبق عليهم ، فانهم فئة قليلة ، ما يثبتون معنا ولا ساعة واحدة ٠

فقال السلطان سليم : نعم الرأى !

ثم أمر بما أشار به قانبردى الغزالى ٠

فما مضى غير ساعة حتى تفرقوا كما تقدم ، ثم أحاطوا بالجراكسة من كل جهة ٠

وجاءت عرب غزالة من جهة أخرى ٠

والسلطان طومانباى ، والأمير شاربك ، والأمير قانصوه ، والأمير يحيى بن أزبك ، والأمير آبرك رأس الجلبان ، والأمير دولتباى ، والأمير رزمك الناشف ٠

انظر ما فعل هؤلاء الفرسان القليلة فى هذه الألوف المؤلفة والجموع التى لا تحصى من الكثرة من كل جنس ٠

فصارت هذه الأمراء المذكورون متحدين ، الركاب فى الركاب لا يفارق بعضهم بعضا ، وبقية العساكر لا يدرون أين يذهبون ، ولا من يقاتلون ٠ وما قتل من الجراكسة أحد بالسيف والعود ، وانما كان القتل فيهم بالبندق ٠

وأما الأمراء المذكورون فلم يخرج منهم أحد ٠ ٠

وفى هذا اليوم قتل من الجراكسة أكثر من كل يوم بهذه العملة التى عملها قانبردى الغزالى ، وغالب القتل

ما كان الا بالبندق والضربزانات وآلات النيران على سائر الصنوف ·

وتم النهار ، ونادى منادى الحرب بالانفصال، وافترقوا على هذا الحال ، وقد تخلت الجراكسة عن بعضها ، ورجعوا وهم لا يعرفون بعضهم بعضا من شدة ما حصل لهم من هول ذلك اليوم · وليس الخبر كالعيان ·

قال الراوى : ونزل السلطان طومانباى على قرية وردان (٨٤) ، ونزل السلطان سليم على قرية أسفل منها على شاطىء النيل السعيد ، بحيث ان كل عسكر منهم ينظر الآخر رأى العين ، وباتوا تلك الليلة فى أسوأ الأحوال من شدة ما حصل لهم من القتال ·

ثم جلسوا بعد ما أكلوا الطعام جاء لهم من تلك القرية التى باتوا بها ، وأخذوا فى ضرب الرأى ·

فقال لهم السلطان طومانباى ، والله يا اخوانى ، ما أظن الا أن دولتنا قد زالت ، فاننى أرى أننا كلما فعلنا شيئا نريد أن تكون فيه المصلحة فما يكون أمرنا فيه الا بضد ما نريد ، وأرى أن أعداءنا أمرهم يزيد ، فكم قتلنا منهم من ألوف ، ومع ذلك أرى الأمر كلما له يزيد (٨٥)، وأن الغالب على ظنى زوال ملكنا · وأن الظفر لعدونا ، وانظروا قول القائل :

ان أقبل السعد قم قائما واقتبس من الثلج أن شئت نارا
وان رقد السعد فارقد له فما اللج فى العكس الا خسارا

(٨٤) فى محافظة الجيزة الآن ·
(٨٥) المعنى : كل مادة يزيد ·

ثم ان السلطان طومانباى قال لهم :

– يا قوم ، ان هذه الواقعة أضرت بنا وهدمت قوتنا بفقد الأمير قانصوه كرت ، فانه كان ركنا ، ولا بقى لنا رأى الا أن نذهب الى حسن بن مرعى وابن عمه صقر ، شيوخ عرب محارب ، فانى قد وليتهم عليهم ، وأطلقت حسن بن مرعى من الحبس بعد أن كان المرحوم السلطان الغورى كتب على قيده «مخلد» ، وقد أطلقته لما أن صار الأمر لى ، وأخذت عليه العهود والمواثيق والأيمان المغلظة أن يكون معى ظاهرا وباطنا ، ويقوم معى بالقلب والقالب اذا احتاج الأمر لذلك . وما نرى أحسن من سيرنا اليه ونكون نحن وهو على قلب رجل واحد ، ثم بعد ذلك ندبر أمرنا وننظر ما يكون من جانب الله تعالى ، وهو يعلم أنهم باغون علينا .

ثم انه أمر بالرحيل من وقته ، وكان ذلك الوقت نصف الليل .

فقال له بعضهم : فان قام العدو علينا فى هذا الليل ، فكيف يكون الأمر ؟

فقال له السلطان : هل رأيت أو سمعت أن الروم تقاتل ليلا ، فهذا الأمر لا يكون ، وانما اعتماد هؤلاء القوم على النار ، والرماة مشاة لا يقدرون على المشى بالليل .

فما كانت الا ساعة حتى ركبوا وساروا من وقتهم وهم مستيقظون لأنفسهم حتى وصلوا الى مدينة سخا (★) .

(★) سخا ، بلد من أعمال محافظة كفر الشيخ ، وكانت كورة ، وقصبة لكورة الغربية فى عهد الدولة الأيوبية وكان بها دار الوالى واليها ينسب الامام الشيخ على السخاوى المقرىء النحوى اللغوى – والحافظ الشهير محمد شمس الدين السخاوى صاحب كتاب الضوء اللامع فى أهل القرن التاسع .

وكان حسن مرعى وابن عمه شكر قاطنين بها ، وعربهم منتشرين بها الى سنهور (★) ، فنظروا الى خيل طومانباى وقد أقبلت ، فبادروا الى خيلهم ، فركبت الفرسان وسادات القبيلة ، وركب الأمير حسن بن مرعى أمير العرب والحاكم على تلك البلاد حتى قارب عسكر السلطان ، فترجل عن جواده هو وأولاد عمه وعشيرته .

ثم قدم عليه السلطان ، وقدم هو على السلطان ، فقبل يديه وطلب من السلطان أن ينزل الى منزله للضيافة .

فقال له السلطان : ما نحن فاضون للضيافة ولا لغيرها ، والعدو فى أثرنا ، وقامت علينا العربان من عرب غزالة ، لا لقاهم الله خيرا ، خصوصا سلام بن خبير ، لا سلمه الله تعالى ، وما جئت لك الا لتنظر لنا محلا نحتمى فيه ، ثم ندبر أمرنا فيما فيه الصلاح لنا .

فقال له الأمير حسن : اذا كان الأمر كذلك ، أنا أعرف لكم محلا ، يقال له الغابة ، وهو واد كبير واسع ، وافر المياه ، اذا تحصن فيه القوم ووقف على بابه رجل واحد منع من يدخل ولو كانوا ألوفا من الناس ، فان هذا الوادى لا يمكن أن يدخله غير فارس ، ولا يمكن أن يدخل منه اثنان متساويان ، لأنه ضيق جدا ، ومن الجانبين أرض ربو سبخة ، كل من زل بقدمه وداس عليها صاخت به (٨٦) ، وهذا الوادى هو

(★) سنهور بلد من محافظة الغربية واقعة فى غربى الترعة بالقرب من دسوق ، وقد ذكر ابن اياس أن حسن بن مرعى وابن عمه شكر مشايخ عرب البحيرة ، وأن طومان باى توجه الى ضيعة تسمى تروجة بالغربية فلاقاه حسن بن مرعى ، وهو تناقض ظاهر فى رواية واحدة لابن اياس .

(٨٦) المعنى : ساخت به أى غاص بها .

قلعتنا اذا قصدنا أحد من أعدائنا ، وعلمنا أنه لا قدرة لنا عليه نذهب الى هذا الوادى فنأمن على أنفسنا منه ، فما لكم أيها السلطان أعدل منه ولا أحسن منه .

فقال له السلطان : اركب وسر بنا على بركة الله اليه ، لعل الله أن يحفظنا به ، ونتحصن ، وما يكون الا ما يريده الله .

فساروا من وقتهم حتى وصلوا الى فم الوادى الذى يدخل منه اليه .

فلما رآه السلطان وقف وغطس قلبه ، وانقبض خاطره وأحس بقلبه أنه لا يحصل له من هذا الوادى خير أبدا ، فحبس فرسه ووقف مكانه ، وتحير فى أمره ، والتفت الى أمراء دولته ، وقال لهم :

ـ انى مخبركم بمنام رأيته من مدة يومين رأيت نفسى انى فى هذا الوادى بعينه ، وأنا على جانب البحر المالح، وقد قامت فرتينة عظيمة ، وأظلمت الدنيا ولا بقى أحد مع أحد، واذا بخمسة كلاب سود قد أحاطت بى، وأرادت أن تفترسنى، فجذبت سيفى وأردت أن أضربهم به ، واذا به قد طار من يدى ، وسقطت عمامتى ، ودقت الكلاب على وقبضونى ، فصرت بينهم كقطعة لحم ، كل واحد ينتشنى من ناحية فأيست من نفسى ، فانتبهت مرعوبا ، وقد عمنى العرق .

فلما سمع منه الأمراء هذا المنام تشوشت خواطرهم ، وقال بعضهم :

ـ ان هذه الرؤيا لا تدل على خير ، وأن هذا مما يدل على آن الظفر لعدونا ، والنصرة له علينا ، فان وقوع

العمامة يدل على زوال المنصب ، وأما قيام البحر فانه قيام هذا السلطان علينا ، وأما عدم السيف فانه يدل على عدم القوة ، وأما الكلاب فانهم رءوس الأعداء يقبضون عليك ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، فان صحت هذه الرؤيا فقد والله زالت دولتنا وانقضت مدتنا .

فقال لهم السلطان : ما بقى لنا حيلة نحتال بها ولا منعة نستعين بها ، قد قاتلنا حتى تلفت نفوسنا وتثلمت سيوفنا ، وقد قامت الدنيا كلها علينا ، فما عسى أن نصنع .

وأما أنا فقد أردت أن أسلم نفسى ، فان كان قد بقى فى عمرى بقية فانهم يعطونى الأمان ، وان كان قد فرغ فان كنت على فراشى فانى أموت .

وأما أنتم يا أغوات فقد حاللتكم (٨٧) ، فليذهب كل واحد منكم فى ناحية الى حيث شاء وأراد .

فلما طال الوقوف قال الأمير حسن بن مرعى :

ـ يا مولانا ، انى أخاف عليكم ، ربما أن يكون العدو قريبا منكم ، فيعسر عليكم الدخول من مضيق فم الوادى ، فادخلوا بنا على بركة الله تعالى ، ثم بعد ذلك اجلسوا واستريحوا ودبروا أمركم كيف تختارون .

قال الناقل : فدخل السلطان طومانباى من باب الوادى ، ودخل وراءه الأمراء والأجناد .

---

(٨٧) أى أحللتكم من أى ارتباط أو عهد . يقال أحله من وعده أى تنازل له عنه .

فقالت الأمراء . نحن معك لا نفارقك حتى تذهب أرواحنا ٠

فلا زال بهم حسن بن مرعى حتى أوصلهم الى صدر الوادى ٠

فضربوا للسلطان خيمة على تل عال على جانب البحر المالح ، ونزلت بقية الأمراء فى خيمتهم ، فما هدأت نفوسهم حتى جاءوا للسلطان لضرب الرأى (٨٨) ٠

وأما حسن بن مرعى ، فإنه أخذ أذنا من السلطان ليرجع الى بلاده ، ويأخذ لهم الأخبار ، ويرسل لهم يعلمهم بما يقع بالتفصيل ٠

فأذن له السلطان فى ذلك ، ودعا له ٠

ثم قال السلطان لأمرائه : هذا الوادى خير لنا من قلعتنا التى كنا بها ما لم يخنا حسن بن مرعى ٠

فقالت الأمراء كلهم على لسان واحد : الله يخون الخائن ٠

ثم رجع حسن ودخل منزله ، فسألته أمه عن السلطان طومانباى ٠

فقال لها : قد أدخلته فى غابة الوادى ، وهأنا قد رجعت ٠

---

(٨٨) لضرب الرأى أى للتشاور ٠

فقالت له أمه : فما تحب أن تصنع ؟ أخبرنى بما فى ضميرك .

فقال لها : ان هؤلاء القوم دولتهم قد ولت ، وأمورهم قد حالت ، ولا سيما وعدوهم قد ملك البلاد وحكم العباد ، وولى وعزل من أراد ، وهؤلاء ما عاد لهم من الأمر الى ظهور خيلهم ، وقد تحيرت فى أمرى ، فان قاتلت عنهم فلا قدرة لى على ذلك ، وان قاتلت معهم أوقعت نفسى فى المهالك .

فقالت له أمه ، وكانت من الصالحات : يا ولدى ، الأيمان والعهود التى قد حلفتها أنت وابن عمك له ما تقول فيها ؟

فقال لها : ولهذا أنا متحير فى نفسى ، كيف أصنع .

فهو فى هذا الكلام مع والدته واذا بفرسان القبيلة قد جاءوا مسرعين ، وقد علت أصواتهم ، وهم ينادون ، اركب يا أمير حسن ، فاننا ننظر عسكرا جرارا وخيلا ملأت الأقطار .

فركب حسن بن مرعى وسار فى أول الخيل حتى اجتمع بأوائل العسكر القادمين ، واذا بهم عسكر السلطان سليم ، قد جاءوا فى طلب السلطان طومانباى .

والسبب فى ذلك أن السلطان طومانباى لما ركب فى الليل كما تقدم ولم يتبعه أحد ، وطلع النهار ، جلس السلطان سليم وحوله أكابر دولته ، وجاء الأمير خاير بك ، ولم يأت الأمير قانبردى الغزالى ، فسأل عنه السلطان سليم ، فقيل

له ، انه ركب نصف الليل ومعه خمسة أنفار من مماليكه ، وتبع السلطان طومانباى ، فهو الى الآن لم يأت ·

فخاف عليه السلطان سليم ، وقال لخاير بك :

ـ انظر الى قلة عقل صاحبك ، كيف يخاطر بنفسه ، فانهم ان فطنوا به لا ينجو منهم أبدا ، وانه ان قتل تعطل أمرنا ·

وخشى السلطان أن يطول عليه الأمر ، وحسب حساب الأعادى التى حول مملكته ·

قال : فما الرأى عندكم ؟

قالوا : الرأى ما يراه الخنكار (٨٩) ·

وأطرق رأسه مفكرا فيما يصنع ·

واذا بقانبردى الغزالى قد أقبل ·

فلما حضر بين يدى السلطان سليم قال له :

ـ أين كنت يا قنبردى ؟

قال : يا مولانا السلطان ، انى لما رحل طومانباى نصف الليل أحببت أن أنظر الى أين يذهب ، فركبت ، وتبعتهم على بعد خشية أن يدروا بى ، فرأيتهم قد سافروا الى ناحية البحيرة أو الغربية ·

فلما سمع السلطان سليم ذلك الكلام قال له : فما الرأى عندك ؟

---

(٨٩) أى السعيد الموفق ، أو الملك العظيم ـ محمد السعيد سليمان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٠ ·

قال : الرأى عندى أن تعطينى ما أريد من العسكر ، ويكون صحبتى الأمير خاير بك وأرح نفسك ، فانى أرجو ألا أرجع الا به أو برأسه ٠

فقال له السلطان : العسكر بين يديك ، خذ ما شئت منهم ٠

٠ فاختار أن يكون اياس آغا أغاة اليكنجرية بأربعة آلاف معه ، وخاير بك بأربعة آلاف خيال ٠

فأمر السلطان بذلك ٠

ففى الوقت برزت هذه العساكر ، وأمر على العساكر فرهاد باشا ، يكون سردارا عليهم ، والأمير خاير بك ، والغزالى يكونان تحت يده ، ويتقيدون برأيه ٠

فساروا فى أثر السلطان طومانباى ، وهم يسألون من أهل البلاد ، حتى نزلوا على قبيلة محارب ، وخرج لهم حسن ابن مرعى كما تقدم ٠ فلما اجتمع بهم قالوا له :

ـ انا سائرون فى طلب السلطان طومانباى ، هل سمعت عنه خبرا ؟ الى أين يذهب ؟

فقال لهم : الذى يدلكم عليه ويسلمه لكم من غير حرب ولا قتال ، ماذا يكون له عندكم ؟

فقالوا له : ان أردت شارطناك على مهما تريد ، وان جعلت الأمر لنا ولسلطاننا ولمروءتنا فيكون الذى يحصل لك أكثر مما تؤمل أنت ٠

فقال لهم : على تسليمه لكم ، وأجعل الأمر بمروءتكم ·

فضمن له الوزير فرهاد باشا أن يقدمه عند السلطان على جميع مشايخ العرب ، وأن يقطع أرضه اقطاعا الى أن يموت ، لا يؤخذ منه الدرهم الواحد ·

ثم ان الوزير فرهاد باشا خلع عليه قفطانا مذهبا من الخلع السلطانية ، وخلع أيضا على ابن عمه شكر ، ووعدهم بكل خير ·

ثم خرج حسن بن مرعى — وابن عمه وهما فرحانان — حتى دخل على والدته ·

فقالت له : ما هذه الخلعة ، ومن أين جاءتك ؟

فأخبرها بما وقع له ، وأنه التزم لهم أن يسلمهم السلطان طومانباى ·

فقالت له : أنسيت ما فعله معك السلطان طومانباى ؟ قد أطلقك من الحبس ، وأمنك بعد الخوف ، وحلفت له الأيمان بأنك ما تخونه ، فكان جزاؤه منك أن تسلمه لعدوه ، وتظن أنك اذا فعلت تلقى خيرا بعده ، والله لئن فعلت ذلك لأغضبن عليك غضبة تكون سببا لهلاكك ·

فقال لها : فما الذى أفعله وقد رهنت لسانى معهم بأنى أسلمه لهم ، واذا لم أفعل ذلك ما سلمت من شرهم ، وربما يبطشون بى فلا ينفعنى لا أنت ولا هو ·

فقالت له : ان الرأى الصواب أن ترسل فارسا للسلطان طومانباى وتخبره بما وقع ، وأنه يكون على أهبة ، ان شاء

حاربهم وان شاء هرب الى جهة أخرى ، وأما أنت فارجع اليهم فشاغلهم الى أن يطيب الطعام · فبينما يأكلون يكون طومانباى قد عدى بلادا بعيدة ، أو يكون قد تهيأ للحرب فتتخلص أنت من الجهتين ·

فوافقها على ذلك ، وخرج من عندها ، وهو متردد كيف يصنع ، ويقول لنفسه ، أين عقلك ؟ تقتدى بكلام النساء الناقصات العقل والدين ، وتترك ما يحصل لك من السلطان سليم من العز والجاه والفخر بين العربان بسبب من غدرت به الأيام والليالى ، وفاتت دولته ، وانقضت مدته ، واذا لم أمسكه أنا مسكه غيرى وفاز بالفخر والعز ، فليس هذا من الصواب فى شىء ·

ثم انه اجتمع بابن عمه شكر ، وأخبره بما قالت له أمه ·

فقال له شكر : وهل عاقل يبيع عاجله بآجله ، ولا تمل الى الكفة الناقصة فيحصل لك الخسران ·

فاتفقوا على أن يكونوا مع السلطان سليم ·

وأما السلطان طومانباى فقال لأمرائه : انى أريد أن أخبركم بما رأيت فى هذه الليلة ، رأيت أن قائلا يقول لى ، رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرئك السلام ، ويقول لك ، ان دولتكم قد زالت ، وعمركم قد فرغ ، وأنت جارنا فى الجنة بعد أربعة أيام ، ارجع عن القتال ، فلا فائدة لك فيه ، وأنا قد عزمت على رمى سيفى فى هذا البحر المالح ·

وقال لهم ، كل واحد منكم يذهب الى حيث أراد وهذا آخر اجتماعنا فى الدنيا ، والقيامة تجمعنا فى الآخرة .

قال الناقل : فبينما هم فى هذا الكلام الا وقد رأوا الخيل قد أقبلت عليهم من بعيد .

فقامت الأمراء كلهم على ساق ، وركب الأمير شاربك وبقية الامراء وأتباعهم وحطوا على عدوهم بقلوب كالحديد ، لكن العدو كثير ، وهم طائفة قليلة ، لكنهم فرسان عارفون بركوب الخيل ، وأولئك كثير غير عارفين بذلك ، لكن اعتمادهم الأقوى على الرماية بالبندق والضربزانات .

فلما رآهم الغزالى حطوا (٩٠) عليهم قال للعسكر :

فسحوا لهم طريقا حيث ان طومانباى ليس هو معهم .

فصار من عسكر الروم الذى يقرب على الجراكسة يقطعونه بالسيوف الى أن وصلوا الى آخر الجراكسة ، وهرب بعضهم من مضيق الغابة الى خارج .

وأما قانصوه العادلى ، فانه ذهب الى أصهاره من عرب قطارة ، وكان معهم نحو ألفى فارس راكبة مع القبائل التى جاءت لنصرة السلطان طومانباى .

فلما رأوه ترك الحرب وفعل بنفسه هذه الفعال ، تركوه وأخذوا صهرهم ورجعوا ، وصحبهم سيدى يحيى ابن الأمير

---

(٩٠) المعنى : حطوا عليهم .

أزبك وطلعوا من مضيق الغابة قبل وصـول العسكر مع الذين هربوا .

وأما شاربك الأعور فانه خرج قبل وصول العسكر ، وتبعه اثنان من مماليكه ، وكان بينه وبين الأمير أحمد بن بقر شيخ العرب صحبة أكيدة ، بحيث ان الأمير أحمد هـذا اذا كانت مصلحة فى مصر ما كان ينزل الا عند الأمير شاربك ، فيقوم به الأمير شاربك خير قيام ، ويكرمه غاية الاكرام ، وليس الخبر كالعيان ، وكان يقضى له جميع مصالحه من جانب السلطنة ، ويقوم يناصره على أعدائه ، حتى ان الناس كانت تقول، لولا الأمير شاربك مع الأمير أحمد بن بقر(٩١) ما كان له حال ، وكانوا يتعجبون من محبتـه له واكرامه ، وقيامه بشأنه ، ويحسدونه على ذلك غاية الحسد ، حتى ان الأمير شاربك كان يقول له : يا أمير أحمد ، طول ما رأسى تعيش لا تحمل هما أبدا، ولا تحسب حساب أحد ولا السلطان الكبير ، فان الأمير شاربك كان يحسب حساب أقرانه لئلا يسعوا فى هـلاكه ، فانه كان فريد عصره فى الفروسية وركوب الخيل ، وكان اذا ركب ونزل فى الميدان عند لعب الجريد مع الأمراء ، تحير النظار ولم يقدر أحد يقبل عليه .

وكان من شدة محبته اذا حصل له مضايقة من السلطان أو من أحد من الأمراء الأعيان يذهب الى صديقه أحمد بن (بقار) ويدبر آمره .

ولما كان من أمر السلطان طومانباى ما كان من تركه القتال ، وتسليم نفسه للعدو ، وخرج الأمير شـاربك من

---

(٩١) بقـار ، بتشديد القاف وفتحها .

الغاية ، قال فى نفسه ، ما لى بد من أن أسير الى صاحبى الأمير أحمد بن بقر (بقار) ، وأنزل عنده حتى أدبر نفسى فيما أفعل ، أما انى أسافر الى بلاد العجم وأكون مع سلطانهم أو أسافر الى بلاد اليمن ، ولله التدبير فيما يريد .

والشاعر يقول :

تحذر من صديقك كل يوم وبالأسرار لا تركن اليه
سلمت من العدو فما دهانى سوى من كان معتمدى عليه

فما زال سائرا من بلد ، والدنيا قائمة على ساق ، والعربان هاجت ، وصار كل مفعول جائزا ، وكل من كان له عدو قصده فان ظفر به قتله ، والناس مرتابون فى بعضهم فى أشد ما يكون ، حتى وصل الى النيل السعيد ، وعدى منه الى الشرقية ، ثم سار الى أن وصل الى الأمير أحمد بن بقر (بقار) آخر النهار وحده فى منية غمر (★) .

فرحب به وأنزله فى بيته ، وأكرمه غاية الاكرام ، ثم حكى للأمير أحمد بما وقع لهم مع عدوهم من الأول الى الآخر ، فكلهم تعجبوا من السلطان طومانباى لأنه أخطأ فى هذه الفعلة التى فعلها ، وتسليم نفسه لأعدائه ، يستحكمون فيه كيف شاءوا ، وكيف يرى الهوان بعد العز ، وكان يقاتل الى أن يقتل ولا يسلم نفسه ، فانهم لا يبقون عليه أبدا ، وتبقى الاهانة والذل والشماتة من الأعداء أقبح وأتعس .

فقال الأمير شاربك : قد تم الأمر ، وذهبت دولتنا ، وما بقى كلام الا التدبير فى المسير من هذه البلاد .

(★) منية غمر : المسماة الآن بميت غمر .

وقصد أن يرسل بحريمه وولده ، ويخــرج ليقصد بلادا غير هذه البلاد .

فقال له الأمير أحمد بن بقر (بقــار) : يا أمير ، قال العارفون ، من تأنى نال ما يتمنى ، اصبر حتى ننظر ما يتم الأمر عليــه .

فقال له الأمير شاربك : أين عقلك ؟ حيث ان السلطان طومانباى سلم نفسه لعدوه ، هل بقى لك بعد ذلك شىء ؟ فى غد تأتيك الأخبار بأنه صلب على باب زويلة ، أو علقت رأســه عليهــا .

هذا ما جرى للأمير شاربك .

وأما السلطان طومانباى فانه بقى وحيدا فريدا ، وقد رمى بجميع عدته وسلاحه وملبوســه فى البحــر المالح حتى المصفح الفولاذ الذى ليس له نظير فى الدنيا ، والقنطارية المفردة ، حتى الطبر الجناح الذى لم يسمح الزمان بمثله ، فانه كان صاعقـــة من الصواعق ، لا يضرب به على حديد الا قطعه ، ولا على حجر الا فلقه ، فكان من تحف الملــوك القدماء .

فعند ذلك حطمت (حطت) عليه العســاكر ، يتقدمهم اياس أغا أغاة اليكنجرية ، وخاير بك والغزالى وحسن بن مرعى ، فاقتضى رأيهــم أن يقبضوا عليــه حيا ، ويأتوا به للسلطان سليم يفعل به ما يحب ويختار

ثم أمروا جميع العسكر أن يغمــدوا سيوفهم ، فانه قد رمى ســـلاحه ولا بقى معه أحد يقاتل عنه .

ففعل الجراكسة كما امروا ، وعسكر السلطان سليم كذلك •

ثم حلقوا (٩٢) عليه من كل جانب ، وصار بينهم كالسبع •

فعند ذلك نزل اياس والغزالى وخاير بك وجاءوا اليه •

فقال له اياس أغا : الأمر أمر الله تعالى ، فقم يامولانا السلطان ، اجعل يدك اليمنى فوق اليسرى ، ولا تؤاخذنا فى ذلك يا مولانا •

وربطوهما من قدام ، وأوثقوهما ، فان الأعيان لا يكتفون الا من قدام •

ثم قدموا له بغلة وأركبوه عليها ، وقيدوه من تحت بطنها ، وأحاطت به اليكنجرية وبقية العسكر ، وجدوا فى السير ، كأنهم وقعوا بفريسة عظيمة أو لقية ، ولو آمكنهم أن يطيروا به لطاروا •

فأخذ يتكلم مع اليكنجرية ، فسألهم عن حالهم وعن قدر جوامكهم •

فقالوا له : لكل واحد منا ستة عثامنة الى عشرة عثامنة •

فقال لهم : أنتم جئتم من بلادكم الى هنا لأجل ذلك •••؟!
فقالوا : نعم •

(٩٢) تحلقوا عليه اى اجتمعوا حوله •

فقال لهم : بارك الله فيكم ، وبهذا قد غلبنا سلطانكم لطاعتكم له على هذا القدر اليسير ، والله ان جامكية أحدكم لا تكفى أن تكون جامكية سايس من سياسنا ، فوالله ثم والله لو تكونوا عسكرى لجعلت لكل واحد منكم دينارا فى كل يوم .

فقال بعضهم لبعض : ما الرأى ؟ نطلق هذا الرجل ، ونكون أعوانا له ، ونأخذ دينارا فى كل يوم ، ونصير عنده فى أعز ما يكون ..؟

فمنهم من استصوب ذلك الكلام ومال اليه ، ومنهم من قال ، لا يغرنكم هذا الكلام ، فانه ما قال لكم ذلك الا لما رأى نفسه وقع فى أيديكم ، وهل يكون هذا قط أن يصير لكل واحد منا دينار فى كل يوم ؟

فوقع فيهم الهرج .

ومازالوا سائرين به حتى وصلوا الى أوطاق السلطان سليم ، وكانوا قد أرسلوا أولاقا(٩٣) وقت قبضهم عليه يبشر السلطان بأنهم مسكوه مسكا باليد ، وأعلموه كيف كان قبضهم عليه ، وأن شيخ العرب حسن بن مرعى هو الذى كان سببا فى ذلك ، لأنه ما دلهم على موضعه الا حسن هذا وأنه حسن له عبارة دخوله فى هذا الوادى ، وحبسه فيه . وأنه يستحق كل خير ، فانه لولا حسن هذا ما عرفنا له موضعا .

---

(٩٣) الأوشاق او الأوجاق احد خدم السلطان ممن يركبون الخيل ـ عاشور ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٩٤ .

وذكروا للسلطان جميع ما وقع ، وأنهم قادمون به بالقيد والبند ، بعد ان كان قد رمى سلاحه فى البحر المالح ، وسلم نفسه بالأمان وقد تشتت جميع عساكره ، ومسكناه باليد ، وهو واقف على جبل عال بمفرده ٠

ففرح السلطان بذلك غاية الفرح ، وقال :

ـ الآن ملكنا ملك مصر ٠

فما تم الكلام الا وقد أقبلت العساكر ولهم ضجيج عظيم ٠

فقام أوطاق السلطان على ساق ، حتى ان السلطان ارتاب من ذلك ، وظن أن العدو قد هجم على أوطاقه ٠

فقالوا له : البشارة ، هذا اياس أغا وخاير بك والغزالى قد جاءوا بغريمك ٠

فلما وصلوا الى خيمة السلطان سليم ، خرج لهم الوزير الأعظم يونس باشا ، وامرهم أن ينزلوا السلطان طومانباى ، وأخبروه بالواقعة من أولها الى آخرها ، وأنه لولا الشيخ حسن بن مرعى هذا ما كنا عرفنا له طريقا ٠

فشكره السلطان على ذلك ، ووعده بكل خير ٠

فلما أصبح الله تعالى بالصباح ، أمر السلطان أن يعمل الديوان ، وأظهر ما عنده من الزينة الملوكية ، ورتبوا له أحسن ترتيب ، وحضر جميع العساكر ، ووقفوا بين يديه على حسب مراتبهم ، وأوكب موكبا عظيما ، ووقف

اليكنجرية صفوفا على أحسن ترتيب ، وكذلك المدافع فى ناحية العسكر صفوفا ، وجهزوا النار ، وهم منتظرون أمر السلطان أن يطلقوا عليهم وعلى البنادق نارا وتندق الكامات والطبلخانات التى للسلطان والتى للوزراء والباشات والأمراء .

ثم أمر باحضار السلطان طومانباى والأمير حسن بن مرعى .

فلما حضر السلطان طومانباى أدخلوه من بين هذه العساكر ، ورأى نظام العثمانية فى أحسن ما يكون ، ونظر هذه العساكر وهذا الترتيب الذى لا عين رأت ولا أذن سمعت .

ولما دخلوا به على السلطان سليم خان سلم عليه بسلام الملوك .

فرد عليه السلطان سليم كما يجب ، ولم ينقص مقامه فى سلامه .

ثم وقف طومانباى ، فأمره بالجلوس ، فجلس وهو فى غاية الندم ، وقال :

ـ انى كنت طيرا طائرا ، وكانت الأرض واسعة أذهب الى حيث أريد وأختار ، فسلمت روحى لعدوى بيدى ، بئس ما كانت فعلة فعلتها أوجبت لى الهم والذلة !. كل ذلك خطر فى نفسه ، وهو جالس لا يتكلم ولا أحد يتكلم ، ولا يرفع صوته ولا رأسه .

فنظره السلطان سليم ، وتأمله بعين الفراسة ، فوجد فيه كل شىء يشهد له بالشجاعة والفروسية وكمال العقل شاهد له لا عليه .

فتعجب السلطان سليم فيه ، كيف سلم نفسه بغير حرب ولا قتال ولم يكن له شىء فيه يشهد بأنه جبان أبدا ، بل انه اذا رآه من لا يعرفه شهد له بأنه شجاع بطل ! .

ثم ان السلطان سليما قال فى نفسه ، انما هذا أمر سماوى أصابه وطالع نحس غريب غير صوابه حتى رمى سلاحه وسلم نفسه ، مع أنه قاتل قتال الجبابرة ، والا لو هرب كانت الدنيا واسعة بين يديه أينما شاء ذهب ، وحيث طلب هرب .

ثم التفت اليه وقال له : ياطومانباى ، كم نهيناك عن القتال وعن سفك دماء المسلمين ، أولا انى أرسلت لك من الشام أن تجعل السكة والخطبة باسمى ، وأنت مقيم على ملك مصر ، وأنا ظهرك ومعين لك على سائر ملوك الأرض ، فأبيت ذلك وقتلت رسلى ، والرسول لا يقتل . فسرنا بعساكرنا لقتالك ، ورفعنا الأعلام ونشرنا العساكر على خراب ديارك ، فأول مقابلتك فى الريدانية هزمناك الى الصعيد ، وأرسلت اليك رسلا الى الصعيد ، ومعهم قضاة بلادكم ، فلم تقبل الصلح وقتلت القضاة ، وتعديت شيم الكرام بقتل الرسل أولا وثانيا .

ثم عاتبه عتابا كثيرا .

فقال له طومانباى ، والله انه لم يكن شىء مما جرى بخاطرى ولا بامرى أبدا ولا برأيى ، وانى لما أرسلت الى من

الشام الرسل آكرمتهم ، وأمرت بنزولهم فى دار الضيافة ، وفى نيتى أن أفعل ما جاءوا به ، وأرد الجواب كما أمرتنى، فلاقاهم الأمير علان وهم سائرون الى بيت الضيافة فقتلهم .

فلمـا بلغنى عسر ذلك على ، وكذلك الرســل الذين أرسـلتهم جـرى فى حقهم ما جـرى فى حق غيرهم من غير رضاى ، وكل هذا ليس بأمرى ولا بارادتى ، وانما جرت بهم المقادير من الرب القدير ، وحتى تجرى الأمور على ذلك على ما كانت من قديم الزمان ، بأن دولتنا قد زالت وأدبرت ودولتكم جـاءت وأقبلت ، وهذا شىء كتبـه الله تعـالى فى القـدم ، وأجرى به القلم ، ودارت به الأفلاك وسـارت به الكواكب ، وما أراده الله فلا مرد له ، ولا يغلب الله غالب ، تبارك وتعالى رب الأفلاك والكواكب ، ولولا ذلك ما قدرت أنت ولا غيرك على أخذ بلادنا ، فانه لو كان بالقوة والشجاعة ما كنتم أقوى منا ولا اشجع ، وهأنتم رأيتم كيف فعلنـا مع عسكركم ، وكسرتهم كذا مرة .

وأما قولكم انكم كنتم تريدون السكة والخطبة باسمكم وأن تكونوا رءوس الملوك بخدمة الحـرمين الشريفين ، فأنا والله ما آخذت السلطنة برغبتى وإنمـا قومى وعسـكرى اختارونى ورغبوا فى أن أكون أنا السلطان عليهم لما علموا من زهدى فى ذلك المال .

فلما تقلدت ذلك وجب على أن أرد عنهـم وأدافـع عن أموالهم وأنفسهم وأولادهم وحريمهـم ، وأما أنت فانمـا قيامك فى حظ نفسك لا غـير ، خصوصا ونحن مسلمون ، فكيف تستحل قتل المسلمين وترمى عليهم بالمدافع والنيران ،

كيف بك اذا وقفت بين يدى رب العالمين ؟ فما جوابك ؟ وكل ملك وان تعاظم ملكه فهو لله عبد أصغر ، فما أنت وأنا الا بجملة العبيد .

فتعجب السلطان سليم ثم قال له : أنا ما جئت عليكم الا بفتوى علماء الأعصار والأمصار ، وأنا كنت متوجها الى جهاد الرافضة والفجار ، فلما بغى أميركم الغورى وجاء بالعساكر الى حلب ، واتفق مع الرافضة واختار أن يمشى الى مملكتى التى هى مورث آبائى وأجدادى .

فلما تحققت تركت الرافضة ومشيت اليه ، ونظر سلطانكم وعسكركم قوتنا وقوتكم ، وبعد حضورى الى الشام سمعت أنك عملت سلطانا على الكبشة الأجلاف وأنت لست لها أهلا ، والسلطنة لا تكون ولا تليق الا برجل يكون آباؤه وأجداده سلاطين ، وأنت وقايتباى الذى هو أعظمكم والغورى ما أسماء آبائكم ؟ ومن أين لكم السلطنة ؟ ومن أين لكم الامارة ؟ كلكم أولاد نصارى ، وأنتم مماليك بلا عتاقة حتى بقيتم من قلة عقلكم وقلة أدبكم تعملون الرجل منكم سلطانا ، ثم تعزلونه وتقتلونه ، أى يد لكم حتى تعزلوا وتولوا وتقتلوا ، وتطولوا أياديكم على السلاطين ، فأنت وقومك كم قتلت من عسكرى ، كل مسلم وابن مسلم ، فما جوابك عند الله تعالى .

فقال له مسرعا : ان الله تعالى قد أجاز لى ذلك ، قال سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز ، وهو أصدق القائلين : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (٩٤) اللهم أن المرحوم الملك الأشرفى قانصوه

---

(٩٤) سورة البقرة ، الاية ١٩٤ .

الغورى وقع بينك وبينه التنافس ، ودخلت الشياطين بينكم ، ورمت الأعادى بينك وبينه ، وختم الله تعالى له بالشهادة . وستقف أنت وهو بين يدى رب العالمين وأحكم الحاكمين، وأما أنا فليس بينى وبينك عداوة ولا أحد من عسكرك ولا غيرهم .

فقال له السلطان سليم : والله ما كان قصدى أذيتك ونويت الرجوع من حلب ولو أطعتنى من الأول وجعلت السكة والخطبة باسمى ، ما جئت لك ولا دست أرضك .

فقال له طومانباى : الأنفس التى تربت فى العز لا تقبل الذل ، وهل سمعت أن الأسد يخضع للذئب ؟ لا أنتم أفرس منا ولا أشجع منا ، وليس فى عسكرك من يقايسنى فى حومة الميدان ، ونحن قوم قد خصنا الله سبحانه وتعالى بذلك ، ولكن أنا أعرف أن ما عليك أضر من هذين الشيطانين الخائنين ، فانه لو كان فيهما خير لكان لنا .

فقال السلطان سليم للحاضرين : والله مثل هذا الرجل لا يقتل ولكن أخروه فى الترسيم (٩٥) حتى ننظر فى أمره .

فأخذه اياس أغا ، وذهب به الى خيمته وأجلسه بها .

وأخذ السلطان سليم يتكلم مع الحاضرين فى شأنه ، واذا بالبشارة قد جاءت من عند الأمير أحمد بن بقر (بقار) بأنه قبض على شار بك الأعور ، وأنتم ترسلون من يأخذه .

---

(٩٥) الترسيم أى التحفظ وتحديد الاقامة .

فازداد فرح السلطان سليم بذلك ، وقال : من يذهب اليه ويأتى به ؟

فقال الغزالى : على ذلك ٠

فقال له : أنت لها يا أبا منصور ٠

فقام الغزالى من وقته وخرج وأخذ معه مائتين من نقاوة العسكر ، فما تم النهار الا وهم فى منية غمر ، فوجدوا الأمير أحمد بن بقر (يقار) واقفا لهم فى الانتظار ٠

فلما اجتمع به قانبردى الغزالى وسلم عليه ، قال له أحمد بن بقر (بقار) :

ـ انزل فى الضيافة ٠

قال : لا يمكن ذلك ، فان السلطان سليما ، نصره الله تعالى ، أمرنى أن أرجع اليه فى يومى هذا ، فأسرع لنا بشاربك ٠ وسر معنا الى السلطان ليكافئك على فعلك ، ولا تخبرنى كيف مسكته الا ونحن سائرون ٠

فعند ذلك أحضروه ، وهو مقيد مزند ٠

ووقع بصره على أحمد بن بقر (بقار) وقانبردى الغزالى فقال لهم : الله يخون الخائن ٠

فلم يردا له جوابا ٠

وركبوه على بغل ، وقيدوه من تحت بطنه وطاروا به كما يطير الغراب اذا أخذ البيضة ٠

ثم أخذ أحمد بن بقر (بقار) يحكى لقانبردى كيف قبض عليه ٠

فان الأمير شاربك لما خرج من الغابة بعد أن أيس من السلطان طومانباى وقصد صديقه وحبيبه الأمير أحمد ابن بقر (بقار) ، فلما وصل اليه أكرمه وزاد فى اكرامه ، وقال له ، لا تخف ولا تحزن حيثما وصلت الى ٠

فحكى له الأمير شاربك على ما حصل من السلطان طومانباى ، وكيف سلم نفسه لعدوه ورمى سلاحه فى البحر المالح ، وان ذلك كان سببا لانقضاء الدولة ٠

ثم دخل الليل فنام الأمير شاربك ليأخذ لنفسه الراحة ، وكان له عدة أيام وليال لم ينم ، ولا طرق النوم عينه ، فنام واطمأن على نفسه ٠

فقال أحمد بن بقر (بقار) لأصحابه : خطر عندى شىء أذكره لكم ٠

قالوا : وما هو ؟

قال : ان هؤلاء القوم قد زالت دولتهم ، حيث ان سلطانهم قد سلم نفسه ، وانى أريد أن أفعل كما فعل حسن ابن مرعى ، وأجعل لى يدا عند السلطان سليم ، وآخذ الشكرانية على غيرى ٠

فقالوا له : هذا هو الصواب ٠

قال : فقمت من ساعتى ودخلت عليه وهو نائم ، ومعى نحو عشرة أو عشرين نفسا ، فضربته بالنبوت على رأسه بعد أن نبهته بسرعة .

فلما رفع رأسه وهو مدهى من الضربة التى فى رأسه وقد بطحته أمرت بقيـة الحاضرين ، فوقعوا عليه وكتفوه وقيدوه ، وأرسلت لكم على الفور أعلمكم بذلك .

فشكره على ذلك قانبردى الغزالى ، وقال له : الآن قد اشتفى قلبى من هذا الأعور الخبيث .

ولا زالوا مجـدين السـير به حتى أوقفوه بين يدى السلطان سليم ، فتأمله ، ونظره ، فوجده من أكمل الرجال وهيبته ظاهرة عليـه ، وشـجاعته لابسته ، ذو اسـتكانة رهيبة ، ووقار وضخامة وحشمة (٩٦) .

فأراد السلطان سليم أن يختبر كلامه حتى ينظر عقله ، فقال له السلطان سليم :

ـ كيف تنظر الدنيا يا شاربك ؟

فقال : كلا شىء .

فقال له : حيث كانت كلا شىء فكيف تقـاتل عليهـا وتحارب فيها ؟

قال : ما قاتلت عليها ولا نافست أحدا فيها ، وانما قاتلت عن مالى وعيالى وعرضى وأولادى ، وكتاب الله تعـالى

---

(٩٦) ربما كانت ضخامة جثته .

وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم أجازا لى ذلك ، فأما الكتاب فقد قال الله تعالى فى كتابه العزيز : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (٩٧) .

وقال تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير » (٩٨) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون عياله فهو شهيد » .. فنحن ما نقاتلكم الا باذن من الله ورسوله ، وأنت بأى دليل استحللت دماءنا وأموالنا ؟

فقال السلطان سليم : أولا قد استفتيت عليكم وأجازنى العلماء بذلك فانه قد بلغنى أنكم تقتلون ملوككم ، وتأخذون الأمر بالسيف ، ولا تقفون على الحدود الشرعية .

فقال شاربك : أما قتلنا الملوك فهو كلام باطل ، فقد أقام المرحوم السلطان الأشرف قايتباى نحو ثلاثين سنة وهو ملك مصر الى أن مات رحمه الله تعالى . وأما ابنه محمد فقد تعدى الحدود ، ولم يقف على حدود الشرع ولهذا قتلناه ، وأما الذين تولوا بعده فانا لم نر فيهم قابلية للملك ، فلهذا أقمناهم ، فمنهم من حبسناه ، ومنهم من قتلناه اتقاء لشره ، وقد اخترنا المرحوم الأمير قانصوه الغورى ، وجعلناه سلطانا ، فأقام الى أن خرج اليك لأمر أراده الله تعالى فى الأزل الى أن حصل ما حصل ، وآخر الحياة الموت ، وما نحن

---

(٩٧) سورة البقرة ، الآية ١٩٤ .

(٩٨) سورة الحج ، الآية ٣٩ .

باقون من الموت ، فقد قال الله تعالى : « انك ميت وانهم ميتون » (٩٩) .

فلما سمع السلطان سليم ذلك الكلام من شار بك ، أشار بيده ، أن أخرجوه .

فأخرجوه فى الترسيم ، وأقعدوه .

قال الراوى : فى اليوم الذى جاءوا بالسلطان طومانباى بعد سؤاله وجوابه قبل ما يعطيه الترسيم أشار اليه بيده ، أن أطلقوا المدافع والضربزانات والبنادق ، ودقت النوبة السلطانية ، ودقت الكاسات والنقاريات وأطلقوا المدافع والضربزانات والبنادق . وكبروا تكبيرات ثلاثة أيام حتى تزلزلت الأرض ، وضربوا النوبة من الوزير الأعظم ، وسائر الوزراء والباشات والأمراء ، وبعد آخرها أشار على ترسيم السلطان طومانباى .

ثم أمر أن ينادى فى جميع مصر بالزينة ، فزين الناس جميع مصر والقاهرة ، وجميع البيوت والدكاكين ، وأمعن الناس فى ذلك وأشيع فى سائر اقليم مصر بأن السلطان طومانباى مسكوه بدلالة حسن بن مرعى .

وصار الناس منهم من يصدق ، ومنهم من الأطراف والفلاحين من يكذب .

ولما كان فى ليلة الحادى والعشرين من شهر ربيع الأول ، وكان السلطان طومانباى قد صلى العشاء ، وجلس

---

(٩٩) سورة الزمر ، الآية ٣٠ .

وهو كثير التفكير زائد التضجر ، وزائد الحسرات متتابع العبرات ، أخذته سنة من النوم وهو جالس ، فاذا هو شخص واقف قدامه ·

وقال له : يا طومانباى ، قدم نفسك للرحيل ، فقد مضى الكثير والقليل وجاء الوقت المعلوم ، فانتبه من نومك فقد حصل فراقك من أهلك وقومك ·

فانتبه مرعوبا فزعا ، وتعوذ بالله من الشيطان ، وقرأ ما تيسر من القرآن ، فنزل عليه النوم شىء ثقيل ، فاضطجع كأنه ميت أو قتيل ·

قال : ولم ينزل عليه من النوم طول عمره أثقل من تلك الساعة ·

والسبب فى ذلك أن الروح تعلم بفراقها للبدن ، فتودعه بطيب الوسن ·

ثم أفاق بعد ذلك فوجد نفسه كأنه صب عليه ماء من كثرة العرق ، وكان هو الذى أخبر بذلك عن نفسه للقاضى أصيل الطويل ، فانه لم يأته أحد من أهل مصر غيره ، وأوصاه أن يغسله ويكفنه بيده ·

وقد فعل ذلك كما أوصاه ·

قال الناقل : ومازال السلطان طومانباى على سهرته الى الصباح ، فلما تباينت الوجوه واذا بالجاويشية قد جاءوا

اليه ، والقابوجية (★) وهم مسرعون • وقالوا له : قم ، فان السلطان يطلبك •

فقام معهم وساروا به الى آن قرب من خيمة السلطان سليم وآوقفوه ، واذا بقابوجى آغاسى قد خرج من عند السلطان ، وقال :

ـ قد برز أمر السلطان بأن تسيروا به الى باب زويلة وتصلبوه هناك •

وجاءوا له بالبغلة وأركبوه عليها ، وقيدوه من تحت البغلة ، ودارت حوله اليكنجرية العساكر من سائر الطوائف وخرجوا به من أوطاق السلطان الى انبابه ، ونزلوه فى مركب، وعدوا به الى بولاق ، ودخلوا به من مرجوش(★★) الى بين القصرين (★★★) ، وقد انقلبت الدنيا بالضجيج والبكاء والصياح •

وكان الواحد من عسكر الروم يجىء الى الرجل من أهل مصر ، ويقول له : هذا الرجل الذى على البغلة هو السلطان طومانباى ، أم غيره ؟

فيقول المصرى : بل هو هو •

وكان ذلك اليوم على أهل المملكة أشأم الأيام ، وبكت عليه الأرامل والأيتام •

(★) القابوجية هم الحجاب ، كلمة تركية مفردها قابوجى •

(★★) مرجوش اسم شارع يبتدىء من شارع الكلباتى وينتهى عند أول شارع الشعرانى ، وقد كان بهذا الشارع عمارة كبيرة يجتمع فيها تجار مصر •

(★★★) بين القصرين ، مكان معروف بقسم الجمالية ، وقد أطلق على شارع يبتدىء من قرب مسجد الحسين رضى الله عنه •

ذكـــــر

صلب السلطان طومانباى على باب زويلة

قال الراوى : فلما وصلوا به الى باب زويلة وجـدوا الحبل مرخيا ، فأسرعوا به ونزلوه من على البغلة ، وصلبوه على غير مهلة • ثم بعد ذلك أنزلوه وساروا به فى نعش الى قبة السلطان الغورى ، فغسله القاضى أصـيل الطـويل ، وكفنه من ثياب أرسلها له السلطان سليم من خاص الموصـلى الرفيع ، ثم صلى عليه القاضى أيضا كمـا أوصاه ، ودفنوه فى فسقية القبة المذكورة •

وأرسل السلطان سليم ثلاثة أكياس من الفضة تصدقوا بها عليه •

قال الراوى : انه حضر الصلاة على السلطان طومانباى ، ثم ان الذى فرق الأكياس على الناس فرقهـا من غـير عـدد بالنصيب ، أعطاه ثلاث حفنات فضة (★) ، وأعطى القاضى أصيلا مثل ذلك ، وفرق الباقى على النـاس من غـير عـدد بالنصيب •

قال : ثم ان السلطان سليما فى الساعة التى أمر فيها بصلب السلطان طومانباى أحضر الأمير شاربك الأعـور ، وأمر بضرب عنقه ، فقطعوا رأسه •

(★) الفضة ربع المليم ، وكانت أصغر وحدة فى العملة مثل البارة ، وتصنع عادة من الفضة ، وأحيانا من النحاس ، وكانت المبالغ الكبيرة تقـدر بالاكياس ، والكيس يطلق على مبلغ ٢٥٫٠٠٠ فضة أى خمسة جنيهات •

وجاءت عياله وغلامه الحاج فارس فاستأذنوا فى أخذه ، فأذن لهم فأخذوه وجاءوا به الى المدرسة البيبرسية (★) ، وغسلوه ، وصلوا عليه ، ودفنوه فى مسجد من داخل الخوخة التى عند الفرن بالقرب من داخل المدرسة المذكورة .

كان هذا آخر مدة الجراكسة ، وهو يوم الأحد ، الحادى (★★) والعشرين من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة .

قال المؤلف : الذى وصل الى علمى من لفظ سيدى محمد ابن السلطان الغورى ، أن السلطان سليما لم يكن فى نيته قتل السلطان طومانباى ، وانما كان السبب فى ذلك خاير بك نائب حلب وقانبردى الغزالى ، فانهما لما رأيا السلطان سليما لم يسهل عليه قتله وصرح لهم فى المجلس العام بأن مثل هذا لا يقتل ، لأنه لما رأى كلامه مسدودا وهو حق وصدق ، وثبت عنده صدقه وظهر له حاله ، ورأى من شجاعته ما يفوق الوصف لم يسهل عليه قتله .

وكان يريد أن يأخذه معه الى بلاد الروم ويبقيه عنده ذخيرة بعد أن يستحلفه الأيمان المغلظة ، وقد ثبت عنده دينه وصلاحه .

وكان رحمة الله عليه محبوبا لكل من يراه ، فلا يراه غريب ولا قريب الا أحبه ، وشهد له بالصلاح .

(★) المدرسة البيبرسية ، وكانت ملحقة بجامع بيبرس الموجود بحارة الجودرية شارع المؤيد .

(★★) ٢١ ربيع الأول سنة ٩٢٢ = أبريل ١٥١٦ وفى هذا اليوم أنشأ السلطان الغورى جامع الغورى بعرب يسار قره ميدان . وقد ذكر ابن اياس أن شنق طومان باى تم فى يوم الخميس الخامس عشر من شهر ربيع الأول سنة ٩٢٣ .

فخشى خاير بك على نفسه ، وكذلك قانبردى أن السلطان سليما ان أخذه معه وصار بينهما اتحاد لا يبقى عليهما ، فأخذوا يدبرون الحيلة ويحسنون للسلطان سليم قتله ، وأنه متى أبقى عليه لا يقوم له نظام أبدا ، وربما يفسد عليه عسكره ، فانه رجل شجاع وكريم ، الدنيا عنده لا قيمة لها أبدا ، وخصوصا للأجناد والعساكر ٠

فعند ذلك اقتضى رأى خاير بك والغزالى بأن يكتبوا للسلطان ورقة ويرسلوها من غير أن يشعر بها أحد من الوزراء ولا من غيرهم ٠

ومن جملة ما كتبوا فيها : « فليعلم مولانا السلطان أن أهل مصر الذين تشتتوا من الجراكسة لم يصدقوا أن سلطانهم عجز وسلم نفسه وقبض عليه ٠ وكذلك أهل الأقاليم والعربان ، وأيضا فليعلم مولانا الخنكار ، أنك متى أبقيت عليه فقد ضيعت لقبك وسفرك وهلاك عسكرك وأموالك ، فانه بمجرد ما تسافر من هذه البلاد لو كان تحت الأرض خرج منها ، وأفسد عسكرك بالعطاء ، وتندم حيث لا ينفع الندم ، فان أردت أن تطيعك الممالك والبلاد وتحتوى على جميع البلاد من غير مانع يمنعك عنها ولا مدافع يدفعك عنها عجل بهلاكه ، وأرسل اصلبه على باب زويلة ليراه الخاص والعام ، ويشاع ذلك فى سائر البلاد وتيأس الناس من بقائه ، وتروق الدنيا وتطمئن على نفسك وتملك هذا الاقليم العظيم الذى ليس له نظير تحت سماء الدنيا ٠

ولقد قال بعض الحكماء : عدوك لا تصافيه ، وصديقك لا تجافيه ٠

وقال آخر : من لم يحسب العواقب ما الدهر له بصاحب » .

فعند ذلك أمر السلطان سليم بصلب طومانباى ، ورمى عنق شاربك ، كما تقدم .

ذكر
صفة السلطان طومانباى ، رحمه الله تعالى

كان رحمة الله عليه على ما حكاه عنه سيدى محمد بن المرحوم الغورى والقاضى أصيل الطويل ، والأمير رزمك الناشف وغيرهم ممن رآه وعاشره ، وعرفه ظاهرا وباطنا ، فاتفق الجميع على أنه كان مقداما خبيرا بالحرب ومواقع الطعن والضرب ، والدخول فى الميدان والخروج منه ، لا يرهب الأقيال ، ولا يخطر الموت له على بال ، وقد ذكرنا ذلك فى حروبه ووقائعه ، وكان متوسط الطول ، ذهبى اللون ، واسع الجبين ، أسود العين والحاجبين واللحية . وكان دينا صالحا خيرا فاضلا . زائد الأدب والسكون ، والخشوع والخضوع ، ملازما لزيارة المشايخ ، الأحياء منهم والأموات، حتى انه لما غسله الغاسل وقلعه ما عليه من الثياب وجدوا على بدنه جبة صوف حمراء ، وأوصى أن يدفنوه بها . ولم يظهر عنه فى حياته شىء من الأفعال الردية أبدا ، لا شرب الخمر ولا زنا ، ولا فواحش أبدا . وكان قليل الشهامة(١٠٠) لا يظهر شيئا مما يفعله أهل التجبر والعنف ، وكان الغالب على حاله السكينة والوقار ، وكان غالبا على نفسه ، رزينا فى أحواله ، لين الكلمة ذا انخفاض ، كثير الرحمة والشفقة على كل أحد ، حتى انه لما ظهرت منه هذه الفراسة والشجاعة فى قتال السلطان سليم صار الناس يتعجبون منه غاية العجب

---

(١٠٠) أى أن قليلا من الناس من له مثل شهامته .

ولم يكن أحد يظن أنه بهذه الصفة ، وكان الذى عمره ما رآه اذا رآه لا يشك فى أنه عبد صالح ، فان الصلاح والأنس والخيرية كانت ظاهرة عليه وعلى وجهه .

وقد تقدم فى التاريخ أن السلطان سليما ما هان عليه قتله لما رآه وسمع كلامه ، وقال له : يا طومانباى ، لو كنت أطعتنى على مرادى بأن تجعل السكة والخطبة باسمى ما دخلت لك أرضا ولا بلادا ، ولا وقع بينى وبينك حرب أبدا ، ولكن لكل شىء سبب حتى جرى القضاء والقدر ، وقتل من قتل ، وسلم من سلم .

وكانت زوجته خوند بنت قانبردى الغزالى دويدار كبير (★) وتزوجت بعده برجل يقال له ابن الشيخ ابراهيم الكلشنى . وبقيت بمصر الى أن ماتت ، ولم يخلف السلطان طومانباى أولادا لا ذكورا ولا اناثا .

وأكثرت فيه الشعراء من المراثى والقصائد ، ومضى كأن لم يكن .

وكان القاضى أصيل الطويل دائما يحكى عنه الحكايات الغريبة والأمور العجيبة ، التى تشهد له بأنه من عباد الله الصالحين . ومات القاضى أصيل فى سنة سبعين وتسعمائة .

قال الراوى : قد قدمنا فى هذا التاريخ أن السلطان طومانباى توفى فى يوم الأحد الخامس عشر من شهر ربيع

(★) دويدار كبير ، كذا فى الأصل ، وقد ذكره ابن اياس دوادار كبير ، وهو لقب يطلق بالتركية على حامل الدواة والمقصود به صاحب ديوان الانشاء .

الأول سنة تسعمائة واثنتين وعشرين (★) وانقطع اسمه من الخطبة على منابر مصر فى أول سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ، وكان من حين ضربت له السكة وأقيمت له الخطبة ثلاثة أشهر وخمسة أيام ٠

قال المؤرخ : وفى الساعة التى أمر السلطان سليم فيها بصلب طومانباى وقتل الأمير شار بك ،أحضر فيها شيخ العرب حسن بن مرعى وابن عمه شكر ، وشيخ العرب أحمد بن بقر (بقار) وخلع عليهم خلعا عظاما من أجل خلع الملوك، وأعطى لكل واحد منهم ولاية بلاده اقطاعا له ٠ لا يحمل من مالها لديوان السلطان شيئا ولا درهما واحدا ماداموا فى قيد الحياة ٠

وأرسلهم الى بلادهم بعد أن أحسن اليهم احسانا جزيلا وأكرمهم اكراما عظيما ٠

ذكر

تولية الكشاف ومشايخ العربان

قال الراوى : ثم أمر السلطان سليم بتولية الكشاف ، فولى الأمير جانم على البهنسا والفيوم ،وجانم هذا هو الذى تحارب مع السلطان طومانباى ٠

وولاهم على ما كانوا عليه فى مناصبهم، وأمر أن يكتب فى الدواوين لجميع الحكام بعدم المعارضة لجميع أصحاب

(★) جاء التاريخ فى الأصل يوم الأحد الخامس عشر من شهر رمضان سنة تسعمائة واحدى وعشرين ، وهو تاريخ لم يقدمه الراوى كما يذكر ، وانما التاريخ الذى سبق ذكره هو الخامس عشر من شهر ربيع الأول سنة تسعمائة واثنتين وعشرين ٠

الاقطاعات والأرزاق ، والأوقاف والجوامع ، وأولاد الأمراء وأمراء الجراكسة الذين تخلفوا ، وكل من بيده شيء من الأرزاق هو باق عليه ، وجعل لعنة الله ثلاث مرات على من غير أو بدل شيئا من ذلك .

ففرح الناس بذلك غاية الفرح .

ثم ان السلطان قال للأمير خاير بك : أريد أن أعلم قدر مال مصر ، وما يتجمع منها فى كل سنة .

قال : يا مولانا الخنكار ، ما يعلم ذلك ولا يعرفه الا القاضى أبو بكر بن الجيعان .

فأمر باحضاره .

فلما حضر قال له خاير بك : مولانا السلطان يريد أن تخبره بما يتجمد من مال مصر فى كل سنة على وجه الاختصار .

فقال له القاضى : فى غد ان شاءالله تعالى آتيه بخبر ذلك .

ثم انصرف ، ورفع الدفاتر التى كان قد جاء بها ، وجاء فى ثانى يوم وقد كتب جملة خراج مصر على ظفره ، فأعجب السلطان ذلك ، وقال له : بارك الله فيك ، خير القول ما قل ودل .

ثم ان السلطان أمر بالرحيل من بر انبابة وجاء الى المقياس ونزل فيه ، ومعه جميع أكابر دولته وأعيان أجناده .

ثم ان السلطان خلع على شيخ العرب حماد بن خبير شيخ عرب غزالة باقليم الجيزة ، وجاء اليه الأمير علي بن عمر شيخ هوارة ، فخلع عليه بأمرية الصعيد بمدينة جرجا ، وخلع على علم الدين شيخ بنى عدى ، وكتب لهم التواقيع بذلك وخلع عليهم وانصرفوا .

قال المؤرخ : ومن عجيب ما جرى أن الأمير قانصوه العادلى لما سمع بشنق السلطان طومانباى وقتل الأمير شار بك ، كان عليه ذلك اليوم من أشأم الأيام ، وهجر الطعام والمنام .

ثم انه حدث نفسه بأن يتحيل بحيلة على قتل السلطان سليم ، فسهر ذات ليلة وهو متفكر فيما يفعله وكيف يتوصل الى ما أراد ، فدبر فى نفسه أن يلبس مثل العرب ويأخذ معه جماعة من أهل القوة وينزل الى مركب ليلا ويسير بها الى تحت المقياس ، ويجعل له سلم تسليم ، ويصعد عليه وينزل الى تحت المقياس، ويقتل السلطان سليما ويأخذ بثأر قومه ، وما علم أن الحى ما له قاتل .

ثم انه فعل ذلك حتى وصل الى الطيارة التى فوق المقياس ، وهى محل السلطان ، فوجد الحرس مستيقظين ، وسمع حديثهم ، فكمن فى محل وقال فى نفسه : أصبر لهم الى أن يناموا .

فلما سكت حسهم ظن أنهم قد ناموا ، وكانوا يتناوبون الحرس بالساعات .

فقام ومشى الى أن قرب منهم ، ففطنوا به ورأوه بالعين ، فقاموا اليه يتصايحون بالسيوف مسرعين فى طلبه

فرجع هاربا الى الموضع الذى جاء منه وفيه سلم التسليم ، فما ساعه الا أن رمى بنفسه من فوق الشراريف الى البحر ، وارتمى فى التيار ·

وتبعته جماعته بالقارب فحصلوه وهو عائم ، فأطلعوه وانحدروا به ، ولم يبلغ مقصوده ·

وأما السلطان سليم ، فانه قام مرعوبا من نومه لما سمع الضجة ، وأطل من أعلى القصر ونظره وهو عائم فى الماء ، فأمرهم بالرمى عليه بالبندق ، فلم يصبه شىء من ذلك الى أن وصل الى ساحل بولاق، وبقى مقهورا لأنه لم يبلغ مقصوده ·

وكان فى علم الله الذى بقى من عمر السلطان سليم ثلاث سنوات ، فانه مات بالقسطنطينية فى سنة ست وعشرين وتسعمائة ، ودفن بها ·

ومن الغرائب ان مدفنه لا يذهب اليه أحد ولا يزوره الا فى النادر ، فانه كان سفاكا للدماء ، لا يتوقف فى قتل أحد ، وأما تربة والده المرحوم السلطان بايزيد ، فانها نيرة عامرة مؤهلة بالناس لا ينقطعون عنه الا ان كان بعد صلاة العشاء ، فانه كان عبدا صالحا لا يشك فى ولايته ·

وكان بينه وبين السلطان قايتباى مودة عظيمة ، ويهدى بعضهم الى بعض فى كل عام ، ويرسلون لبعضهم السلام ، ويطلبون من بعضهم الدعاء الى أن توفاهم الله تعالى ، تغمدهم الله برحمته ورضوانه ·

وأعجب من ذلك أن خاير بك ملك الأمراء بمصر لما أن آقامه السلطان سليم على مصر الى أن يموت ، فأمر بعمل

تربة لنفسه وجعلها فى باب الوزير على طريق القلعة ، يمر عليها الباشات والصناجق والأغوات عند ذهابهم وايابهم ، فلم يلتفت اليه منهم أحد ، ولا يترحم عليه ولا يقرأ له الفاتحة ، مع أنها تربة مليحة المنظر ، ومع ذلك صد الله عنه قلوب الخلق ، لأنه كان سببا فى هلاك ألوف مؤلفة من الجراكسة والأروام (١٠١) والعرب وغيرهم .

فان بعض الحذاق من المؤرخين قاسوا وقعة الجراكسة مع السلطان سليم على وقعة تيمورلنك الذى أخرب حلب والشام وقتل أهلها عساكر ، فوجدوها قدرها خمس عشرة مرة تقريبا .

قال المؤرخ : ثم ان السلطان سليما اشتهى خاطره الى أن يذهب الى الاسكندرية ويتفرج عليها ، ويحيط بها علما ، فرأى مدينتى فوة ورشيد وغيرهما من البلاد . ورأى تلك الأرزاق ورأى الجزات التى كانت فى أيام الجراكسة ، فتعجب من ذلك ، وقال : ان هذا الاقليم لا نظير له فى كثرة الأرزاق والجزات .

ثم انحدر الى رشيد وأحاط بها علما ، ثم طلع الى البر الى الاسكندرية وأقام بها ثلاثة أيام ، ثم رجع ونزل فى المقياس ، وبقى كل ليلة ينزل فى الذهبية التى عمرها السلطان قانصوه الغورى ، وكانت كلها منقوشة بماء الذهب كالأسقفة التى فى الغورية وكانت لها بهجة عظيمة ، وكان الحاج عبد القادر الأعرج هو الريس الذى يمسك الدفة ويقلع به ويحدر .

---

(١٠١) أى العثمانيين .

فاتفق انه فى بعض الليالى أراد السلطان الطلوع من الذهبية الى المقياس ، فلما قاربت الذهبية سلالم المقياس هم السلطان أن يطلع فلم تصل رجله الى درج المقياس ، وكاد أن يسقط بين الدرج والذهبية ، والحاج عبد القادر واقف يحذائه ليطلعه ، فلما رآه هوى الى البحر وكان يتلاحق به ، فما حصل الا عنقه ، فأمسكه وجذبه الى الذهبية من الماء ، فساعده عمر السلطان ، فأطلعه الى المركب وقد غاب عن صوابه ، وأيقن بالغرق ، فلما ردت اليه روحه قال له : تمن على يا عبد القادر ٠

فقال : تمنيت أن أكون معرف البحرين ٠

فكتب له السلطان أن يأكلها الى الممات من غير أن يحمل منها الى الديوان شيئا مطلقا ، وأن يكون مسموع الكلمة منقاد الحرية الى أن يموت ، وأعطاه عطايا الملوك ٠

ولما أصبح السلطان أمر بالرحيل من المقياس ٠

فأنزله خاير بك فى بيت ترابية الذى على بركة الفيل ، فانه ليس له نظير فى حسن بنائه ومنظره ٠

فأقام بها أياما ، ثم أمر بالرحيل الى القسطنطينية ، وكان من أمراء الصناجق أمير سكن في قناطر السباع ، فهجم عليه طائفة من اليكنجرية ، فقتلوه ٠

فوصل خبره الى السلطان ، فقبض عليهم وقتلهم عن آخرهم ، وكانوا نحو العشرين رجلا ٠

ثم ان السلطان سليما قبل الرحيل (★) بيوم خلع على خاير بك نيابة مصر ، ولقبه ملك الأمراء ، وأبقى عنده خمسة آلاف يكنجرى ، ما عدا العسكر الخيالة ، وقال له : أعطيتك هذه المملكة اقطاعا لك الى أن تموت ٠

وكذلك فعل بقانبردى الغزالى ، فأعطاه الشام اقطاعا له الى أن يموت ٠

ثم ان السلطان أمر خايربك بأن كل من جاءه من الجراكسة الهاربين وطلب منه الأمان أن يقبله ويبقيه على منصبه ٠ وأوصاه وأكد عليه فى ضبط البلاد والانصاف بين العباد ٠

ثم ان السلطان انصرف وأمر بالسفر (★★) ٠

فلما سمعت الجراكسة بذلك اطمأنت قلوبهم ٠

فجاء الأمير رزمك الناشف والأمير باردبك وسيدى على بن سودون الدوادارى وغيرهم ممن كانوا هاربين مختفين ، وطلبوا الأمان من خايربك فأمنهم ٠

(★) ذكر ابن اياس أن ابن عثمان لما رحل عن مصر ترك بها من عساكره ممن يقيم بالقاهرة عند خاير بك نحو خمسة الاف فارس ، ومن الرماة بالبندق الرصاص نحو مائة رام ، وقرر من أمرائه شخصا يقال له خير الدين باشاه ، وجعله نائب القلعة ، فيقيم بها ولا ينزل الى المدينة ٠

(★★) يذكر ابن اياس أن السلطان سليم خرج من مصر وفى صحبته الف جمل محملة ما بين ذهب وفضة عدا ما غنمه من التحف والسلاح والصينى والنحاس المكفت والخيول والبغال والجمال حتى نقل منها الرخام الفاخر واخذ منها من كل شىء أحسنه مما لا فرح به اباؤه ولا أجداده من قبله ابدا ، وكذلك ما غنمه وزراؤه ، وفى مدة اقامة ابن عثمان بالقاهرة حصل لأهلها الضرر الشامل ، وبطل منها نحو خمسين صنعة ٠

واستقل خاير بك بملك مصر ، يتصرف فيها تصرف الملوك (★) ٠

وأما سيدى محمد بن الغورى ، فانه آخذه السلطان سليم معه الى بلاد الروم ، وكذلك الأمير قانصوه العادلى ، فان السلطان سليما لما أن جاءه قانصوه العادلى فى المركب ، وطلع من على شراريف المقياس يريد أن يقتل السلطان سليما كما تقدم ، وقد كان السلطان أرسل خلف خاير بك ، وقال له :

ـ لابد أن تأتينى بخبر هذا الرجل الذى خاطر بنفسه وجاء فى الليل ليقتلنى ٠

فاستقصى خاير بك الخبر فقيل له : هذا هو الأمير قانصوه العادلى ٠

فلما أخبر السلطان به قال له : لابد وأن تأتينى به ٠

فقال له : يبرز أمرك بالأمان ، فلعل أن يطيع ويدخل فى يدنا ٠ فحلف السلطان أيمانا مغلظة أنه ان قابله بالأمان فعليه أمان الله ورسوله ، والخائن يخونه الله تعالى ٠

فأرسل له خاير بك من استعطف بخاطره ، وقال له ، ان السلطان قد ندم على ما فعل من قتل طومانباى وشاربك ،

(★) ذكر ابن اياس أن مدة اقامة السلطان سليم بمصر ثمانية أشهر الا أياما ، وانه لم يجلس بقلعة الجبل على سرير الملك جلوسا عاما ولا رآه أحد ٠ ولا أنصف مظلوما من ظالم فى محاكمته ، بل كان مشغولا بلذاته وسكره واقامته فى المقياس بين الصبيان المرد ، وما كان يظهر الا عند سفك دماء المماليك الجراكسة وما كان له أمان اذا أعطاه لأحد من الناس ، وليس له قول ولا فعل ، وكلامه ناقص ومنقوص لا يثبت على قول واحد كعادة الملوك فى أفعالهم ، وليس له سماط يعرف ، وأما عسكره فكانت عيونهم جائعة ونفوسهم قذرة (انظر بدائع الزهور لابن اياس ج ٥ ، ص ٢٠٨) ٠

وما كان قصد السلطان شيئا من ذلك وانما عنادهم هو الذى أوجب ذلك ، فانهم لو أطاعوه من الأول وجعلوا السكة والخطبة باسمه لكف عنهم ورجع الى بلاده وأبقاهم على بلادهم ، ولكن جرى القلم بما به الاله حكم ، وقد تم الأمر وما بقى لا شر ولا حرب ، والأولى والأحسن أن تقابل السلطان وتأمن على نفسك ومالك وعيالك •

فلما سمع الأمير قانصوه العادلى ذلك الكلام طاب خاطره للمقابلة وقال فى نفسه : أما الموت فلابد منه ، ومن لم يمت بالسيف مات بغيره • فتوكل على الله وسلم أمره لله وقدم على خاير بك ليلا •

فلما اجتمع به خاير بك تلقاه بأحسن ملتقى ، وقال له : ما بقى كلام وقد مضى ما مضى • وتكلم معه كلاما كثيرا ، وضمن له من السلطان الأمان ، وأعلمه بأن السلطان لا يخالف خاير بك فى شىء من ذلك ، فانه كان يعتقد محبته له •

ولما طلع النهار ركب خاير بك وقانصوه العادلى وذهبا الى السلطان سليم ، فلما وقف بين يديه نظر اليه وتأمله ، وقال له :

ـ ما اسمك ؟

فقال : اسمى قانصوه العادلى •

فقال : أنت الذى جئتنى فى الليل وأنا فى المقياس ؟ •

قال : نعم •

قال : صف لى كيف صنعت ؟

فوصف له جميع ما صنعه ٠

فقال له السلطان : لأى شىء فعلت ذلك ٠

قال له قانصوه العادلى : أما تدرى ما صنعت أنت وما فعلت فى سلطاننا ، وما أهلكت من عساكرنا ، وما أخربت من بلادنا وديارنا ، ومـا يتمت من أطفالنـا وما هتكت من حريمنا ، وما أخذت من أموالنا ، وما فعلت معنـا من فعـل لم يفعله أحد من قبلك ونحن مسلمون مؤمنون موحدون حماة الدين ، ونقرأ كلام رب العالمين ، سنيون ، فما ذنبنا ؟

قال له السلطان سليم : يا قانصوه ، والله ما كان هذا فى خاطرى من الأول ، ولا كان قصـدى شيـئا من ذلك أبدا ، الا أن ملككم الذى هو قانصوه الغورى لما أرسلت له وكاتبته وأنا ذاهب الى قتال قزلباش الرافضى أرسل لى جوابا ناقصا ، وأغلظ على فيه ، ثم أرسلت له ثانيا لما أن بلغنى عنه ما كان يفعله بالناس من المضاررات والقتل فى الأمراء والأعيـان فقلت له ، كف عن ذلك وأنصف الناس من بعضهم ، فان كل من كان خادما للحرمين الشريفين لا يكون الا عادلا منصـفا عاملا بالكتاب والسنة متمسكا بالشريعة ، فأرسل لى جـوابا بأنه قادم بأشراره ، فتوجهت اليه وجردت عليه ، وقد نصرنى الله تعالى عليه ، ورمى كيده فى نحره ، وانظر كيف ألقى الله تعالى فيكم الفتنة ، كيف كنتم تخونون بعضكم وتفسدون ، فكان ذلك سببا لزوال ملككم ، ولكن هذا ليس هو بقـدرتى ولا بقدرتكم ، ولكن هذا بتقدير الله تعالى ، وقد تم الأمر

على ذلك ، ولكن يا قانصوه قد عطف الله قلبى عليك ، وقد أمنتك على نفسك ومالك وعيالك ولا بقى يحصل لك منى أذية أبدا ٠

فقبل الأرض بين يديه ودعا للسلطان واعتذر له بأنه ما جاء له فى تلك الليلة الا لشدة ما حصل له من القهر فيما تقدم ٠

ثم ان السلطان خيره فى أن يقيم فى مصر معززا مكرما أو يذهب معه الى بلاده ٠

فاختار الذهاب معه محبة فى ابن أستاذه سيدى محمد ابن الغورى ٠

فأخذه السلطان سليم معه ، وأمر عسكره باكرامه ، وبقى السلطان فى كل يوم يطلبه ويتحدث معه فى الطريق ويعجبه كلامه وفصاحته وأجوبته ومعرفته وفضله وشجاعته ٠

وكان السلطان سليم فى كل حين يأمره بأن يلعب بين يديه بالرمح والسيف وآنداب الحرب ، ويعجبه ذلك ويقول لعسكره :

ـ انظروا هل فيكم من أحد يعرف يعمل شيئا من ذلك ؟

فقامت نفس يونس باشا الذى هو الوزير الأعظم ،

فأغلظ فى الكلام على السلطان ، وقال له من بعض قوله :

ـ ما الذى فعلته ؟ أخذت البلاد من الجراكسة ، ثم أعطيتها لهم ثانيا ، وعاديتهم وقاتلتهم ثم صافيتهم ، فما هذا

الرأى ؟ فلو عرفنا ذلك ما جئنا معك ولا أطعناك فى شىء من ذلك .

فقامت نفس السلطان من هذا الكلام ، فأمر بضرب عنقه فى الحال وقتل غالب أخصائه تبعا له .

ثم هرب ابن يونس باشا وبعض جماعته الى مصر ، فقبض عليهم خاير بك ، ثم أرسلهم الى السلطان سليم ، فقتل الجميع .

ولما وصل الى دمشق خلع على قانبردى الغزالى ، وأعطاه الشام اقطاعا الى أن يموت ، لا يؤخذ منه من مالها ولا الدرهم الواحد .

ثم سار الى القسطنطينية ، وأمر بالزينة ، فأمعنت بلاد الروم فى ذلك .

فأقام بها الى سنة ست وعشرين وتسعمائة ودفن فى مدفنه الذى كان عمره فى حال حياته بمدينة القسطنطينية ، وكانت وفاته فى سادس شوال ، فكانت مدة سلطنته ثمانى سنين وثمانية أشهر وتسعة أيام .

ثم آل الملك لولده السلطان سليمان ، وكان من الملوك العادلة ، رحمة الله عليه ، ومكث فى الملك نحو ثمانية وأربعين سنة وشهور لا يختل له نظام أبدا ، وكان ملكا كريما عادلا فاضلا ، ذا هيبة ووقار .

ذكـــــر

خروج الغزالى نائب الشام وسلطنته بها

قال : فلما بلغ قانبردى الغزالى موت السلطان سليم ، وقد تولى ابنه السلطان سليمان وهـو شـاب صغير، طمعت نفسه الخبيثة فى أن يتسلطن فى الشام ، ويعيد الملك الى الجراكسة كما كان فى الأول ، ويكون هو السلطان، وتعلقت آماله بالمحال .

فأخبر أخصاءه بما فى نفسه .

فقالوا له : ليس لنا قدرة على ذلك ونحن فئة قليلة ، ولكن أرسل الى خاير بك صاحب مصر ، أعلمه بذلك ، فان وافقك على أن تفعل ما قلته فافعل ، والا فلا قدرة لك عـلى عسكر الروم وكثرتهم ونيرانهم ، فهل نسيت ما تقدم ؟

فقال لهم : انما كان ذلك من السـلطان سليم ، وانما هذا ولد ليس له قدرة على فعل شىء من ذلك ، ولا أظنه يتم سنة فى الملك ، وما علـم أنه يقيم فى الملك ما يقـرب من خمسين سنة .

ثم أرسل أعلم خاير بك بما فى ضميره .

فأرسل له خاير بك جوابا يحذره أنه لا يفعل شيئا من ذلك ويقول له :

ـ أما يرضيك اقليم الشام تتصرف فيه تصرف الملوك ؟ فاياك ثم اياك أن تتفوه بشىء من ذلك .

فلم يقبل من خاير بك ، وسولت له نفسه الخبيثة بأن يتسلطن ٠

وأرسل الى خاير بك ثانيا يقول له : ان لم تطعنى على ذلك والا جردت عليك وحاربتك ، اما بى واما بك ٠

فلما رأى خاير بك منه الجد ، أرسل يخادعه فى الكلام ويقول له : ان كان ولابد وأنت معول على ذلك اذهب الى حلب وخذها ، فان ملكتها فأنا مساعد لك فيما تقدم وموافق لك على ما تقول ٠

ولما جاء الجواب له بذلك فرح به ٠

وأرسل خلف سيدى محمد ابن الأمير قرقماش، وقال له :

ــ انظر كتابة الأمير خاير بك ملك الأمراء الذى تقول انه لا يوافق على شيء من ذلك ٠

فقال له سيدى محمد : والله انى لم أصدق شيئا من ذلك ، وانما خادعك بهذا الكلام لما رأى منك الجد ، ولكن ان قبلت رأيى اترك هذا الأمر عن بالك ، واقعد فى حالك ٠

فقال له الغزالى : الذى ظهر لى أنك رجل ابن ناس ، وزيزة (١٠٢) مربى فى الدلال ، اقعد أنت فى الشام واحفظ لى البلد الى أن أرجع اليك وتنظر الرجال ٠

فقال له : هأنا قاعد لك هنا ، واذهب حتى أنظر كيف تصنع ، وما أخوفنى عليك ! ٠

(١٠٢) عامية مرادفها خيخة أى غير صلب ٠

ثم ان الغزالى جرد على مدينة حلب ، ولفق له عساكر من كل جنس من عرب ومن جركس ، ومن كرد ومن دروز ، ومن سفل العالم ، وممن لا خير فيه .

وخرج من دمشق فى ضجة عظيمة من شرار الناس وممن لا يرتجى خيره .

ولما وصلت الأخبار الى نائب حلب ، وكان أميرا من صناجق السلطان سليم روميا لا قدرة له على تلك الجموع ، فما ساعه الا أن كتب بذلك كتابا ، وأرسله مع عشرة جاويشية الى السلطان سليمان ، بأن يرسل له عسكرا يرد الغزالى ، والا أخذت حلب من يدى ، وهأنا محاصر الى أن يريد الله بأمر يريده .

فعند ذلك أمر السلطان سليمان اياس باشا الذى كان أغاة اليكنجرية مع السلطان سليم لما أخذ مصر من الجراكسة ، وأيضا له معرفة تامة بالغزالى وخاير بك من ذلك العهد .

فخرج من مدينة اسلانبول قاصدا الى مدينة حلب ، وأخذ خمسة آلاف من اليكنجرية وعشرة آلاف من الاسباهية ومن الضرابزانات وآلات الحرب وشيئا يفوق الوصف .

هذا ما كان من أمر اياس باشا .

وأما الغزالى ، فانه كان قبل خروجه من دمشق الشام منع الدعاء للسلطان سليمان فى الخطبة ، وأمر بالدعاء له ، وأيضا جعل السكة باسمه ، وتسلطن ، وأطاعته العساكر وأهل الشام ، وخطب له على منابرها ، وأمر بالزينة فزينت له زينة لم يعهد مثلها مدة سبعة أيام .

ثم أمر بالتبريز الى مدينة حلب كما تقدم ٠

ولما وصل اليها ، وجد ابوابها قد قفلت وطلعت الناس على سورها ، فلما قرب منها رموا عليه بالمدافع والأحجار ، فأمر بالاقامة لأجل أن يحاصرها فمكث ثلاثة أشهر ، ولم يقدر على أخذها ، فدخل عليه الشتاء واشتد البرد ، فما وسعه الا الرحيل عنها ، ونوى أنه ان جاء الصيف يرجع اليها ولا يرجع حتى يأخذها طيبة أو غصيبة ٠

ثم أمر بالرحيل ، فأخذ عساكر حلب وأهلها فى شتمه وسبه ولعنه ، وهو يسمعهم ويسمع كلامهم وصياحهم وضحكهم عليه ، فرجع مخزيا مشتوما مطرودا ٠

فلما وصل الى دمشق ، تفرقت تلك الجموع الى بلادهم ، وقد دخل عليهم الشتاء ، وقاسوا من البرد والمطر ما لا يوصف ٠

وأما الغزالى فانه ضاق صدره ، وجاءته الأخبار بأن باشة حلب قد كاتب السلطان سليمان ، وأخبره بما فعلت ، وان عساكر الروم قد قدمت عليك مع اياس آغا ، وها هم منتظرون ذهاب الشتاء ودخول الصيف ويأتون اليك فى عسكر بسد الأرض ، فانظر كيف تصنع ، فان أمكنك الهروب فاهرب ٠

وكان المرسل له هذا الخبر رجلا من أصحابه من أهل حلب ، وسفه رأيه ٠

فعند ذلك اضطرب حال الغزالى وندم على ما فعل حيث لم ينفعه الندم ، وكتم ذلك فى سره ، وبقى حيران فى نفسه

كيف يصنع ، ان هرب ما يسهل عليه ترك البلاد ، وان أقام لا قدرة له على ملاقاة الروم ، وقد تشتتت منه تلك الجموع التى كان جمعها وذهبت الى بلادها .

وأيضا انه كان قبل ذلك لما أراد أن يتسلطن دبر حيلة وطلعت بيده ، وهو انه أمر بعمل مولد ، وباشر فى عمله ، وأمر بأن يحضره جميع عسكر دمشق الذين كانوا مع السلطان سليم ، وأبقاهم فى دمشق مع قانبردى الغزالى من السناجق والأغوات واليكنجرية وغيرهم .

فلما اجتمعوا عنده ، مد لهم سماطا طويلا لم يعمل مثله أحد ، وجلست الأعيان فى أعلى السماط ، ثم من دونهم بالترتيب الى آخر السماط ، فالتهوا فى الأكل .

وكانت مماليكه وأتباعه واقفين خلف الذين يأكلون على السماط وكل واحد منهم سيفه تحت ثيابه ، وهم يتعاطون الخدمة .

فعند ذلك آشار لهم ، فحطموا آيديهم فى الأروام الذين على السماط فما شعروا الا ورؤوسهم طائرة ، فوقعت رؤوسهم فى الطعام ، فلم ينج منهم أحد ، فقتلوهم أجمعين ، وصار الطعام كله رؤوسا ، وتلف الطعام من كثرة الدماء والقتلى .

فأمر باخراجهم ورميهم خارج دمشق ، فأكلتهم الذئاب والحدأة والغربان .

ولما فعل ذلك ، صفت له دمشق ولم يبق عنده من يعارضه فيما يفعله ، فعند ذلك تسلطن كما تقدم ، وما زال فى هم

وغم حتى فرغ الشتاء ودفئت الدنيا ، فجاءته الأخبار بأن اياس باشا قادم عليك فى عساكر لا تحصى .

فازداد غما الى غمه ، وأمر بالخروج الى ملاقاة العسكر ، وقال اما ببختى واما ببختهم ، ولكنه ندم على ما فعل غاية الندم حيث لا ينفعه الندم .

وذلك من الحمق ، فان الأحمق يسعى فى هلاك نفسه وهو لا يشعر .

وأما اياس باشا فانه لما وصل الى حلب ، خرج اليه نائب حلب وقابله وأخبره بما فعل من اقفال أبواب البلد ، وانه رمى على الغزالى من أعلى السور ، وانه أقام محاصرا لهم ثلاثة أشهر ، ثم دخل عليه الشتاء فرجع الى دمشق وذكر له جميع ما وقع .

فشكره اياس باشا على ما فعل ، وخلع عليه وعلى أغاة اليكنجرية الذين كانوا بحلب ، ثم قصد دمشق والتم (١٠٣) عليه عساكر كثيرة لا تحصى ، فانه بقى كلما دخل مدينة أخذ منها جماعة ، فصار فى جيش عظيم .

فلما وصل الى ظاهر دمشق ، أرسل جاويشا بكتاب الى قانبردى الغزالى بأن يتأهب للحرب والقتال والطعن والنزال وينظر ما تفعله الأبطال ، وآخذ يوبخه ويحط فى ذلك .

ومن جملة ما قال له فيه : انه لو كان فيك خير كان لأبناء جنسك فالذى ما فيه خير لجنسه كيف يكون فيه خير

(١٠٣) اى اجتمع .

لغير جنسه ، يا خائن يا فاجر يا غدار يا مكار · وأخذ يسبه سبا مبرحا ، ويسود وجهه ويلعنه ·

ويقول له : انما هذه نيتك الخبيثة انقلبت عليك ، فسوف ترى صنع الله فى غد ان شاء الله تعالى ·

فلما وصل ذلك الكتاب للغزالى وقرأه ، ازداد غما على غمه ، وضاق صدره ولم ينم تلك الليلة ولا طرق النوم جفنه ، وأحس بزوال النعمة عنه ، ولم تبق له حيلة يحتال بها أبدا ·

فما ساعه الا أن تأهب للقتال ، اما له واما عليه ، وقد تحقق أنه لا خلاص له من ذلك ، وانه قد خسر خسرانا مبينا ، ولكنه لم يظهر شيئا من ذلك لأحد من خلق الله تعالى ، وكتم ما عنده ·

ولما طلع النهار ، أمر باقامة الحرب وقد صفت عساكره ودق طبله ووقف بنفسه يرتب الميمنة والميسرة ، فلما تم ذلك واذا بعساكر الروم قد أقبلت صفوفا صفوفا ، ووقف اياس باشا والتحم القتال ·

فأمر اياس باشا الرماة أنهم لا يرمون حتى يأذن لهم فى الرمى ·

فحمل الغزالى على عسكر الروم حملة واحدة ، فشتتهم بها ومزقهم كل ممزق ، وصار يقاتل قتال من أيس من الحياة فقتل من الروم مقتلة عظيمة ·

فلما عاين اياس باشا ذلك ، أمر الرماة بأن ترمى بالبندق والمدافع والضرابزانات فما شعر الغزالى الا والدنيا

قد انقلبت والقيامة قد قامت وانطبق الجو من الدخان والغبار ٠

فما كانت الا ساعة واحدة ، وقد ذهبت تلك العساكر والجموع وما سلم منهم الا طويل العمر ، وبقى الغزالى واقفا لا يعرف كيف يصنع ولا أين يذهب ، فالتفت فوجد صنجقه واقفا ليس عنده أحد ، فجاء الى حامل الصنجق ، وكان شابا شجاعا اسمه على بالى ، رباه الغزالى عنده من صغره ، ولكنه ليس جركسيا ، فلما رآه الغزالى شجاعا قربه اليه حتى جعله حامل لوائه ، وكان يصرخ ويقول : ان عليا هذا عندى أعز من ولدى ٠

فلما رآه واقفا والصنجق فى يده قال له :

ــ يا ولدى ٠٠ الى متى أنت تقف وعساكرنا كلهم هلكوا وتشتتوا ؟

قال : والى أين أذهب ؟ روحى قبل روحك ، لا أفارقك حتى تذهب روحى ٠

فشكره الغزالى على ذلك ، وقال له : يا ولدى ما بقى لنا غير الفرار من هذا العسكر الجرار ٠

فقال له : والله يا سيدى ما عملت فينا خيرا ، وما ضرك لو كنت باقيا على ما أنت عليه آمنا على نفسك ، وان كنت سلطانا مخفيا سعيت فى هلاك نفسك وآهلكتنا فى جرتك ٠

قال : ما كنت أظن أن الأمر كذلك ، وان العساكر تفر منى وينقلب الأمر ٠

فقال له على : ان العارفين قالوا من لم يحسب العواقب ما الدهر له بصاحب ٠

فقال : يا ولدى ، مادام هذا الدخان والغبار قائما اقلع هذا الصنجق من على رمحه وضعه فى مخلاته ، وارم الرمح وادفن المخلاة فى هذا الكوم العالى ، ودعنا ننزل عن خيلنا ونقلع لبسنا ونغير حالتنا ، وننجو بأنفسنا ، فاذا رأونا لا يعرفوننا ٠

ثم ان الغزالى نزل عن فرسه ، وخلع ما عليه من اللبس والبولاد الذى لا نظير له ، ودفنه فى التراب وبقى بطان القميص ورأسه مكشوفة كأنه قرندلى ، اذا رآه من لا يعرفه لا يعرفه ، وليط وجهه بالتراب ، وصار كأنه كان مدفونا فى التراب وطلع ٠

وأما على بالى فلما رأى ذلك قال له : والله يا سيدى ليس عندك من الرأى شىء ، فاننا لو كنا على ظهور خيلنا كنا هربنا وحمينا آنفسنا حتى نخلص من محل الحرب ، ثم ننزل على بعد ونختفى فى مكان لا يعرفنا أحد ، وأما نزولنا فى محل المعركة فلا فائدة فيه ٠

ثم ان عليا ركب فرسه ثانيا ، وأخذ عدته وهم بالهروب فقال له الغزالى :

ــ هكذا يا على تذهب وتخلينى للعدو ؟

فقال له : وما الذى أصنع ؟ أنا قلت لك افعل بنا هذه الفعال القبيحة التى لا يفعلها الا المجانين ؟

فبينما هم فى هذه الحالة الا وقد انجلى الدخان يسيرا ، ونظر الناس بعضهم بعضا ، واذا بمنادى اياس باشا ينادى ، كل من جاءنا بالغزالى أو برأسه أو دلنا عليه أو على مكانه آعطيناه جميع ما يتمناه ٠

فدكس على بفرسه الى نحو الميدان ، واذا بهم طائفة من السلحدارية واليكنجرية ٠

فلما وصل اليهم قال لهم : أنا أدلكم على موضعه ٠

فقالوا له : آين هو ؟

فقال لهم : آنا اعرف محله ، وهو بالقرب منكم ولكن ما أدلكم عليه حتى تعاهدونى على ما أريد ٠

قالوا له : لك ذلك ٠

قال : اريد أن أكون أمير سنجق ، فانى أنا حامل صنجقه وأنا من أولاد الشام ، ونحن طائعون للسلطان سليمان باطنا ، وكذلك سيدى محمد بن قرقماس ٠

فقال له الأغا : لك منا جميع ما تريد ان دللتنا عليه ٠

فقال لهم : اتبعونى ٠

وقصدوا نحو الغزالى وهو واقف يبرم كما تبرم القرندلية ، وهو يقول : هو ٠٠ هو ٠

وقصده بذلك حيلة منه لئلا يعرفوه ٠

فقال لهم على : هو هذا القرندلى ، فهو الغزالى ·

فقالوا له : أنت تتمسخر بنا يا فاعل يا تارك ·

وأخذوا يشتمونه ويسبونه ، وهموا بقتله ·

فقال لهم : امهلوا على ، أنا بين أيديكم ، ان لم يكن هو الغزالى ، والا فرأسى عوض كلامى ·

فقالوا له ان الغزالى كان بآلة الحرب من الحديد ·

قال : نعم ·

وحكى لهم ما فعل ·

فجاءوا اليه وأحاطوا به ومسكوه ، وهو يهدر كالمجذوب ويقول : هو ·· هو ·· هو ·

فقالوا له : أنت الغزالى ؟

فقال لهم بعد أن قبضوا عليه وأرادوا قتله : أنا رجل درويش عريان ومن أين لى أن أكون كالغزالى ·

فتحيروا فى أمره ، وعلى بالى يحلف ويقول: لا تصدقوه ، ولكن تعالوا أنا أدلكم على لبسه وفرسه وسلاحه ، انهم على ذلك الكوم العالى ·

فأخذهم وذهب بهم اليه ، واذا بملبوسه كله وصنجقه مدفونان فى التراب ·

فطلعوه ورأوه فعرفوه ورأوا فرسه عند ذلك المكان ، وهو ينكر ·

ويقول : أنا رجل درويش ، كيف تصدقوا هذا الكذاب، انظروا الى حالى ·

فلما تحيروا فى أمره قال لهم : أنا أقطع رأسه وأذهب بها الى اياس باشا فانه يعرفه ، فاذا لم يكن هو فرأسى عوض عن رأسه ·

وجذب سيفه وضرب رأسه فأطاحها ، وأخذها فى مخلاته ، وقال أنا وأنتم الى اياس باشا ·

وأخذوا معهم ملبوسه وفرسه ·

فلما وقفوا بين يدى اياس باشا تقدم ذلك الأغا، وأخبر اياس باشا بما وقع ·

فقال لهم هاتوا الرأس حتى أنظره ، فأنا أعرفه غاية المعرفة ، فوضعوه بين يديه ، فتأمله ، وقال هذا رأس الغزالى بلا شك ·

ثم قال لهم : أين الذى دلكم عليه ؟

فقالوا له : هذا الرجل ·

فسأله عن حاله ·

فأخبره بجميع ما فعل الغزالى ·

فعند ذلك خلع عليه خلعة عظيمة ، وعمله أمير صنجق ، وكذلك سيدى محمد بن قرقماس ·

ومن أغرب ما وقع أنه فى يوم قتل الغزالى وقف رجل على باب الجامع الأزهر ، ونادى بأعلى صوته : يا جماعة ، ان الغزالى قتل اليوم فاذا لم تصدقونى فاكتبوا تاريخ هذا اليوم ·

فكان كما قال ·

ذكر
تاريخ قطع رأس الغزالى الخائن

فما مضى الا أيام قليلة حتى جاءت الأولاقية من عند اياس باشا الى خاير بك ملك مصر بما وقع ، وان الغزالى قطعت رأسه فى اليوم الفلانى وكان العاشر من ذى الحجة الحرام سنة سبع وعشرين وتسعمائة (★) ·

ثم ان اياس باشا أرسل برأس الغزالى الى السلطان سليمان مع الأولاقية ، فزينت البلاد وحصل السرور للسلطان ثم أرسل السلطان الجواب لاياس باشا وشكره على ما فعل ، وأمره بألا يمكن العسكر من ايذاء أحد من الرعايا ، ويأمره باقامة الحدود على الوجه الشرعى ، وأن ينصف فى أحكامه الى آخره ·

وأما خاير بك ، فانه لما بلغه قتل الغزالى تكدر عيشه وأوصى وأعتق مماليكه ·

فقالت زوجته : تعيش رأسك وتبقى ·

(★) ١٠ من ذى الحجة سنة ٩٢٧ = نوفمبر ١٥٢١ ·

وكانت تسمى خوند مصر بيك (★) وكان قد تزوجها قبله الملك الناصر محمد بن قايتباى ، وبقيت عازبة مدة سلطنة الغورى الى أن تولى خاير بك فتزوجها ، فانه لم يكن فى النساء أسخى منها فى عصرها ·

وكانت خازندارتها تسمى دولتباى ، وكانت خوند مصر بيك كاتبة ·

فقال لها : ان بين عمرى وعمره مدة سنة ، فكان كذلك ·

فما تم العام الا وقد مات خاير بك بفرخ الجمر (★★) ، ودفن فى تربته التى عمرها فى طريق القلعة بالقرب من باب الوزير (★★★) ، وهى المعروفة الآن بالخيربكية ·

وكانت الناس تسمع صراخه فى القبر وهو يصيح حتى ضجت الناس من ذلك ·

وكان موته عبرة لمن اعتبر ، وهكذا الدنيا تفعل بأهلها ، فهنيئا لمن أعرض عنها ، وقنع منها باليسير ، وترك الكثير عن باله ، فتبا لها من دنيا غدارة ، وكفى ذما لها قوله سبحانه وتعالى : « فلا تغرنكم الحياة الدنيا » ·· (الآية) ·

(★) خوند او خوندة = امراة او سيدة وجمعها خوندات · وهى جارية الملك التى ولدت منه ، ويقال تولى عقد تزويج جارية السلطان أم بنته · ونساء مصر يطلقنها على زوجة الملك فيقال صارت خوند الكبرى · والعادة القديمة انه تكون الخوندات أربعا : خوند الخوندات « وهى خوند الكبرى » وخوند الثانية والثالثة والرابعة · وكذلك تطلق على اخت زوجة الملك ، وتطلق على السيد الأمير ، وهى كلمة فارسية ·

(★★) هو الطاعون ·

(★★★) باب الوزير ، أحد أبواب القرافة تحت القلعة ، وقد سمى به الشارع الذى يبدأ من نهاية شارع التبانة من عند جامع ابراهيم أغا الى قبلى جامع الأمير سيف الدين ·

قال الراوى . ثم ان السلطان سليمان رحمة الله عليه شرع فى التوجه الى الغزو فى سـبيل الله تعـالى لأخذ بلاد روس (★) .

فانه قد كان قوى بأسـهم وزاد فسـادهم ، وارتفعت رؤوسهم بعد موت السلطان سـليم ، وفرحـوا بموته فرحا شديدا ، وطمعوا فى آخذ بلاد المسلمين ، وحدثتهم نفوسهم الخبيثة بما لا قدرة لهم عليه ، وظنـوا أن ولده السـلطان سليمان لا قدرة له على حرب ولا غيره ، ولد صغير ، فأظهر الله سبحانه وتعالى سر نصرة الاسلام ، وجعله صاحب الكلام والعدل والانصاف .

وكان قد بلغ السلطان سليمان بأن عند خاير آثر من آثار النبى صلى الله عليه وسلم ، فأرسله له (١٠٤) وأرسل له بعضا من ثياب، فلم يجدوا السلطان سليمان بالقسطنطينية، وكان قد توجه فى الغزاة الى بلاد رودس (١٠٥) فقاتلهم وضايقهم ، وعجز ملك رودس .

قال الراوى : لما عجز ملك رودس عن محاربة السلطان ، كتب ورقة وربطها فى عود نشاب ، ورمى بالقوس ، فوقعت فى وطاق الـوزير ، مضمونهـا ، أن سـلطان رودس يريد

(★) فى المخطوطة رقم ٧١٤ جزيرة رودس ، وفى تاريخ ابن اياس جزيرة رودس .

(١٠٤) المقصود أن خاير بك هو الذى أرسله له .

(١٠٥) فى الأصل (روسيا) وهو غالبا خطأ مطبعى . يحدثنا محمد فريد عن فتح السلطان سليمان لرودس فيقول : « .. وبعد ذلك اخذ السلطان ـ سليمان ـ فى الاستعداد .. لفتح جزيرة رودس .. لتكون حلقة اتصال بين مصر والقسطنطينية من جهة البحر ولكى لا يكون للمسيحيين مركز حصين فى وسط بلاده تلجأ اليه عمارات (أساطيل) الدول المعادية للدولة العثمانية وقت الحرب .. » محمد فريد ، مرجع سابق ، ص ٢٠٣ .

الأمان لنفسه وماله . فرأوا النشابة وأوصلوها الى الوزير ، والوزير دخلها للسلطان ، فلما قرأها قال للوزير : أرسل اليه ان كان صحيحا يريد الأمان فقد أعطيته الأمان ، وآخذ البلاد ووقع الصلح ، وهى الى الآن مع آل عثمان .

قال الراوى : لما مات خاير بك ، أرسل السلطان الى مصر باشا يسمى قاسم باشا ، وكان مسالما وكان عنده لين فى حكمه ، وكان كاشف الفيوم والبهنسا جانم المذكور سابقا ، وكاشف المحلة اينال الطويل ، ولاه المحلة خاير بك بعد الصنجق الذى ولاه السلطان سليم .

ثم ان جانم واينال الطويل نويا على العصيان وغزوا على حسن بن مرعى وابن عمه شكر ، وقتلوهما لكونهما غمزوا على طومانباى ، وأنهما يأخذان (★) البلاد من العثامنة ، وقالا : قد مات الفاتح ــ وهو السلطان سليم ــ وهذا ولده السلطان سليمان ليس له قدرة على المحاربة ولو جاءنا حاربناه .

فجمع كل منهما ما قدر عليه من الأشقياء وأوباش الرجال وساروا الى الشرقية يعكسوا فيها ، فبلغ خبرهم الى مصطفى وكان باشة مصر ذلك الزمن .

فجمع الصناجق والأغوات والعساكر ، وأراد أن يجرد عليهم بنفسه .

(★) فى الأصل يأخذوا .

فطلع القاضى موسى بن بركات الى الباشا وقال له : يا مولانا الوزير ، لا تحمل هما بسبب هؤلاء ، اكتب الى كتابا بالأمان وآنا آتى بهم اليك ان شاء الله ·

فكتبت له كتابا بالأمان وأقسم عليه بالأقسام موسى بن بركات ·

وتوجه اليهم ، واجتمع باينال ، وقال له :

ــ ما جاء بك يا قاضى ؟

فقال له : جئت فى أمر صغير يسير ·

وأخذ يخادعه بالكلام ، وقال له سأذكر لك ما جئت فيه ·

فقال اينال : آنا أعرف ما جئت فيه ، وهو أنك تريد الصلح بيننا وبين الباشا ، وبعد أن يقابلنا يقتلنا ، وتصير أنت مشكورا عنده يا كلب يا ابن الكلب ·

فأخذ يلين الكلام لما أن أغلظ عليه اينال ·

فقال له : ان الباشا حلف لكم بأنه لا يضركم ·

فقال : تكذب ·

وازداد غيظا ·

وقال : يا أسود ، جئت الينا تعسعس وراءنا ، دايروا أكتافه ·

فأداروه ٠

وطلع من الخيمة حافيا مكشوف الرأس ، وضرب ضربة أطاح رأسه ٠

ثم اجتمع معهم الجراكسة الأشقياء ، وجاء الخبر الى الباشا بأن اينال وجانم قطعوا رأس موسى بن بركات ، وان الأشقياء مجتمعون للحرب ٠

فلما بلغ الباشا ذلك آمر بخروج العسكر ٠

فأول من خرج موسى آغا آغاة الانكشارية والأغوات الثلاثة ، وأرسل معهم زربطانات كثير ، ثم انه أبطل بلك (١٠٦) الجراكسة لم يرسله معهم ٠

فلما أقبلوا على العدو أرسلوا يقولون له : فى غد الحرب ٠

فلما أصبحوا ، بادروا للحرب والقتال والطعن والجدال الى نصف النهار ، فجرت الجراكسة من كثرة النيران ، وأفحش جانم فى القتل ، الا وقد عثر جواده ، فانكسرت رجله فوقع من على ظهره ، وطلب غيره فلم يأته أحد ٠

فحطت العساكر عليه ، وقطعوا رأسه وعلقوها على رمح ، ونادوا عليها ، جانم قتل وهذه رأسه ٠

فلما سمع اينال ذلك هرب الى نحو غزة ٠

---

(١٠٦) أى فوج الجراكسة ، وبلكات النظام أى فرق النظام ــ محمد السعيد سليمان ، مرجع سابق ، ص ٤٤ ٠

وقطعوا رأس الصنجق الذى يستحق قطعها ، وتركوا الهيوشة ، ورجعوا الى مصر منصورين مؤيدين ٠

ثم انهم لما دخلوا مصر أمر الباشا بتعليق رأس جانم على باب زويلة ، ثم أرسلها للسلطان سليمان ٠

قال الراوى : وكان الوزير الأعظم أحمد باشا ، فعزله السلطان وولى ابراهيم باشا ٠

ثم ان أحمد باشا جلس فى بيته وهو غضبان الى أن أرسله الى مصر باشا ، فعصى على السلطان وتنمرد ، وقتل فى أيامه بقية الجراكسة ، وحرقهم بالنار ، طلعوا المدافع من السرداب الذى بمصر القديمة وقتلهم الانكشارية ٠

وكانت المبايعة له فى بر الجيزة فقفلوا عليه باب القلعة وحاصرهم الى آن غلبهم وأهلكهم أجمعين ، وصادر جميع الخواجات والتجار وصار يضربهم بمقارع وكسارات ٠

وكان أحمد بن المرقبان دفتردار ، وقعد شوية أيام ، وشنقه وحبس جانم الحمزاوى وظلم العباد ٠

ففى ذات يوم نزل الحمام الذى بالمراغة ، وكان هناك صنجق يدعى محمد بيك ، فلبس عدته ، وأخذ مماليكه وصار ينادى : الله ينصر السلطان سليمان ، من جاءنا عليه الأمان ٠

حتى التم عليه عسكر جرار الى آن أوقفوا على باب الحمام ، فطلع من السطوح الى المستوقد ، ونفذ الى القلعة ٠

فلما أن كان الليل ، رحل بمماليكه الى عند أحمد بن بقر (بقار) .

فلما أصبح الصباح جاءت العسكر الى القلعة فوجدوها خالية .

فعند ذلك قالوا : نتبع أثره .

فسألوا بعض من رآه وهو رايح .

فقالوا لهم : نزل من على عرب اليسار .

فاستمروا يقصون جرته ويسألون ، والركب الكثير ما تخفى جرته ، حتى وقعوا به هو ومماليكه ، وجميع من معه .

ثم انهم مسكوه ، وقطعوا رأسه ، وأرسلوها للسلطان من وقتها وساعتها .

قال الراوى : هذا ما كان من أمر أحمد باشا .

وأما السلطان سليمان ، فانه لما علم بعصيانه جهز له ابراهيم باشا الوزير الى مصر بعساكر ملأت الأرض من كل جنس ، فأخذ معه من الأعيان آغاة الانكشارية وأحمد أغا والأمير مصطفى ، وجاء معهم خلق كثير ، فصادفوا الرأس فى الطريق ، ففرح ابراهيم باشا بذلك وقال : لابد أن أذهب الى مصر ، وأنظرها وأدبر أمرها .

فجد فى السير الى أن وصل الى الشام .

فلاقاه سليمان باشا باشة الشام ـ وكان سليمان باشا هذا ولاه اياس أغا موضع الغزالى ـ ملاقاة حسنة ، وقدم له تقدمة مليحة وحظى منه ابراهيم باشا ، فقال له : امض معى الى مصر أقيمك فيها باشا ، فان معى من الخنكار خطا همايونيا أختار من أريد ٠

فجاء سليمان باشا الى مصر صحبته ٠

فلما دخل ابراهيم باشا الوزير الى مصر ولى سليمان باشا باشة مصر ، وأجلسه ورتب الأمور كما أراد ، وهو الذى قرر الجوالى وجعلها موقوفة على العلماء ، وأقر سليمان باشا على مصر ، وأخذ الحمزاوى معه ٠

وسبب أخذ الحمزاوى هو أنه كان تكلم مع ابراهيم باشا الوزير بسبب مال مصر الذى يتجمد كل عام ، ما أفعل به ؟ ٠

فان السلطان سليم لما أخذ مصر من الجراكسة ، قال له خاير بك :

ـ المال الذى يتجمد ، ما أفعل به ؟

قال : أعط العساكر جوامكهم بالتمام من غير اسراف ، وما بقى ضعه فى بيت المال للمسلمين لوقت الاحتياج اليه ٠

فبقى الأمر على ذلك الى أن جاء ابراهيم باشا كما تقدم ٠

ثم رجع ورجع معه جانم الحمزاوى ٠

واجتمع ابراهيم بالسلطان وأخبره بجميع ما فعل ، وحسن له عبارة بأن غالب مال مصر ضائع ، يتصرف فيه الكتبة ، وسأله ضبط هذا المال وارساله فى كل عام للصرف منه على العساكر ، وفى المصالح والغزاة وغيرها ٠

فأمر السلطان سليمان أن يكون جانم الحمزاوى دفتردار على ذلك ، من غير ظلم لأحد ويضبطه على وجه الانصاف ٠

فأول سنة ضبطها جاءت سبعة أحمال ، وفى ثانى سنة جاءت ثمانية أحمال ، وبقيت على ذلك الى أن سافر سليمان باشا الى الهند وتولى خسرو باشا ، فأرسلها اثنى عشر حملا بزيادة أربعة أحمال ، فلم يقبل السلطان سليمان الأربعة أحمال ، وأبقاها على باب الديوان مدة شهر خشية من أن تكون قد أخذت من أربابها بالظلم ٠

وأمر باحضار سليمان باشا وخسرو باشا وقال له :

ـ لابد أن تخبرونى هذه الأربعة من أين جاءت ؟

فقال خسرو باشا : سليمان باشا تهاون فى ضبط المال فلم ينم ، وأنا قد اهتممت فى ضبطه فنما معى ٠٠

فقال السلطان : قد حصل فى هذا المال الشك ، فأنا لا أدخله فى خزانتى ٠

فصرف على غير ما أدخل به الى القسطنطينية ٠

قال : فلما رجع سليمان من الهند رجع خسرو باشا ، وأقام سليمان عدة سنين ثم عزل ٠

وتولى مصر داود باشا الى أن مات بها .

ثم تولى بعده محمد باشا قريب السلطان .

ثم عزل عنها .

ثم تولى بعده على باشا الطواشى ، وكان من أهل الدين فى الصلاح فأقام بها الى أن مات ، ودفن بالقرافة ، بالقرب من تربة القاضى بكار ، رحمهم الله رحمة بالغة ، فانه كان من أهل الله تعالى والصلاح شاهد له .

وهذا آخر ما انتهى من وقعة السلطان الغورى مع السلطان سليم ، وكان الفراغ من كتابة هذه السيرة يوم السبت سادس عشر صفر الخير من شهور سنة خمس وستين وألف (١٠٦٥ هـ) .

والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

ملحـــق (*)
مصر والقاهرة

لم تكن القاهرة عند الفتح العربى لمصر معروفة معالمها على النحو الذى نعهدها عليه الآن ، أو على نحو قريب منه ، وانما كان مكانها الجزء من الأرض الذى يشغله حاليا حى مصر القديمة وما حوله الى الشرق دون الجبل والى الجنوب ، وكان اسمها مصر والفسطاط ، فلم يكن لفظ القاهرة قد عرف بعد .

ولما قدم القائد جوهر الصقلى بعساكر الفاطميين الى ساحل الفسطاط وقت الزوال من يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شهر شعبان سنة سبع وخمسين وثلاثمائة ، نزل شمال الفسطاط فى الأرض التى فيها اليوم الجامع الأزهر وبيت القاضى وخان الخليلى وبين القصرين ، وما جاورها من الأماكن التى بين الجبل والخليج .

وكانت هذه الأرض رمالا فيما بين مصر الفسطاط وعين شمس التى تسمى الآن بالمطرية ، يمر بها الناس عند سيرهم من الفسطاط الى عين شمس فيما بين الخليج المعروف فى أول الاسلام بخليج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وبين الخليج الذى يمر بجانب الجبل شرقى العباسية ، وكان ذلك الخليج يمر بقربها وقد زال هذا الخليج الآن ولم يبق له أثر .

عند نزول جوهر بهذه الرحلة لم يكن بها بنيان غير البساتين ، وأماكن قليلة ، منها بستان الأخشيد ، محمد بن

(*) وضع الاستاذ عبد المنعم عامر .

طفج المعروف بالكافوري وكان هذا البستان شرقى الخليج، ومحله الآن فيما بين جامع الشعرانى والسكة الجديدة قريبا من قنطرة الموسكى ممتدا فى الجهة الشرقية الى النحاسين ، وكانت مساحة البستان تبلغ ستة وثلاثين فدانا ، وبجانبه من الجهة القبلية ميدان الاخشيد ، ومحله الآن من شاطىء الخليج الشرقى الى شارع السكرية والغورية ، وكان فى محل الجامع الأقمر دير للنصارى يعرف بدير العظام .

وكان بهذه الرملة أيضا موضع آخر يعرف بقصر الشوك ، تنزله بنو عذرة ، وصار عند بناء القاهرة خطا يعرف بقصر الشوك .

وفى تلك الحقبة كان الخليج المصرى ينتهى عند قنطرة بناها عبد العزيز بن مروان سنة تسع وستين ، وموضعها الآن نهاية حارة السيدة زينب ، وكانت الحارة طريقا لا بناء فيه ، يمر الناس من فوق هذه القنطرة الى الشاطىء الغربى للخليج والى ساحل النيل ، وكان فى غربى الخليج تجاه معسكر جوهر قرية اسمها : أم دنين عرفت فيما بعد بالمقسى ، وهى الآن جزء من أجزاء القاهرة على يسار السالك لشارع كلوت بك الى سكة الحديد ممتدا الى الشارع الواقع عليه جامع أولاد عنان ، وكان الخليج فاصلا بينهما وبين الرملة .

وكان فيما بين قرية أم دنين والشاطىء الغربى فضاء لا بناء فيه ، ثم صار بعد بناء القاهرة ميدانا توضع فيه الغلال ، وقد سماه المقريزى ميدان القمح ، وهو الآن من أجزاء قسم باب الشعرية ، وكان الواقف بهذا الفضاء يرى النيل عن يمينه من بعد اذا استقبل المغرب ، وعن يساره بستان المقسى محل الأزبكية ، وبعده بساتين حتى الفسطاط .

وكان المسافر من الفسطاط الى الشام من العسكر والتجار وغيرهم ينزل بطرف هذه الرملة فى الموضع الذى كان يعرف اذ ذاك بمنية الاصبغ ثم عرف زمن الفاطميين بالجندق ، ويعرف الآن بالدمرداش ، ثم يسافر من منية الاصبغ الى بلبيس والعلاقمة ثم الى الفرما ، ولم يكن هذا الطريق معروفا قديما ، وانما عرف بعد خراب تنيس والفرما ، وكان من يسافر من الفسطاط الى الحجاز برا ينزل بجب عميرة المسمى أولا ببركة الجب ، والآن يسمى ببركة الحاج وكانت حافة الخليج الشرقية هى الطريق العام .

وكان القادم من الفسطاط الى القاهرة يجد عن يمينه منازل العسكر فى حمل التلال التى تشاهد آثارها الآن قريبا من نهاية شارع السد بالسيدة زينب ، ثم يجد عدة أديرة وكنائس موضع قسم السيدة زينب ، ثم بركة البغالة وبركة الفيل الى سور القاهرة ، وكانت العامة تجلس فى هذا الطريق أمام السور للتفرج على الخليج وما وراءه من البساتين والبرك .

وأما بر الخليج الغربى ، فكان بأوله من الشمال قنطرة عبد العزيز بن مروان ، وفى شمالها البستان الزهرى ممتدا الى مكان باب اللوق ، ويتصل به عدة بساتين أخرى الى المقسى ، وجميعها مطل على النيل ، ولم يكن للشاطىء الغربى للخليج عرض كبير ، وانما يمر النيل فى غربى البساتين على الموضع الذى يعرف الآن بباب اللوق ، وأوله عند جامع الطباخ ويمتد جهة الغرب الى ساحل النيل .

وكانت الفسطاط (مصر القديمة) اذ ذاك مدينة كبيرة ، وهى مستقر الملك ومقام الأمراء ، واليها تجبى ثمرات الاقاليم ، وكانت ذات عمارة كثيرة السكان ، وكان حدها الشرقى من باب القرافة تحت قلعة الجبل ممتدا الى بركة الحبش التى تعرف الآن بالبساتين ، والحد الغربى قناطر السباع الى دير الطين ممتدا على ساحل النيل ، والحد القبلى من شاطىء النيل عند دير الطين الى نهاية الحد الشرقى حيث البساتين ، والحد البحرى من قناطر السباع الى قلعة الجبل ، وما بين تلك الحدود كان مشحونا بالعمارة من الدور الفاخرة والأسواق والمبانى وكان منها العسكر والقطائع .

وقد تخرب كل هذا واندرست معالمه ولم يبق منه الا القليل جدا ، مثل قسم السيدة زينب وقلعة الكبش وجامع طولون ، والسيدة نفيسة الى آخر مبنى قسم الخليفة وقرة ميدان .

ولما دخلت عساكر المعز لدين الله الفاطمى البلادالمصرية سار الى الفسطاط ، ثم اختار القائد جوهر الصقلى أن يبنى فى شمالها بعيدا عنها فاختط للعسكر مكانا فى الرملة تجاه قرية أم دنين ، وبنى القصر وأدخل فيه دير العظام ، ومحله الآن جامع الأقمر ، واختطت كل قبيلة مكانا عرف بها ، وأدار جوهر السور حول منشآته وسمى ما اختطه المنصورية .

وفى خطط المقريزى ، ان القاهرة فى أول الأمر كانت تسمى القلعة ، والطابية ، والمعقل ، والحصن وقد قصد

جوهر باختطاطها فى هذا الموضع أن تكون حصنا حصينا للفسطاط ممن يقصدها من جهتها البحرية ، خصوصا القرامطة الذين كانت بأيديهم بلاد الشام القاصية .

وكانت القاهرة اذ ذاك بين ثلاثة خنادق ، خندق قبليها ، وهو الذى حفره عمرو بن العاص ، وكان شرقى قبر الامام الشافعى ، وخندق اليحاميم وأوله الجبل الأحمر المسمى بجبل اليحاميم ، وخندق من غربيها وهو الخليج الذى كان معروفا الى عهد قريب ، ومحله الآن شارع بور سعيد ، ولما أدار جوهر الصقلى سورها حفر لها الخندق الرابع بحريها وأدخل فى السور بستان الأخشيد ومياهه وجعل دير العظام وقصر الشوك ضمن القصر الكبير ، فكان البستان بين القصر والخليج ، وكان البستان كبيرا جدا ، ومحله الآن حارات اليهود والخرنفش حتى شارع النحاسين .

وكان فى السور الذى بناه جوهر عدة أبواب ، ففى الجهة البحرية باب النصر القديم ، وقد كان بجوار زاوية القاصد ، وباب الفتوح القديم وكان بجوار حارة بين السيارج ، وبالجهة القبلية بابان متلاصقان ، يسميان بابى زويلة ، ومكانهما بجوار سبيل العقادين ، وفى الجهة الشرقية الباب المحروق القديم وباب البرقية ، وكان خارج حارة البرقية التى اختطها جماعة من أهل برقة ، وهى التى تعرف اليوم بالدراسة وفى الجهة الغربية باب سعادة ، وباب آخر يسمى باب القنطرة ، أقيم بالقرب من القنطرة التى بناها جوهر على الخليج ، يمر منه السالك من باب مرجوش الى باب الشعرية ، وباب ثالث بالقرب من مسجد المؤيد ، وباب رابع يعرف بباب الخوخة ومحله تجاه جامع الشيخ فرج .

وكان الذاهب من الفسطاط الى عين شمس (المطرية) يسير على ساحل النيل القديم ثم يسير على شاطىء الخليج الشرقى ، فتكون عن يمينه بركة الفيل الصغيرة (بركة البغالة) ثم يلى هذه البركة بركة الفيل الكبيرة وتمتد بركة الفيل الكبيرة الى قرب باب زويلة ، ويحدها من جهة الشرق شارع السروجية ، وكان بساحلها الشرقى بساتين تمتد الى الرميلة والسيدة نفيسة وتتصل بها بساتين أخرى عند القطائع والفسطاط الى النيل ، ومن جهة الغرب الطريق المار شرقى الخليج ، وهو الشارع المعروف الآن بدرب الجماميز وعلى حافة هذه البركة بنى بعد هذا جامع بشتاك (تكتب أحيانا بشتك) وغيره من المبانى ، ومن الجهة القبلية الجسر الأعظم وهو الطريق الذى يمر تحت قلعة الكبش ويوصل من الصليبة الى قسم السيدة زينب ، ويحدها من الجهة البحرية الشارع المعروف بشارع تحت الربع .

وكان السالك على حافة هذه البركة من الجهة الغربية فى طول الخليج يشاهد غربى الخليج النيل وبينه وبين الخليج بساتين على ضفته الغربية ممتدة الى قنطرة باب الخلق ، فاذا حاذى السالك القاهرة كانت عن يمينه وجملة بساتين أخرى عن يساره ممتدة الى النيل ، والى قنطرة البكرية الموجودة الآن بشارع العباسية قرب جامع الظاهر شمالا .

وكان فى شمال القاهرة مزارع وبساتين ممتدة الى المطرية ، ولم يكن فى الجهة الشرقية الا جبل الجيوشى .

ولما استقر الفاطميون فى مصر آحدثوا فى ضواحيها الأربع المبانى الفخمة والمناظر البهيجة والبساتين النضرة .

ثم ان جوهرا بنى الجامع الأزهر قبلى القصر الكبير ، وجعل بين الجامع والقصر اصطبل القصر ، وبه الخيول الخاصة بالخليفة ، وكان مفصولا عن الجامع برحبة ، ومحل الاصطبل حاليا شارع الشنوانى وما عليه من المبانى والأزقة ، وبنى مدفنا لآباء المعز لدين الله الذين أحضر معه أجسادهم فى توابيت من بلاد المغرب ، وكان هذا المدفن مكان خان الخليلى المعروف الآن .

ولما كانت الشدة(١٠٧) فى زمن الخليفة المستنصر وطلب عساكر الأتراك منه النفقة فماطلهم هجموا على هذه التربة وانتهبوها بما فيها من قناديل الذهب والمداخن والمجامر وحلى المحاريب ، ثم لما زال ملكهم وانقرضوا وتداولت الأيام والدول وأنشأ الأمير جهاركس الخليلى أيام الناصر بن قلاوون خانه المعروف بخان الخليلى ، أخرج من هذه التربة عظام الفاطميين فألقيت فى المزابل على كيمان البرقية .

وأما الفسطاط فكانت مقر الأعيان وأرباب الثروة ورجال العلوم والصنائع والحرف ، وكانت الثروة اذ ذاك كبيرة والتجارة واسعة بسبب اتساع ملك الفاطميين ، فانه كان ممتدا الى أقصى بلاد الشام والمغرب ، وكانت تأتيها البضائع مما دخل تحت ملكهم ومن غيره ، وقد ساح فى بلاد مصر بعد بناء القاهرة بخمسين عاما عالم من الفرس ، اسمه الناصرى خسرو ، ووصف القاهرة والفسطاط ، فقال فى رحلته المعروفة بسفر نامة :

« ان الفسطاط تظهر من بعد كالجبل ، فيها منازل من سبع طبقات فأكثر وسبعة جوامع كبار .. وان القاهرة

(١٠٧) أى المجاعة المعروفة بالشدة المستنصرية .

لا يوجد لها شبيه فى الدنيا ، وقد حسبت فيها عشرين ألف دكان ، جميعها ملك السلطان ، وأغلبها مؤجر بعشرة دنانير، والحمامات والوكائل وغيرها من المبانى لا يحصى عددها ، وكلها ملك السلطان ، لأنه كان ممنوعا فى القاهرة التملك لغيره » .

واستمر العمران فى مصر والقاهرة وكثرت المبانى الى أن كان حريق مصر الذى قام به شاور بن مجير السعدى الوزير وأمير الجيوش فى عهد الخليفة القاصد لدين الله بن عبد الله بن يوسف آخر خلفاء الدولة الفاطمية ، فقد تحالف شاور مع جيوش الفرنج على مقاومة أسد الدين شيركوه وأحدث بمصر حريقا استمر أربعة وخمسين يوما وأتى على كل ما فيها من المبانى ، فأصبحت الخراب والتلال التى تشاهد الآن جنوبى أرض المدابغ بالقرب من كنيسة مارجرجس بالقاهرة ، وأما القاهرة فقد نمت وزادت بعد خراب الفسطاط واتسعت دائرتها بانتقال من انتقل اليها ممن كان فى الفسطاط وغيرها ، الى أن حصل فيها الوباء العظيم فعظم الخراب وشرع الناس فى هدم الدور .

ولما زالت الدولة الفاطمية واستقرت الدولة الأيوبية جد صلاح الدين الأيوبى فى العمارات وآباح سكنى القاهرة للخاص والعام ، فزادت فى الاتساع وهدم حارات العبيد ، وموضعها اليوم الداودية والقربية ، وجعل مكانها بستانا وبنى قلعة الجبل وسور القاهرة وهدم ما كان هنالك من المساجد وأزال القبور ، وهدم الأهرام الصغار التى كانت بالجيزة تجاه مصر ، وكانت كثيرة العدد ، ونقل حجارتها وبنى بها السور والقلعة ، وبنى قناطر الجيزة لسهولة نقل الأحجار عليها .

وفى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب بنيت قلعة جزيرة الروضة ، وانتقل السلطان اليها وبنى الناس على ساحل النيل المقابل للجزيرة الدور العظيمة وسكنها علية القوم ، ومكانها حاليا جنينة السادات بمصر القديمة ، وامتدت العمارات الى المدرسة المعزية بآخر مصر العتيقة ، وكانت هذه الجهة من أعمر الجهات تتصل مبانيها بالعمارة الممتدة الى الكبش وجبل يشكر الى دير الطين ، وتزايدت العمارات بالحسينية حتى صارت من الريدانية الى باب الفتوح ، وعمر ما حول بركة الفيل والصليبة الى جامع ابن طولون وما جاوره الى المشهد النفيسى ، وحكر الناس ارض الزهرى وما قرب منها وهو من قناطر السباع الى منشأة الوهرانى ، ومن قناطر السباع الى البركة الناصرية الى باب اللوق الى المقسى ، وبنى السلطان القصر الأبلق بالقلعة وعمل بجانبه بستانا متسعا ، وكان ذلك القصر مشرفا على الرميلة وقرة ميدان وكان بداخله ثلاثة قصور ، وجميع قصور الأمراء ترفع اليها المياه من النيل بدواليب تديرها الحيوانات ، فتنقلها من موضع الى أعلى منه حتى تصل الى القلعة ٠

وفى عهد قلاوون حفر خليج من النيل لتمر فيه المراكب الى ناحية سرياقوس وأخذ الناس فى العمارة على حافتى الخليج فيما بين المقسى وساحل النيل ببولاق ، وكثرت العمائر على الخليج حتى اتصلت من أوله بموردة البلاط الى حيث يتصل بالخليج الكبير فى أرض الطبالة والى سرياقوس وتنافس الناس فى السكنى هناك ٠

وكان النيل قد انحسر عن جانب المقسى الغربى ، وصار هناك رمال متصلة من بحريها بجزيرة الفيل ومن قبليها

بأراضى اللوق ، فعمر الناس فى تلك الرمال ، وهى الجهة التى تعرف اليوم ببولاق ، وأنشأوا بجزيرة الفيل البساتين والقصور حتى لم يبق فيها مكان بغير عمارة ، وكثرت المبانى من الجهة القبلية الى القاهرة ، وعمرت القرافة من باب القرافة الى بركة الحبش طولا ومن القرافة الكبرى الى الجبل عرضا ، واتصلت مصر بالقاهرة حتى صارتا بلدا واحدا .

ويذكر المقريزى فى خططه أن عدد ميادين القاهرة كان تسعة وأربعين ، وأنه فى زمن الدولة الفاطمية كان القصر الكبير والقصر الصغير منفصلين بميادين كبيرة ، وفى مواضع أخرى من القاهرة كانت هناك رحاب واسعة تجاه منازل الأمراء ، ولما زالت الدولة الفاطمية كان عدد الميادين داخل القاهرة عشرة ، وبقى ذلك فى الدولة الأيوبية الى زمن السلاطين الجراكسة ، فكثر البناء داخل القاهرة وخارجها ، ولما حصل البناء خارج البلد فيما كان هناك من البساتين كان خارج القاهرة من جهاتها القبلية والغربية والبحرية عبارة عن قصور وبساتين تتخللها ميادين كبيرة ، فى الجهة القبلية ميدان ابن طولون ، وميدان الملك العادل أمام الكبش على بركة الفيل ، وميدان المهارة والميدان الناصرى ، وكانا فى الأرض الواقعة تجاه القصر العينى والقصر العالى ، وفى الجهة الغربية كان ميدان الصالح والميدان الظاهرى فى الأرض الواقعة تجاه قصر النيل ، وميدان العزيز تجاه منظرة اللؤلؤة من أرض بركة الأزبكية ، وفى الجهة البحرية كان ميدان قراقوش الذى يوجد فى بعض مساحته جامع الظاهر .

وكان الحكام يتأنقون فى قصورهم فى تلك الميادين ، وكانت أيام خروجهم اليها أيام فرح وسرور ، وكان الناس يجدون بعد فراغهم من الأعمال فى المواسم والأعياد المحلات العديدة للنزهة والرياضة ٠

ولقد كان شكل القاهرة فى زمن القائد جوهر مربعا تقريبا ، وطول كل ضلع من أضلاعه ألف ومائتا متر ، ومساحة الأرض المحصورة فيه نحو ثلاثمائة وأربعين فدانا ، منها نحو سبعين فدانا بنى عليها القصر الكبير ، وخمسة وثلاثون فدانا للبستان الكافورى ومثلها للميادين ، فيكون الباقى وهو الذى توزع على الفرق العسكرية مائتى فدان فى نحو عشرين حارة ، رسمت بجانبى القاهرة ، وكان سور المدينة بعيدا عن الخليج بنحو ثلاثين مترا ، وفى سنة ست وثمانين وأربعمائة هدم السور وبنيت الأبواب من حجر وجعل عرض السور الجديد نحو سبعة أمتار ، وبلغت مساحة القاهرة أربعمائة فدان ٠

وفى سنة ست وستين وخمسمائة ، فى زمن صلاح الدين الأيوبى شرع فى عمل سور واحد يحيط بالقاهرة ومصر والقلعة وبناه من الحجارة ، ولكنه مات قبل أن يكمل ، وجعل خلفه خندقا ٠

وكان شكل السور غير منتظم ، وهو عبارة عن شكل كثير الأضلاع ، وقد زال أكثر الأبواب وتغير شكل المدينة الى ما هى عليه الآن ٠

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] ١٢٥ [illegible]

[illegible]

مسرد
بأهم المصطلحات المملوكية والعثمانية الواردة بالكتاب

(أ)

اتابك

ويكتب أيضا أطابك ، مقدم العسكر .

أجناد الحلقة

هم الأكثر عددا فى التشكيل العسكرى المملوكى ، وكانوا بمثابة الجيش الدائم للدولة . عنهم انظر ص ٤٧

آكديش

والجمع آكادش وآكاديش ــ فارسية دخلت التركية ــ فرس هجين .

أمير آخور

المشرف على اسطبل السلطان أو الأمير .

أمير الحاج الشريف

انظر مادة أمير كبير

أمير حاجب الحجاب

انظر مادة أمير كبير

أمير خازندار الكبير

انظر مادة أمير كبير

أمير دوادار الكبير

انظر مادة أمير كبير

أمير سلاح

راجع مادة أمير كبير

أمير كبير

وظيفه ذات شأن عظيم . يقوم بخدمه شاغلها ٢٥٠٠ مملوك . وشاغلها من مقدمى الألوف . وكانت الوظائف حسب منازل اصحابها كالتالى : أمير كبير ، ثم يليه أمير سلاح ثم أمير مجلس ثم أمير دوادار الكبير ، ثم أمير آخور الكبير ، ثم رئيس نوبة النواب ثم أمير حاجب الحجاب ثم أمير خازندار الكبير ، ثم أمير الحاج الشريف ، ولا تشغل هذه الوظائف الا من جملة مقدمى الألوف .

أمير مجلس

يدير مجلس السلطان أو الأمير . آثار لهذا المنصب القلقشندى فى صبح الأعشى .

الانكشارية

أو اليكنجرية أو الينكجرية من الكلمة التركية Yeni بمعنى جديد وكرى Kery بمعنى عسكر ــ أى بمعنى العسكر الجدد ، وهم جيش من المشاه أنشىء فى عهد السلطان العثمانى أورخان ٧٢٦ هـ/١٣٢٦ م .

كان جنوده عزابا وفى عهد السلطان سليم سمح لهم بالزواج بشرط كبر السن ، ثم أطلق حق الزواج • وارتبط الانكشاريه بالطريقه الصوفية البكتاشية •

أولاقية السلطان

اى رسل السلطان •

(ب)

البريد

مسافة تقدر باثنى عشر ميلا •

البكارية

طريقة صوفية تنتسب للشيخ اسد الأبو بكرى • ذكر على مبارك راويته ووصفها •

بورصة

وتكتب أحيانا برصه ، منطقه ومدينه بآسيا الصغرى • كانت عاصمة للدوله العثمانية فى الفترة من ١٣٢٧ الى ١٣٦١ ، ثم انتقلت العاصمة الى أدرنة ثم الى استانبول (اسطنبول) سنة ١٤٥٣ •

(ت)

الترابى

والجمع ترابيون أى المماليك الذين تم جلبهم أطفالا وتمت تربيتهم منذ الطفولة الى أن صاروا فرسانا •

الترسيم

التحفظ وتحديد الاقامة •

التعبيط

أو العياط تعنى الصياح وهى فى اللهجة اللبنانية بهذا المعنى ، وانصرف معناها عند العامة فى مصر الى البكاء ، ويستخدمها ابن زنبل بالمعنى **الأول** •

(ج)

الجاشنكير

فى الأصل وظيفة يقوم شاغلها بتذوق المأكول والمشروب قبل السلطان أو الأمير خوفا من أن يكون مسموما •

جامكية

راتب

الجراكسة :

هم أبناء شعب موطنه غرب القوقاز وقسم من الشاطىء الشرقى للبحر الأسود ، وقد هاجروا الى تركيا وسوريا والأردن ، وقد غلب عنصرهم على دوله المماليك الثانيه •

الجنيب

هو الفرس الذى يسير بلا راكب الى جانب فرس آخر مركوب •

(خ)

الخاصكية

خاصة السلطان من المماليك ، وهو الذى قام شخصيا بالاشراف على تربيتهم • وهم أكثر قربا وحظوة من الأجلاب •

الخانقاه

كلمة فارسية معناها بيت العبادة• يقيم فيها الصوفية •

خوند

أو خونده ، سيده وجمعها خوندات وهى جارية الملك التى ولدت منه . ونساء مصر يطلقنها على زوجه الحاكم وتطلق كذلك على أخت زوجة الملك وتطلق على السيد الأمير وهى فارسية .

(د)

الدبابة

والجمع دبابات . آلة حربيه تشبه البرج المتحرك على عجلات . هذا البرج من عدة أدوار . تستخدم فى مهاجمة الحصون وتسلق الأسوار .

الدوادار

أى شاغل وظيفة الدواداريه أى حمل دواة السلطان وابلاغه بالرسائل الصادرة عنه وتقديم الشكاوى اليه .

(ر)

رأس نوبة النواب

انظر أمير كبير

الركيز

الجزء الأسفل من السيف

(ز)

الزردخاناه

بيت الزرد أى بيت السلاح ، وتطلق أحيانا على السلاح نفسه .

الزعر

جمع أزعر ، والمقصود العوام من أهل المدن ممن ليسوا مماليك أو بدوا .

(س)

السردار

أى القائد ، من الفارسية : سر بمعنى الرأس ، ودار بمعنى صاحب .

(ص)

الصنجق

أو السنجق ، مفرد صناجق . كلمة تركية معناها العلم (بفتح العين) أو اللواء وقد تطلق على القسم من الولاية الكبيرة والصنجق أيضا هو حاكم هذا القسم من الولاية ، وقد تكون الصنجقية مجرد رتبة دون أن يكون حاملها حاكما .

الصوباشى

وظيفه عسكرية فى الجيش التركى وكان راتب النفر الصوباشى ٣٠ دينارا شهريا ، بينما راتب نفر الانكشارية ١٥ دينارا .

(ط)

طبلخانه

طبل خانه أو تكتب متصلة طبلخانه أو طبلخاناه هى دار بها من الكوسات التى تدق على باب السلطان وأربع طبل (طبلات) كبيرة وأربعة زمور (جمع زمارة) وعشرون نفيرا ولها رئيس وعدة خدم .

(ع)

عـراده

والجمع عـرادات ، وهى آلـة حربيـة أصـغر من المنجنيق ترمى بالحجارة الى بعيد .

العلوج

المفرد علج . كلمة تطلق على من تحول للاسلام ولم يحسن اسلامه .

(ف)

فرخ الجمر

كلمـه تطلق على مرض الطاعون

الفلاوية

أو الفلاتية هو أوباش الناس .

(ق)

القرانصة

الجند القرانيص وهم الموصـولون بالديوان ، أصحاب الأرزاق الكبيرة ويكونون فى منزلة أمراء الخمسوات . ويسمون أيضا الوغاد .

القابوجيه

الحجاب والمفرد قابوجى

(ك)

الكاشف

جمعها كشـاف أو كشفه (بفتح الكاف والشين والفـاء) ، ومنصب الكاشـف كان يفوق منصـب والى الاقليم فى عهد السلطنة المملوكية .

كردوس

الكردوس أو الكردوسه وجمعها كراديس هى الفـرقة الحربيـة الراكبة .

(م)

المجاليب

المماليك الذين يشتريهم السلطان ويعهـد لمقدمى المماليك بتدريبهم وتعليمهم ، لذلك فهم أقل حظوة من الخاصكية الذين يدربهم السلطان شخصيا .

المشاعليـة

المكلفون بتنفيذ أحـكام الوالى وكان عملهم ـ فى الأصل ـ السير أمام الوالى بالمشاعل .

المرد

جمع أمرد ، وهو الصبى الجميل الذى لم تنبت لحيتـه ولم ينبت شـاربه .

مكاحل البارود

آلة حربية تقذف النفط .

المكحـل

مسئول مكاحـل البـارود وهى المدافع على أنواعها .

(و)

الوطاق

هو الخيمة الكبيرة تعـد للقـادة وتعنى أيضا خيام المعسكر . وجمعها وطاقات .

(ى)

اليزك

بفتح اليـاء والزاى هـو رئيس العسس .

اليكنجريه

انظر الانكشارية

الكشـــاف

حذفنا الالف واللام من الترتيب .

اعتبرنا (ابن) و (ابو) داخل الترتيب .

أعتبرنا باشا ضمن الاسم المملوكى ودخلت فى الهجاء .

(أ)

(ح)

(خ)

(ش)

(ص)

(ن)

اقرأ فى هذه السلسلة

برتراند رسل
أحلام الاعلام وقصص اخرى

ى. رادو نكاياوم جابوتنسكى
الالكترونيات والحياة الحديثة

ألدس هكسلى
نقطة مقابل نقطة

ت. و. فريمان
الجغرافيا فى مائة عام

رايموند وليامز
الثقافة والمجتمع

د. ج. فوربس و ا. ج. ديكستر هور
تاريخ العلم والتكنولوجيا
٢ ج

ليسترديل راى
الأرض الغامضة

والتر آلن
الرواية الانجليزية

لويس فارجاس
المرشد الى فن المسرح

فرانسوا دوماس
آلهة مصر

د. قدرى حفنى وآخرون
الانسان المصرى على الشاشة

اولج فولكف
القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة

هاشم النحاس
الهوية القومية فى السينما

ديفيد وليام ماكدوال
مجموعات النقود . صيانتها
تصنيفها - عرضها

عزيز الشوان
الموسيقى تعبير نغمى ومنطق

د. محسن جاسم الموسوى
عصر الرواية

ديلان توماس
مجموعة مقالات نقدية

جون لويس
الانسان ذلك الكائن الفريد

جول ويست
الرواية الحديثة . الانجليزية
والفرنسية

د. عبد المعطى شعراوى
المسرح المصرى المعاصر
أصله وبدايته

انور المعداوى
على محمود طه الشاعر والانسان

بيل شول وادبنيت
القوة النفسية للاهرام

صفاء خلوصى
فن الترجمة

رالف ئى ماتلو
تولستوى

فكيتور برومبير
ستندال

فيكتور هوجو
رسائل وأحاديث من المنفى

فيرنر هيرنبورج
الجزء والكل « محاورات فى مضمار
الفيزياء الذرية »

سدنى هوك
التراث الغامض . ماركس
والماركسيون

ف. ع. ادينكوف
فن الأدب الروائى عند تولستوى

هادى نعمان الهيتى
أدب الأطفال « فلسفته ، فنونه
وسائطه »

د. نعمة رحيم العزاوى
أحمد حسن الزيات كاتبا وناقدا

د. فاضل احمد الطائى
اعلام العرب فى الكيمياء

جلال العشرى
فكرة المسرح

هنرى باربوس
الجحيم

د. السيد عليوة
صنع القرار السياسى فى
منظمات الادارة العامة

جاكوب برونوفسكى
التطور الحضارى للانسان

د. روجر ستروجان
هل نستطيع تعليم الاخلاق
للاطفال ؟

كاتى ثير
تربية الدواجن

ا. سبنسر
الموتى وعالمهم فى مصر
القديمة

د. ناعوم بيتروفيتش
النحل والطب

جوزيف داهموس
سبع معارك فاصلة فى العصور
الوسطى

ليتواير تشامبرزرايت
سياسة الولايات المتحدة
الامريكية ازاء مصر

د. جون شيندلر
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى
السنة

بيير البير
الصحافة

د. غبريال وهبة
دور الكوميديا الالهية لدانتى
فى الفن التشكيلى

رمسيس عوض
الأدب الروسى قبل الثورة
البلشفية وبعدها

د. محمد نعمان جلال
حركة عدم الانحياز فى عالم
متغير

فرانكلين ل. باومر
الفكر الأوروبى الحديث ٤ ج

شوكت الربيعى
الفن التشكيلى المعاصر فى
الوطن العربى

د. محى الدين احمد حسين
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار

ج. داملى اندرو
نظريات الفيلم الكبرى

جوزيف كونراد
مختارات من الأدب القصصى

د. جوهان دورشنر
الحياة فى الكون كيف نشأت
وأين توجد

مائة من العلماء الأمريكيين
مبادرة الدفاع الاستراتيجى
حرب الفضاء

د. السيد عليوة
ادارة الصراعات الدولية

د. مصطفى عنانى
الميكروكمبيوتر

مجموعة من الكتاب اليابانيين القدماء
والمحدثين
مختارات من الأدب اليابانى
الشعر - الدراما - الحكاية -
القصة القصيرة «

جابرييل باير
تاريخ ملكية الأراضي في مصر الحديثة

انطوني دي كرسبني وكينيث مينوج
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة

دوايت سوين
كتابة السيناريو للسينما

زافيلسكي ف. س
الزمن وقياسه (من جزء من البليون جزء من الثانية وحتى مليارات السنين)

مهندس ابراهيم القرضاوي
اجهزة تكييف الهواء

بيتر رداي
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعي

جوزيف داهموس
سبعة مؤرخين في العصور الوسطى

س. م. بورا
التجربة اليونانية

د. عاصم محمد رزق
مراكز الصناعة في مصر الاسلامية

رونالد د. سمبسون ونورمان د. اندرسون
العلم والطلاب والمدارس

د. أنور عبد الملك
الشارع المصري والفكر

والت وتيمان روستو
حوار حول التنمية الاقتصادية

فرد س. هيس
تبسيط الكيمياء

جون لويس بوركهارت
العادات والتقاليد المصرية من الامثال الشعبية في عهد محمد على

الان كاسبيار
التذوق السينمائي

سامى عبد المعطى
التخطيط السياحي في مصر بين النظرية والتطبيق

فريد هويل وشاندرا ويكراما سينج
البذور الكونية

حسين حلمى المهندس
دراما الشاشه (بين النظريه والتطبيق) للسينما والتليفزيون ٢ ج

روى روبرتسون
الهيروين والايدز واثرهما في المجتمع

دور كاس ماكليتوك
صور افريقية : نظرة على حيوانات افريقيا

هاشم النحاس
نجيب محفوظ على الشاشه

د. محمود سرى طه
الكومبيوتر في مجالات الحياة

بيتر لورى
المخدرات حقائق نفسية

بوريس فيدوروفيتش سيرجيف
وظائف الاعضاء في الالف الياء

ويليام بينز
الهندسة الوراثية للجميع

ديفيد الدرتون
تربية اسماك الزينة

أحمد محمد الشنوانى
كتب غيرت الفكر الانساني

جون . ر. بورر وميلتون جولدينجر
الفلسفة وقضايا العصر ٣ ج

ارنولد توينبي
الفكر التاريخي عند الاغريق

د. صالح رضا
ملامح وقضايا في الفن التشكيلي المعاصر

م. هـ كنج واخرون
التغذية في البلدان النامية

جورج جاموف
بداية بلا نهاية

د. السيد طه السيد ابو سديره
الحرف والصناعات في مصر الاسلامية منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي

جاليليو جاليليه
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون ٣ ج

اريك موريس والان هو
الارهاب

سيرل الدريد
اخناتون

ارثر كيستلر
القبيلة الثالثة عشرة ويهود اليوم

ب. كوملان
الأساطير الاغريقية والرومانية

د. توماس ا. هاريس
التوافق النفسي ـ تحليل المعاملات الانسانية

لجنة الترجمة ، المجلس الأعلى للثقافة
الدليل البيبليوجرافي روائع الآداب العالمية ج ١

روى أرمز
لغة الصورة في السينما المعاصرة

ناجاى متشيو
الثورة الاصلاحية في اليابان

بول هاريسون
العالم الثالث غدا

ميكائيل ألبي وجيمس لفلوك
الانقراض الكبير

أدامز فيليب
دليل تنظيم المتاحف

فيكتور مورجان
تاريخ النقود

محمد كمال اسماعيل
التحليل والتوزيع الاوركسترالي

ابو القاسم الفردوسي
الشاهنامة ٢ ج

بيرتون بورتر
الحياة الكريمة ٢ ج

جاك كرابس جونيور
كتابة التاريخ في مصر القرن التاسع عشر

محمد فؤاد كوبريلي
قيام الدولة العثمانية

لوني بار
التمثيل للسينما والتليفزيون

تاجور شين يي ... ج وآخرون
مختارات من الآداب الأسيوية

ناصر خسرو علوى
سفرنامة

نادين جورديمر وجريس اوجوت وآخرون
سقوط المطر وقصص اخرى

احمد محمد الشنوانى
كتب غيرت الفكر الانساني ٧ ج

جان لويس بورى وآخرون
في النقد السينمائي الفرنسي

العثمانيون في اوربا
بول كولز

ويليس بير برايز
صناع الخلود

زيجمونت هبر
جماليات فن الاخراج

جوناثان ريلى سميث
الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية

الفريد ج. بتلر
الكنائس القبطية القديمة فى مصر ٢ جـ

ريتشارد شاخت
رواد الفلسفة الحديثة

ترانيم زرادشت
من كتاب الافستا المقدس

الحاج يونس المصرى
رحلات فارتيما

هربرت شيلر
الاتصال والهيمنة الثقافية

برتراند راسل
السلطة والفرد

بيتر نيكولز
السينما الخيالية

ادوارد ميرى
عن النقد السينمائى الأمريكى

نفتالى لويس
مصر الرومانية

ستيفن أوزمنت
التاريخ من شتى جوانبه ٣جـ

مونى براح واخرون
السينما العربية من الخليج الى المحيط

فانس بكارد
انهم يصنعون البشر ٢ جـ

جابر محمد الجزار
ماستريخت

ابرار كريم الله
من هم التتار

ج. س. فريزر
الكاتب الحديث وعالمه
٢ جـ

موريال عبد الملك
حديث النهر
من روائع الآداب الهندية

لوريتو تود
مدخل الى علم اللغة

اسحق عظيموف
الشموس المتفجرة
أسرار السوبر نوفا

مارجريت رور
ما بعد الحداثة

د. بيارد دودج
الأزهر فى ألف عام

ستيفن رانسيمان
الحملات الصليبية

هـ. ج. ولز
معالم تاريخ الانسانية
٤ جـ

جوستاف جرونيباوم
حضارة الإسلام

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ
رحلة بيرتون الى مصر والحجاز
٣ جـ

جلال عبد الفتاح
الكون ذلك المجهول

ارنولد جزل واخرون
الطفل من الخامسة الى العاشرة
٢ جـ

بادى أونيمود
افريقيا – الطريق الآخر

د. محمد زينهم
فن الزجاج

برنسلاو مالينوفسكى
السحر والعلم والدين

ادم متز
الحضارة الاسلامية

فانس بكارد
انهم يصنعون البشر

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ
يوميات رحلة فاسكو داجاما

ايفرى شاتزمان
كوكبنا المتحد

سوندارى
الفلسفة الجوهرية

مارتن فان كريفلد
حرب المستقبل

فرانسيس ج. برجين
الاعلام التطبيقى

عبده مباشر
البحرية المصرية من محمد على للسادات

ج. كارفيل
تبسيط المفاهيم الهندسية

توماس ليبهارت
فن المايم والبانتوميم

ادوارد دوبونو
التفكير المتجدد

ويليام هـ. ماثيوز
ما هى الجيولوجيا

كريستيان ساليه
السيناريو فى السينما الفرنسية

بول وارن
خفايا نظام النجم الأمريكى

جورج ستاينر
بين تولستوى ودوستويفسكى
٢ جـ

يانك لافرين
رومانتيكية والواقعية

محمود سامى عطا الله
الفيلم التسجيلى

جوزيف بتس
رحلة جوزيف بتس

ستانلى جيه سولومون
انواع الفيلم الأميركى

هارى ب. ناش
الحمر والبيض والسود

جوزيف م. بوجز
فن الفرجة على الأفلام

كريستيان ديروش نوبلكور
المرأة الفرعونية

جوزيف نيدهام
موجز تاريخ العلم والحضارة فى الصين

ليوناردو دافنشى
نظرية التصوير

ت. ج. هـ. جيمز
كنوز الفراعنة

رودولف فون هابسبرج
رحلة الأمير ردولف الى الشرق
٣ جـ

مالكوم برادبرى
الرواية اليوم

وليم مارسدن
رحلة ماركو بولو ٣ جـ

هنرى بيرين
تاريخ أوربا فى العصور الوسطى

ديفيد شنيدر
نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر

اسحق عظيموف
العلم وآفاق المستقبل

رونالد دافيد لانج
الحكمة والجنون والحماقة

كارل بوبر
بحثا عن عالم افضل

فورمان كلارك
الاقتصاد السياسى للعلم والتكنولوجيا

السيد نصر الدين السيد
اطلالات على الزمن الآتى

ممدوح عطية
البرنامج النووى الاسرائيلى والأمن القومى العربى)

د. ليوبوسكاليا
الحب

ايفور ايفانس
مجمل تاريخ الأدب الانجليزى

هيربرت ريد
التربية عن طريق الفن

وليام بينز
معجم التكنولوجيا الحيوية

الفين توفلر
تحول السلطة ٢ ج

يوسف شرارة
مشكلات القرن الحادى والعشرين والعلاقات الدولية

رولاند جاكسون
الكيمياء فى خدمة الانسان

ت. ج. جيمز
الحياة أيام الفراعنة

جرج كاشمان
لماذا تنشب الحروب ٢ ج

حسام الدين زكريا
انطون بروكنر

ونفرد هولر
كانت ملكة على مصر

جيمس هنرى برستد
تاريخ مصر

بول دافيز
الدقائق الثلاث الأخيرة

جوزيف ومارى فيلدمان
ديناميكية الفيلم

ج. كونتنو
الحضارة الفينيقية

ارنست كاسيرر
فى المعرفة التاريخية

كنت أ. كتشن
رمسيس الثانى

جان بول سارتر وآخرون
مختارات من المسرح العالمى

روزالند ، وجاك يانسن
الطفل المصرى القديم

نيكولاس ماير
شرلوك هولمز

ميجيل دى ليبس
الفئران

جوسيبى دى لونا
موسولينى

الويز جرانيه
موتسارت

روبرت سكولز وآخرون
آفاق أدب الخيال العلمى

ب. س ديفيز
المفهوم الحديث للمكان والزمان

س. هوارد
اشهر الرحلات الى غرب افريقيا

و. بارتولد
تاريخ الترك فى آسيا الوسطى

فلاديمير تيمانيانو
تاريخ أوربا الشرقية

جابرييل جارسيا ماركيز
الجنرال فى المتاهة

هنرى برجسون
الضحك

د. مصطفى محمود سليمان
الزلازل

م. و. ثرنج
ضمير المهندس

أ. ر. جرنى
الحيثيون

ستينو موسكاتى
الحضارات السامية

د. البرت حورانى
تاريخ الشعوب العربية

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٨/١٣٠٠٢

ISBN — 977 — 01 — 5928 — X

